الأعمال الخاصة

فتحى سلامة

مكتبة الأسرة 2000

مهرجان القراءة للجميع

عشر سنوات 2000

قضايا فى دوائر حوارية





قضايا فى دوائر حوارية

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني: تكوين
التقنية: ألوان جوش على ورق
المقاس: ٧٠×١٠٠سم

محمد حجى

فنان تشكيلى، آثر العمل الصحفى، فتميزت رسومه فى أغلب المجلات المصرية والعربية، وقد بدأ العمل فى مؤسسة روز اليوسف ومجلة صباح الخير، وله العديد من الكتب التى تحوى بين دفتيها لوحات تشكيلية مثل «رسوم من ليبيا» و«شمال يمين»، وهو يعمل حاليًا بجامعة الدول العربية، وهو يمتاز بطابع جرافيكى واضح، مع ميل لاستخدام غوامق الألوان لسطوع الضوء من بين عتامتها بوضوح تام. ونطالع فى أعداد مجلة «وجهات نظر» رسوم الفنان، فنرى أنها قريبة جداً من أسلوب الحفر منها إلى التصوير، ولم يمارس طوال عمله دور الرسام التوضيحى، بل ظل صاحب الرؤية الموازية لموضوعات الكتاب، فأضافت لوحاته أبعاداً فنية وفكرية.

محمود الهندى

قضايا فى دوائر حوارية

فتــحى ســلامـة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

قضايا فى دوائر حوارية

فتحى سلامة

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

مقـــدمة

الحمد لله الذى هدانا الى الايمان ، والحمد لله الذى أعادنا الى نور العافية لما صبرنا على بلاء المرض ، الحمد لله أولا وأخيرا ، هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، خلقنا وهدانا ، وصــــورنا فى أحسن صورة وحملنا أمانة الكلمة ، ونور قلوبنا بنور الهدى ، وأنار عقولنا بنور العلم والبحث عن المعرفة ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم المرسلين وامام المهتدين ، والكامل المكمل بزينة العقل ، به اهتدينا ، وبسنته صلى الله عليه وســــلم نســـير ونعمـل ، أما بعـد .

خلال مرحلة الشفاء وداخل جدران حجرة صغيرة ، جدرانها ملساء بيضاء ، وجدتنى محروما من الحركة ، حبيس أســــلاك تكبلنى ــ وقيــود تهددنى ، رهن أوامر وتعليمـــات ، وألم يدق العظم ، وعيون تتطلع نحوى فى شفقة ، وجدتنى أفكر ، وهذه نعمة كبرى أن تفكر بعيدا عن الجسد المنهوك ، وبعيدا أيضا عن رقابة الأطباء ومساعديهم ــ والفكر ساحة ، فياحة ، لا حدود لها ولا نهاية ــ مريحة أحيانا ، مجهدة فى أغلب الأحيان ، ومضيت بعقلى أهرول فى ساحة الفكر أو التفكير ، .. وأعدت فى ذهنى كل صور الماضى فى

محاولة لاعادة ترتيبها أو تبديلهـــا ، أو حتى جمعهـــا فى شريط متكامل ، وعدت الى سنوات الصبا الباكر فى قريتى المغموسة فى طين الدلتا ، وأول ما صادفنى صور (عفاريت الحارة) و (النداهة) وأرانب الليل البيضاء التى تجرى بين الأقدام ، وحمار يجرى فى مهـارة ، فاذا اقتربت منـــه تحول الى قطة أو كلب أو الى لاشىء ، والغلمان يتحوطون بى ، والألسنة الصغيرة تحكى وتحكى ، وينخلع قلبى ، وترتعد فرائصى ، وأجرى نحو أمى ، ويتحول الليـل الى أشباح وظلال لأشباح ، وتتحول جدران غرفتى الى لوحة متكاملة لقصة شبح من الأشباح ؛ وتتحرك الأشـــباح وأنا لا أدرى ماذا أفعل ، وقصدت صديقا لى ، أصبح فيما بعد أحد علماء الطبيعة المرموقين ، وسألته ، قال كل شىء يخضع للتجربة ، ليس كل ما يقال وجب تصديقه بل يجب اخضاعه للتجريب ، وخرجنا الى حيث أشار الغلمان ، جميزة (عم هاشم) ، ترقد هنا مجموعة هائلة من العفاريت ، التى تتحول بالليل الى حمير وبغال وأرانب وقطط وأيضا الى نساء جميلات وتسلحنا (بكشافات الانارة) وبعض القطع الخشبية والمسامير ، وقعدنا نراقب المنطقة المظلمة أســـفل شجرة الجميز ، ولكن لاشىء حدث حتى طلوع النهار ، وتكررت (تجربتنا) ، والحق يقال كان الخوف يهد بدنى ويهزه ، وكذلك زميلى الدكتور أحمد رفعت أو هكذا صار اسمه فيما بعد ، وبعد أسبوع ، كنا قد اكتشفنا شيئا من الشجاعة ، قررنا دخول تجربة (النداهة) ولا يظن أحد أن النداهة هذه مجرد بدعة ، انما عرفت فيما بعد أنها مرض نفسى يعرفه علماء النفس ؛ ولكن النداهة التى سمعت عنها وأنا صبى ، تخرج من الماء جميلة رشيقة تثير الخيال ، وتلهب العاطفة ولا يقدر على مقاومتها انسان ، فاذا سمع نداءها ، وجرى خلفها سقط فى دوامات الماء ، وابتلعه اليم وضاع ، واقتربنا من الجسر ، وقد تملكنا خوف شديد ، وتحد أشـــــد ، ووقف أحمد رفعت فى مكان ، ووقفت أنا فى مكان بعيد عنه ، ولا أظن

أنه كان أشجع منى ، ولكن كل منا تظاهر بالشجاعة أكثر من الآخر ، ومضت الساعات ، ولم نسمع صوت النداهة ولا رأينا شبح هذه النداهة ، وتوالت الليالى ، ونحن فى كل ليلة (نجرب) فى مكان بجوار النهر حيث يقبع النهر خلف بيوتنا ..

وأخيرا ، داخلنا الاحساس بأن هذه (الحواديت) ليست صحيحة ، وتركنا هذا الأمر ونحن على يقين غير كامل بأن مسألة العفاريت هذه مجرد خدعة أو أكذوبة ، انها مجرد حواديت وأخذتنا الأيام ، حتى صرنا فى باكورة الشباب ، وواجهنا قضية الايمان ، لماذا نؤمن ، وأين الله ، ولماذا ، وكيف ، وتداخلت عوامل عدة ، فيها كثرة القراءة فى كتب مختلفة المذاهب ، وفى موضوعات متباينة ، وتقلبت بنا الأحوال ، فنحن تارة على يقين ايمانى بوجود الله ، وتارة أخرى مع الذين ينفون ذلك ، ولم يكن لدينا مجال للتجربة ، كما يرى زميلى أحمد رفعت ، اشتركنا فى الاحتفالات الدينية ، ودخلنا عشش الصوفية ، اشتركنا مع أهل الحجابة والأعمال السفلية ، حصلنا على كتب صفراء غبراء ، ولكن بلا فائدة ظل التأرجح بين اليقين والشك يأخذنا ، ولم نشعر الا والأيام تقدم لنا قضايا جديدة لعوالم جديدة ، ولاحظنا أن مدرس العلوم يجعلنا نحفظ معادلات الكيمياء حفظا لاندرى سببه ، وزأم صاحبى وزمجر وقرر أن ندخل عالم التجربة فى ميدان الطبيعة والكيمياء لنرى الحديد وهو يتمدد ، ونرى تحول الماء الى أكسوجين وأيدروجين ونرى ماذا يفعل الزئبق ، ولفرحتنا وجدنا أن كل هذه (المعادلات) الجافة تتحول الى واقع ملموس نشمه ونراه ونلمسه ، واستغرقتنا التجربة ، ولم ير مدرس الطبيعة الا أن يسارع بطردنا من فصله ، ويرفض حضورنا درسه لأننا كما وصفنا (مجانين) .

ولجأنا الى الكتب ، نقرأ ونقرأ ، وكلما ازددنا اطلاعا ، ازددنا جهلا بالكون وحقائقه ، بالطبع وقع فى أيدينا كتب الفلسفة وعلم الأخلاق وعلوم الكلام وغيرها ، وكانت القضية الكبرى ، تشابك تلك العلوم مع مثيلاتها كتب الكمياء والطبيعة وما يجرى متجراهما ، أهو العلم الذى يصل بالانسان الى اليقين أم الفلسفة ، ماهو الفرق ، ما هو الصحيح ، (المعتزلة) أم (الشيعة) ، وتشابكت فى عقولنا أقوال ابن رشد وابن حزم والقرطبى وابن خلدون ، وهربنا الى تولستوى وأميل زولا وبلزاك وجوركى وديكارت وسبنسر وسارتر وكارل ماركس •

تفرقنا ، وذهب صاحبى ليدرس الكيمياء في جامعة عين شمس ثم فى النمسا ، ثم صار عالما من علماء الذرة المعدودين ، رحمه الله ، لقد توفاه الله وأنا أكتب هذه المقدمة الطويلة لكتابى ، وذهبت أنا لادرس الفلسفة وعلم النفس فى القاهرة ثم فى بلاد الله ، ومات أحمد رفعت ولم يحصل على جواب ، ورقدت أنا فى سريرى لا أدرى من أمر نفسى شيئا ، وكل ما أرجوه أن أتمسك بايمانى وأن يهدينى الله الى ما يرضاه •

. . .

ولهذا قررت أن أخصص هذا الكتاب لقضايا تداخلت فى دوائر الحوار ، ولأن عملى الصحفى طوال ما يقرب من خمسين عاما جعلنى أقرب لدوائر الحوار من غيرى ، وصار يومى كله حوارا مع الآخر ، سواء كان هذا الآخر مفكرا شهيرا أو مجرد رجل بسيط ، وشاء الله أن أكون بالقرب من نجوم القرن العشرين ، من ذهب منهم الى ربه ومن بقى حتى اليوم ، وأذكر كل محاوراتى مع الرائد العظيم توفيق الحكيم المفكر والفيلسوف والمبدع والمرشد وأذكر وأنا أتمتم بصوت هامس ، وهم يدسرونه اللحد فى مقبرته بالاسكندرية وكان معنا الأستاذ أنيس منصور قلت : والآن

ياتوفيق عرفت الاجابة الشافية عن كل ما حيرك • الآن ياتوفيق أنت اليوم بصرك ضرير •

وأشهد أن توفيق الحكيم ، عاش عمره كله مؤمنا أشد الايمان ، وشهدت أنا ذلك وخاصة في الفترة التى قضيتها بجواره وهى تقرب من ربع قرن ، وكان يردد أن الصلاة ليست فقط بين العبد وربه ، انما هى بين العبد وربه لصالح مجتمعه ، وكان يتمنى أن يصلى كل الناس حتى يعم السلام والخير •

وأول من أرشدني لتأليف هذا الكتاب هو توفيق الحكيم وكان صاحب عنوان أول قضية ، لأنه كان يومها يتحدث كثيرا عن خواء الحياة الثقافية وقلة ما تثيره من قضايا فكرية ذات شـأن ، لهذا طالبنا أن نبحث عن الجديد من القضايا الفكرية ، ولما فكرنا في قوله وجدنا أنه لاشيء جديد ، وان الانسان لم يحل حلا جزريا قضية من قضايا وجوده وهناك أمر آخر ، يجب ذكره لأنه يمثل قاعدة أساسية في هذا البحث ، وهو ليس رأيي وحدى ، ولا نتيجة اجتهادى العلمي ، انما هو نتيجة أبحاث مجموعة من المتخصصين ، ربما يغيب عنى الآن ذكرهم ، والمصادر التي وافتني بهذه المعلومة ، وهى أن الانسان (المعاصر) لا (يستغل) قدراته العقلية الكاملة ولتكن ٣٠ وحدة عقلية ، انما يستغل ويستخدم واحدا على ثلاثين من الوحدات ، وينمو هذا الاستغلال أو الاستخدام مع مرور الأزمنة ، والدليل على ذلك ، المخترعات وسرعة الوصول اليها ، فان الصوت مثلا ظل موجودا منذ وجد الانسان ، وظـل موجودا فى الهـواء لايختفى ، ذلك مثل الصورة والأشكال المرئية ، وعندما توصـل الانسان الى الامساك بالصوت وايصاله الى الأماكن التى يحددها ذلك الانسان ، وكذلك الأشكال المرئيـة ، ومنذ اختراع النـار أو اكتشافها ، ومنذ عصر الحديد ، وعصر البخار ، وعصر الآلة

والكهرباء ، وكل ذلك يدلل على أن (العقل البشرى) واحد ، وأن الامكانيات العقلية تكاد تكون ثابتة ، أما الاستفادة أو استغلال هذه القدرات الفعلية فهى مختلفة من انسان الى آخر ، ومن فترة زمنية الى أخرى ، يدخل فى حساب ذلك الظواهر الاجتماعية المؤثرة مثل العادات والتقاليد والاقتصاد واللغة وغير ذلك ، بالاضافة الى ذلك (العقل الجمعى) القادر على السماح للمعقولات أن تمر أو أن يمنع تلك المعقولات من التداول ٠

وما سبق يدل على أن (القضايا) التى يطرحها الانسان لها علاقة بكل ما ذكرنا ، بل أن (القضايا) المثارة تعبر عن الحال الجمعى أو الحياة فى كل مجتمع ٠

ولكن المنظور العقلى الذى يتناول تلك القضايا يختلف باختلاف آفاق العقل الجمعى وما يحمله من ظواهر اجتماعية ، لتكن قضية الحجاب التى تولاها مفكرو القرن العشرين ومن بدايته ، وكان البطل قاسم أمين شاركته هدى شعراوى واشترك معها كوكبة من فرسان الفكر فى أوائل القرن العشرين ، وبالتأكيد كانت هناك عدة مدارس تناولت قضية الحجاب بين معارضة ومؤيدة ، ولو نظر منصف الى تلك القضية وجد أنها (مجرد بدعة) أو مايمكن تسميته بالموضة ، فهل ظلت النساء خلال عصور الانسانية المختلفة محجبات ؟ ٠٠ ألم نرى على جدران المعابد القديمة نساء عاريات ، ورأينا أيضا صورا لنساء متحررات من كل شىء ، كان هذا عاديا مقبولا ، ثم جاءت فترة وتحولت النساء الى (كنز مكنون) داخل عشرات من الملابس والأحجبة ، بل أن الثورة الفنية التى حدثت فى باريس عند ظهور رقصة (الكان كان) وما تلاها من مظاهر الغضب القانونى ، والاستحسان الرجالى ، وغضب رجال الدين ، مع أن الرقصة لم تكن بها من الاباحية ما يماثل

مجرد اشتباه فى العرى كما يحدث الآن على مسارح العالم ، ولكن هذا الغرض (الكائن كان) كان ثورة ضد كل تلك الأحجبة التى كانت تغطى المرأة الأوربية عموما ، فى نفس الوقت كانت المرأة فى بعض بلدان افريقيا واستراليا وبعض مناطق من شرق آسيا تسير عارية تماما ، ولم نسمع عن قضية العرى فى بلدان افريقيا ولا نسمع عنها الآن فى أوربا ، حيث صار العرى هو العادة المتبعة ، وقضية الحجاب فى مصر خلال أوائل القرن العشرين تمثل نموذجا للقضايا الاجتماعية والفكرية التى يمكن احتسابها (قضايا وقتية) أنها قضايا تموين ـ مثل أزمة فى السكر أو الغاز أو اللحم •

وليست من باب قضايا الرأى الذى يمكن أن يحول حيـــاة الانسان من حال الى حال ، ربما يبدو حديثى هذا حديثا سطحيا ، ولكن للأسف ما أسهل الكلمات وما أصعب ماترمى اليه ، ذكرتنى قضية الحجاب لمقال للمفكر توفيق الحكيم الذى تصور فيه حـــال المرأة بعد أن كشفت حجابها ، وقصت شعرها ، وتخلت عن زينتها ، وأصبحت فى شكل الرجال ، ويثور النساء من أجل العودة الى شكل المرأة ، وتتسلل (بدع النساء) فى سرية كاملة الى بعض النسوة ، وتصبح أمال النساء فى الحصول على أدوات الزينة والعودة الى عصر الحريم وما يحمله هذا العصر من مظاهر النساء المحجبات •

وقد جعلنى هذا المقال المنشور فى أوائل عام ١٩٤٠ ، أفكر فى العودة الى دراسة القضايا التى هزت المجتمع كان لها دويا هائلا واستهلكت مساحات واسعة من الصحف والمجلات والكتب •

ولهذا يمكن تقسيم القضايا الى ثلاثة أقسام •

أولها : القضايا التى حيرت العقل البشرى طوال وجوده على ظهر الأرض ، وبعض هذه القضايا صعب الحل ، مثل سر الخلق ،

وتفسير وجوده ، وصيرورة هذا الوجود وغير ذلك ، والبعض الآخر اختلف فيه الفلاسفة والحكماء والعلماء أيضا .

ثانيا : القضـايا العلمية البحتة ، وهذه لاحظنا أنهـا قابلة للتغير واختلاف التفسـير ، وتسـاندهـا تطور أجهزة البحث والتقصى ، وهى فى حالة نمو وازدياد ، على الرغم من أن الظاهر ان العلم يحل الكثير منها ، ولكن الواقع ان العلم مثل الرمال المتحركة كلما ازددت تقدما ازددت غوصـا وما لك من حـل الا الاستزادة من العـلم .

ثالثا : قضايا استطاع العلماء بالاستعانة بالفلسفة الوصول الى حلول اقتنع بها العقل الجمعى الى حد ما ، ولكنها لاتزال تطرح من جديد ، مع تجدد العلوم وأدواتها .

وعود على ما بدأناه ، فقد سردنا قصـة حواديت العفاريت والنداهة من (نظرة الصبى) ، فهل انتهت تلك الحواديت وتـم الاقتناع بانها مجرد حواديت خيالية ، للأسف لم يصل الأمر الى حد قاطع بخصوصها ، ولازلنا نسمع ونرى فى الصحف العربيـة والأوربية حوادث تقع تحت هذا الاسم بل باستقراء الأخبار العالمية الحديثة ، نرى رؤساء بلدان متقدمة علميا وسياسيا يلجأ البعض منهم الى العرافين وضاربى الودع والرمل ، ونسمع عن كتاب شهير يقال انه تم تأليفه فى القرن السابع عشر ، تنبأ فيه كاتبه باحداث يقال انها وقعت أو ستقع ، كل هذا يعطينا اليقين انه لا شىء ثابت ثبات الشمس والقمر ، بل كل شىء قابل للمناقشة وابداء الرأى ، لهذا تكتسب طرح القضايا أهمية قصوى فى مجال الفكر .

كما أنه ليس هناك قضية بسيطة أو قضية مركبة ، أو بمعنى أفضل قضية تافهة أو قضية عريضة هامة ، ان كل ما يصادف الانسان فى حياته اليومية يمثل له قضية هامة عليه أن يواجهها وان يصل الى حلها ، وهنا يمكن طرح السؤال التالى (ما هى القضية) .

ودون الدخول فى مقتبسات المراجع والأسانيد ، وهو أمر حاولنا تجنبه من البداية ، ونعتقد ان اجتزاء مجموعة عبارات تدلل على معنى معين لا يمثل فى الحقيقة شيئا ، وقد نبهنى الى ذلك أستاذ لى فى جامعة بون بالمانيا ، ان حشو الكتب بأسانيد لا يدلل على عبقرية الباحث ، لهذا نكتفى بالتفسير الذى يهمنا نحن خلال مناقشة هذا الكتاب ، وهو أن القضية باختصار شديد مجموعة اشكالات مركبة يصعب حلها مباشرة ، بل يجب تحويلها الى جزئيات وتفسير كل جزء أو حل كل جزء بمفرده ، ثم النظر الى كل تلك الأجزاء بعد تفسيرها لنتمكن من حل القضية ، وهذا بالطبع يتوقف على مجموعة عوامل ، أولها وجهة النظر التى يتبناها الباحث ، وهى تعد محاولة موضوعية للحل ، ثانيا درجة ثقافة الباحث ، ثالثها الدرجة الحضارية للجمع البشرى فليست هناك قضية بدون مجتمع ، أو بدون تشابك مع العقل الجمعى ، والعادات والتقاليد والعرف السائد تمثل ركنا أساسيا لإثبات القضايا ، وأيضا حلها ، اذن نحن أمام تفسير محدد (للقضية) نلتزم به ، وهو علاقة الاشكالات بالمناخ الاجتماعى والثقافى والاقتصادى ، وأيضا علاقتها بالعقل الجمعى الذى يدير هذا كله .

القرش المسحور

فى طفولتى ، وأنا أكتب هنا من مواقع معايشتى ، لهذا أرجو أن يكون هذا الكتاب جديدا لا يعتمد على (النقل) و (الحشو) لكم من المصطلحات ، التى لم تعد خافية على أحد ، وخاصة بعد

تطور الحاسب الآلي ، ونمو وسرعة أجهزة الرصد العلمي ، وفي مقدور طفل في الثانية عشرة جمع مادة علمية مليئة بكل المصطلحات الجديدة لو أنه أدار مفتاح شبكة المعلومات (أنترنيت) وطبع منها عدة صفحات ، كما كنا نقول ونحن في بداية الشباب ، « العلم في بطون الكتب » ، وكنا نقولها سخرية من الامتحانات التي تعتمد على الحفظ المطلق ، وقد لاحظت أن كل زملائي سواء في مراحل التعليم الابتدائي أو الثانوي أو الجامعي الذين يجيدون (الصم) أي حفظ المواد حفظا مطلقا ، لم يصلوا الى شيء ، بل ان أكثرهم تخلف في السنوات الدراسية ، ولم يحصل على ما كنا نحن ضعاف (الصم) على الشهادات (العاليــــة) ... ولم ينجح من مجموعتي الا (بلداء الفصل) وفقا لتعبير مدرسي تلك الأيـــام ، وهم تحديدا ثلاثة ، الدكتور (الآن) محمود رشاد ، والدكتور أحمد رفعت رحمه الله ، والعبد لله ، اذا اعتبرت نفسي ناجحـــا في شيء ما ، وكنا نحن الثلاثة لا نجيد (الصم) وكنا من المنبوذين الأشقياء كثيري الأسئلة والمشاغبة ، واذكر انني لم أحضر يوما واحد منتظما في فصلي لكثرة طردي من الفصل (لغبائي وطول لساني) كما كان يقول مدرس الكيمياء ، وكان يفعل هذا مع زميلي محمود وأحمد ، وكان يرتعد عندما يحضر الى الفصل (مفتش من الوزارة) ويسارع بالتركيز على ضرورة التزامنا الصمت التام ، ما كنا نفعل ، بل كنا نسارع بالقاء الأسئلة على المفتش ، وكنا نفعل هذا في جميع المواد ومع هذا كنا ننجح ، بل وأذكر ان بعض رجال التفتيش كان يدهش من أسئلة أحمد رفعت المشاغب .

كانت تحيرنا أشياء ، مثل (الصراط المستقيم) الذي نسير عليه للوصول الى الجنة والويل للذين لا يستطيعون عبوره ، وكان المدرس يتحدث عن هذا (الصراط) وكأنه حبل محدود لا يعبره الا لاعبي السيرك ، ولم نفهم المعنى الحقيقي الا بعد ان طال بنــا

العمر وامتدت أيدينا الى الكتب القيمة ، وأيضا (الدعاء) وقد لقننا مدرس الدين الأدعية كما حفظها هو ، ونحاول نحن ونجتهد لكي نرددها ولكن نجد في هذا صعوبة بالغة ، بل انني ذات مرة اجتهدت في الدعاء وأمسكت قرشا واحدا في يدى ورجوت الله أن يحوله الى قطعة ذهب ولم يتحول القرش الأبيض الى ذهب ، ماذا كنا نفعل ونحن أمام مدرس لا يريد أن يعي أكثر مما حفظه ، تحررنا من حفظ المدرس ، ورحنا نجتهد ونقرأ ونسأل ، وتعلمنا ان الدعاء أصل العبادة ، وأن خير الدعاء ما صدر عن قلب يعي مايقول ويؤمن بما يقول ، ونجونا بفضل (الغباء) الذى كان يصفنا به مدرسو المدرسة ، ان العلم في بطن الكتب ، ولكن ماذا في عقلى أنا ، كيف نفهم تحول الماء الى أوكسجين وأيدروجين ونحن لم نر هذا مطلقا ، كيف نفهم تحول العناصر الى مركب واحد له اسم ولون وفائدة ونحن لم نشاهده ولم نجربه ، هذا ما عشناه ، حتى عندما دخلنا عالم الدراسات العليا ، وبدأنا نمارس البحث العلمي ، وجدنا أساتذتنا يطلبون الاستشهاد والأسناد ووضع الفقرات المطولة والمنقولة من المراجع ، حتى اذا فعلنا هذا بلغ البحث ألف صفحة وما قولنا نحن مانريد قوله ، وأنا على اليقين لو أن مؤلفا غيرى قام بعمل هذا الكتاب ، لوجدنا أنه شرق بنا وغرب مقتبسا من كل مرجع فقرة ، وكأنه يخشى ان يقول ان هذا رأيي انا أو ان هذا ما توصلت أليه بالبحث والاستدلال والمقارنة والتجريب .

لقد أطلت في المقدمة ، لأنني أود أن أقرأ كتابا يعبر عن رأى صاحبه ، كما فعل جمال حمدان ، وكما كان يفعل توفيق الحكيم في كتبه الفلسفية أو الابداعية ، أو كما كان يفعل أستاذنا أحمد بهاء الدين .

وفي نهاية هذه المقدمة يجب أن أذكر انني مدين بهذا الكتاب لأستاذى توفيق الحكيم الذى علمني كيف الاحظ ، وكيف أتعلم ،

وأيضا لأنه كان وراء تأليف هذا الكتاب تحديدا ، فقد حدث وقرر الأهرام اصدار صفحة اسبوعية أو يومية (للثقافة) واسند الاشراف عليها لأستاذنا توفيق الحكيم وجمعنا الأستاذ توفيق (فاروق جويدة وعبد العزيز شرف وسامح كريم وأنا) لكي نقوم بتحرير تلك الصفحة ، وكان السؤال الأول الذى طرحه ؟

ما هي قضية الصفحة ، بل ما هي القضايا التى يجب ان نطرحها ، وراحت الآراء من حولى تتعارك . فأولا ان كل القضايا الفكرية والأدبية قد تم طرحها ومناقشتها ، وثانيا يجب ان نحدد ما هي الثقافة ، ان كل ما ينشر يعد ثقافة ، وهناك صفحات متخصصة للأدب وللقصة وللشعر وأيضا للاقتصاد والعلوم والسياسة . بل ان صفحات الرياضة والحوادث والأحداث المحلية والعالمية تعد ثقافة ، وتلقى توفيق الحكيم كل هذا السيل . وكنا وقتها في ريعان الشباب والفتوة ، كل واحد منا يعد علما في تخصصه ، وصمت الرجل وأمهلنا لجلسة مقبلة ، وفي الجلسة التالية أخذ يشرح لنا أهمية التثقيف العام ، وطرح مفهوما بسيطا للغاية للثقافة وقال هو الحد الأدنى لمعايشة حضارة العصر ، فليس من المعقول ان يفهم الانسان العادى ان الكهرباء معجزة ، وان رسومات الفنانين ليس لها معنى ، وان الطيارات تطير بالبركة ولكن يجب ان يفهم ان لكل شيء سببا ، وفهم العلة يدل على المعلول ، وقال يجب أن نبدأ في طرح قضايا تمس الناس ، ليست بالطبع قضايا المأكل والمشرب والسكن والملبس ، بل قضايا تمس عقولهم ، لأن بالعقل وحده يحيا الانسان ويعمر الأرض ويعبد الله ويتجاور مع غيره ويتعاون معه .. وخرجنا وكان أول سؤال طرحه توفيق الحكيم يشبه الفرخة أولا أم البيضة ، الفلسفة أولا أم العلم ، وبدأت انشغل بهذا الأمر ، بالعقل وحده يحيا الانسان وقضايا العقل هي الأكثر الحاحا حتى نتقدم ونعايش حضارة اليوم القادم .

لهذا سوف نقسم هذا الكتاب الى عدة دوائر ، كل دائـرة سوف تنشغل ببحث واحد ·

وأتمنى ان أشكر كل من ساهم معى فى ابداء الرأى والفضل كله لهؤلاء الذين سمحوا لى بنشر أقوالهم فى كتاب يحمل اسمى ·

ولله الشكر أولا وأخيرا ، وله الحمد حمدا كثيرا وسبحان الله ، ونصلى ونسلم على خاتم الأنبياء رسوله الكريم محمـد عليه أفضل الصلاة والتسليم ·

القاهرة ٤/٤/٢٠٠٠ فتحى سلامة

الفصـــل الأول

هل انتهى عصر الفلسفة الكبرى بثورة التكنولوجيـا

ثورة التكنولوجيا

بالتأكيد نحن نعيش في عصر ثورة التطبيقات العلمية لكافة مستحدثات العلم وعندما سألنا عالم الكيمياء الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٩٩ المصرى أحمد زويل قال إن العلم لم يعط كل أسراره ، وعلى الرغم من اعتراف العالم باكتشافات زويل واختراعاته التى فتحت باب المستقبل لكل العلوم وتطبيقات هذه العلوم سواء فى الهندسة والطب والفلك والكيمياء أو فى كافة النواحى الصناعية التى تستخدم هذه العلوم منفرده أو مجتمعه ، الا أن الدكتور زويل عبر عن رغبته فى المزيد ، على اعتبار ان اكتشافه سوف يؤدى الى مزيد من الاكتشافات العلمية ، فى الوقت نفسه فإن فلسفات كبرى ماتت أو فى سبيلها الى الموت ، لقد فقدت الشيوعية عزمها وأصبحت سرابا بعد أن كانت تقود العالم والعلماء أيضا ، وماتت الوجودية ، وهاهى نظرية العولمة على وشك المغيب ٠٠ فماذا يبقى من الفلسفة ٠

ونحن نعترف أن هذا المبحث الفضل فيه يرجع الى فيلسوف التعادلية كما كان يجب أن نسميه ، أو مفكر حوض البحر الأبيض ، كما أطلقوا عليه فى روما ، أو رائد المسرح العربى كما سماه نقاد وأساتذة المسرح مفكرنا فى الأهرام (توفيق الحكيم) فقد ناقش معنا هذه القضية وطالبنا بالمزيد من البحث والدراسة وسماها قضية القرن القادم ، وهانحن فى ذلك القرن (٢١) نناقشها لعلنا

نضيف أو نحذف ، وفقا لتقدمنا فى وسائل البحث ، وزيادة مساحة المعرفة ، هنا نحن نعيد الكرة ونطرح القضية من جديد ٠

فى البداية ، نعيد نشر ما سبق فى دائرة الحوار منذ سنوات ونقارن الآراء التى وردت ، بما توصلنا اليه من الآراء حول هذه القضية ٠

وقد اشترك فى دائرة الحوار الأولى كل من الأساتذة والدكاترة ابراهيم بيومى مدكور (رئيس المجامع اللغوية) ، أحمد رفعت حجازى (أستاذ ورئيس قسم الطبيعة ـ طرابلس) ، توفيق الحكيم ، الفيلسوف زكى نجيب محمود ، وشدى فكار (الأستاذ بجامعة الرباط) ، توفيق الطويل (أستاذ الفلسفة) ، أميرة مطر (رئيس قسم الفلسفة) ، بهاء الدين بكرى (أستاذ العمارة ـ هندسة القاهرة) ، عبد المنعم أبو العزم (رئيس أكاديمية البحث العلمى) ، محمد خيرى ابراهيم (أستاذ المحاصيل الزراعية) ، عبد الهادى أبو ريده (أستاذ الفلسفة الاسلامية) ، صلاح رسلان (أستاذ الفلسفة) ، محمد على غباشى (أستاذ البصريات) ٠

وها نحن نسجل خلاصة ما دار فى دوائر الحوار حول هذه القضية التى دارت فى الربع الأخير من القرن الماضى ، وسوف نبقى على ما جاء بها من الآراء ٠

هل انتهى عصر الفلسفة الكبرى ٠٠ بثورة العلم ؟

وهل نحن فى حاجة الى الفلسفة ؟

بمناسبة مرور ٢٣ قرنا على وفاة أرسطو (٣٢٢ ق٠م) أقيم المؤتمر الفلسفى العالمى السادس فى مدينة دوسلدورف

بالمانيا الغربية ، وحضره أكثر من ٢٥٠٠ فيلسوف من أنحاء العالم وكان أهم الموضوعات التى كان لها الصدارة فى المناقشـــة قضية الفلسفة فى عصر الثورة العلمية ، وبالطبع راح كل من حضر المؤتمر من الفلاسفة يدافعون عن (الفلسفة) ، وخرج المؤتمر بتوصيات أكثر تشددا تدعو الى المحافظة على التراث الفلسفى العالمى .

ولكن ماتزال القضية ، على الأقل على المستوى الشعبى ، فى حاجة الى مناقشة ، ومايزال السؤال المطروح هو : هل نحن فى حاجة الى الفلسفة ؟ وهل انتهى ذلك العصر الذهبى للفلسبـــفات الكبرى بتطور العلم وتطور التكنولوجيا ؟

وكان لابد من طرح القضية خـــلال ندوة تجمع مجموعة من العلماء ذوى التخصصات العلمية المختلفة يمثلون عدة جامعـــات عربية ، أيضا مجموعة من أساتذة الفلسفة بالاضـــافة الى نخبة من مفكرى العالم العربى ، وطرحت القضية على النحو التالى :

أولا : ما هى الفلسفة ؟

ثانيا : هل نحن فى حاجة الى الفلسفة فى هذا العصر ؟

ثالثا : ما موقف العلم من قضية الفلسفة ؟

رابعا : ما موقف الفلسفة من العلم ؟

وأمكن عن طريق هذا التفسير أن يبدأ الحوار ، الذى بدأه الأســـتاذ توفيق الحكيم ، الحائز على جائزة المفكر الأول لمنطقـــة حوض البحر المتوسط فى الأكاديمية الايطالية بروما .

قال توفيق الحكيم مفجرا القضية :

منذ أن انفصل العلم عن الفلسفة وسار بنفسه فى خطى وئيدة أول الأمر ، ثم انتفض بوقه فى القرن التاسع عشر الى أن وثب وثبته الكبرى فى قرننا الحالى ، كانت الفلســـفة كمصـــدر رئيسى للمعرفة العقلية تأخذ مهمتها فى التباطؤ كلما أسرع العلم فى السير ، وبعد أن كانت وحدة مكتملة بذاتها تفتتت الى عناصر منفصلة ارتبط كل عنصر منها بفرع من المعرفة ، فأصبح هناك ما يسمى بفلسفة العلم ، وفلسفة الفن ، وفلسفة الاجتماع ، وفلسفة التاريخ وفلسفة القوانين ، وفلسفة الأديان ٠٠ ونحو ذلك ٠٠

فهل الفلسفة بمعناها القديم ، كوحدة مكتملة قائمة بذاتها ، يمكن أن توجد مرة أخرى فى عصر العلم الكبير كما وجدت من قبل ومهدت للعلم ؟ وهل علماء اليوم فى حاجة الى الفلسفة ؟ أو أن العلماء اليوم ليسوا فى حاجة الى الفسفة الا من حيث هى تنشيط ذهنى مماثل للألعاب الرياضية التى هى تنشيط جسمى ، وفى الحالتين : الذهنية والجسمية ، كل عالم يحتاج فيهما الى منشط ٠٠ هل هذا صـــحيح ؟

أو أن الفلسفة لم تزل ضرورية للتكوين الذهنى للشباب أو لغير العلماء المتخصصين ، لأنها تقوم أساســـا على فتح البـــاب للتفكير ، لأن جوهرها هو سؤال : لماذا ؟ وبغير هذا السؤال لا تقوم الانسانية ، لأن (الحيوان) لايعرف هذا السؤال ٠

المهم ٠٠ أود أن اسأل أساتذة الفلسفة ، وعلى رأسهم الدكتور زكى نجيب محمود ، وأساتذة العلم والتكنولوجيا والبحث العلمى لأنهم الأجدر بالاجابة ٠

الدكتور زكى نجيب محمود :

(الفلسفة الآن تكاد تنقسم ، وفقا للتقسيم الجغرافى وعلاقته بالمكان وثقافته وفكره الفلسفى ، الى أربعة أقسام : هى شمال غرب أوربا ، وبصفة خاصـــة انجلترا ، وفلسفته التحليلية ، والولايات المتحدة وفلســـفته البرجماتية ، وغرب وجنوب أوربا وفلســـفته الوجودية أما القسم الرابع فهو شرق أوربا وفلسفته المادية الجدلية ، وعلى هذا الأساس يتقاسم الفكر الفلسفى) .

هذا التقسيم الجاد يا دكتور يكاد يكون تقسيما نظريا بحتا ؟

الدكتور زكى نجيب محمود :

(ولكن هناك وحدة لفلسفة العصر الواحد ، لأنه عادة يبدأ بطرح سؤال فى كل عصر ، ثم تأتى المحاولة للاجابة عن السؤال ، وبالاجابات وبالاعتراضات ينتقل العالم من عصر الى عصر ، هكذا تتحدد عصور التاريخ الفكرى ، فمثلا من أهم الأسئلة التى طرحت فى ثقافة اليونان كلها فى حالة ازدهارها كانت : ما هى المبادىء التى تضبط السلوك البشرى الضبط الذى يجعل الانسان يبلغ قمة الكمال ، هنا يأتى دور الفيلسوف حول هذا المحور .

سقراط قال رأيه ، وأفلاطون له اجابة ، وأرسطو كانت له اجابة .. وهكذا حتى استنفد السؤال وانتهى العصر .. وهكذا فى العصور التى تلت ذلك .. حتى جاء القرن التاسع عشر ، وبدأ السؤال عند هيجل ثم كارل ماركس ، وحاول كل منهما الاجابة عن السؤال ، ثم جاء القرن العشرون وطرح سؤالا عن (علة حوادث الطبيعة) أو (فكرة التطور) .. وهكذا هنـــاك دائمـــا فلسفة (كبرى) توجد مختلفة باختلاف العصور .

الدكتور رشدى فكار : الأستاذ بجامعة الرباط ـ المغرب :

(الفلسفة الكبرى التى يقصدها المفكر الكبير توفيق الحكيم ماتزال موجودة ووجودها ضرورة ، لأنها تمثل المعنى العام للحياة ، ثم ان الفلسفة لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال مجرد تمرينات رياضية ، يمارسها العالم من أجل تنشيط عقله ، وذلك لأن الفلسفة تعنى العملية الفكرية كلها ، وبالتالى لا يستطيع عالم من العلماء أو مشتغل بفرع من فروع العلم أو الفكر أو الابداع أن يبدأ عمله ما لم يتبين فلسفة ما ، بل ان كل مايقوم به من أفعال وردود أفعال عقلية انما هو « فلسفة » فلا نستطيع تقسيم العملية العقلية الى « فلسفة » و « علم » لأنهما واحد ، فالقضية المطروحة فى الأساس ربما يكون قد جانبها الصواب قليلا ، ولابد أن نستمع الى العلماء المشتغلين بالبحث العلمى التطبيقى) .

الدكتور عبد المنعم أبـو العزم : رئيس أكاديميـــة البحث العلمى ـ القاهرة .

(الفلسفة هى ما نسميها فى العلم : تفســـير ظواهر طبيعية أو نتائج علمية ملموسة عن طريق تصورات غير ملموسة ، والفلسفة هى : الجزء المكمل للعلم .

والفلسفة بهذا التصور هى التى تقودنا الى مزيد من الابداع فى ميدان العلم ، وعندما نقول ان المادة مكونة من جزيئات صغيرة تسمى ذرات لا تنقسم ولا تتجزأ ياتى خيال العلم بعد ذلك ليتصور أمكان انقسامها ، ويبحث فى تحقيق ذلك ، وتنقسم الذرة ويصل الى وجود الكترونات كوحدات كهربائية سلبية لا تنقسم ، وليس هناك أصغر منها ، ثم يقوده ذلك الى انقسام هذه الشحنة مما يؤدى الى اكتشاف (الكوادرونات) أصغر من (الالكترون) .

اذن هذا التصور والتخيل هو الفلسفة ، والجزء الثانى هو البحث المادى التجريبى ، والتقدم العلمى مبنى على وجود الاثنين معا .

ومن هنا يتضح أن الفلسفة توجد فى البيئة ولدى الأفراد الذين يملكون قدرة كبيرة على التخيل والتصور ، وهذا يتطلب قدرا من المعرفة المادية .

ان التفسير العلمى للظواهر للوصول الى حقيقة هذه الظواهر من الداخل ، وهو سؤال هذا العصر كما يقول الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود ، هو فى حد ذاته فلسفة تحتاج الى الكثير من المعلومات ، ولكن هذه المعلومات الموسوعية لايمكن جمعها فى (عقل) واحد ، ولايمكن أن يستوعبها عقل فرد واحد ، وبالتالى نحن فى حاجة الى متخصصين ، يبحث كل فريق فى ناحية من نواحى تلك الظواهر وفقا لفلسفة خاصة به ، نسميها فلسفة العلم الذى يتخصصون فيه ، وحاجتهم الى فلسفة العلم بقدر حاجتهم الى التجريب المادى الملموس ، ولكن الفلسفة الشمولية ، ربما تكون لدى (المتصوف) الذى يؤمن بالخالق ، ولهذا نرى الكثير من العلماء اليوم ـ وخاصة فى أوربا وأمريكا ـ عادوا الى الدين ، وآمنوا بالله الخالق ، فالعالم هو ذلك الفرد الذى يملك قدرة التصور أو التخيل الذى يملكه من الوصول الى المعرفة العقلية أولا ، ثم المعرفة المادية الملموسة .. وأعتقد أن الفلسفة لايمكن الاستغناء عنها كما لايمكن الاستغناء عن العلم) .

فتحى سلامة :

(اسمحوا لى أن أوضح أن الأمر ليس افتعال معركة بين العلم والفلسفة أو اصدار بيان بالغاء الفلسفة ، إنما الأمر كما قال الأستاذ

توفيق الحكيم هو البحث عن « الفلسفة الكبرى » فى هذا العصر الذى يشهد تطورا علميا تكنولوجيا كبيرا ، ثم أننا حتى الآن لم نحدد ما هى الفلسفة ، وهذا سؤال نوجهه الى أســـاتذة الفلسفة الذين يشتركون معنا) .

دكتور توفيق الطويل : أستاذ الفلسفة بالجامعات المصرية :

(ما أصدق أرسطو حين قال : فلنتفلسف اذا اقتضى الأمر أن نتفلسف فاذا لم يقتض الأمر التفلسف ، وجب أن نتفلسف لنثبت أن التفلسف لا ضرورة له .

ان التفلسف لون من ألوان التفكير الذى هو وظيفة العقل البشرى بطبيعته ، واليوم يراد أن تلغى الفلسفة لحساب العلم بقرار يصدره دكتاتور متغطرس يريد أن يتحكم فى عقول المفكرين ويسيرها وفقا لهواه ، وهذا هو العبث الذى لاعبث بعده ، حقيقة أن أصول المنهج التجريبى الحديث عرفت فى أوربا فى القرن السابع عشر وعلى أساسها استقلت طائفة من الدراســـات الفلسفية ، وكونت ما تسميه اليوم بالعلوم الطبيعية ، وهى التى تدرس ظواهر طبيعية بمناهج تجريبية ، ما كاد هذا يحدث حتى نشأت جفوة من العلماء والفلســـفة ، كان مردها الى غرور العلماء واســـتخفافهم بكل من لا يصطنع مناهج التجربة فى دراساته ، لكن هذه الجفوة أخذت تخف حدتها منذ مطلع القرن العشرين ، الى حد أن من الصعب اليوم أن نفرق بين العالم والفيلسوف ، وقد تبين خـلال ذلك أن العـلم والفلسفة يتعاونان ــ وخاصة فى الآونة الأخيرة من عصرنا ــ على كشف المناطق المجهولة من عالمنا واضاءة المظلم منها ، لصالح البشرية ورفاهية أبنائها ، ومن دلالات هذا أن مذاهب الفلسفة قد اتجهت اليوم بدراساتها الى الانسان وحياته ، بعد ان كانت معنية بدراسة الوجود اللا مادى ومطلق المعرفة البشرية .

اشتدت الحملة على الفلسفة فى القرن التاسع عشر على يد أصحاب الفلسفة الوصفية فى فرنسا ، أقاموا حملتهم على وهم ، زعموا أنه قانون يؤرخ تطور العقل البشرى ، وثبت بعد ذلك أنه ـ مع غيره من حجج لاذوا بها ـ مجرد أوهـــام تورط فيهـا علمـــاء الاجتماع .

ويواصل هذه الحملة فى القرن العشرين أصـحاب الوصفية المنطقية ، وهم أصلا علماء ، اتخذوا هدم الفلسفة هواية .

يقول السؤال

ألا نزال فى حاجة الى الفلسفة ونحن فى عصر العلم ؟ أن صاحب السؤال يتصور ان على العلم والفلسفة والفنون والآداب ان تقف صفا واحدا أحداها وراء الآخر ، وأن يتقدم الدكتاتور صاحب السؤال ويلغى الفلسفة ، أنه مثل من يقول : نحن اليوم فى عصر تشتد فيه الحاجة الى توفير الطعام لكل انسان ، فهل نحن اليوم فى حاجة الى هواء ؟!

فتحى ســـلامة :

مازلنا فى حاجة الى تفسير معنى الفلسفة .

دكتورة أميرة مطر : رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة :

سوف أذكر اجابة الفيلسوف الألمانى كانط حين قال « سوف أحاول ان أبحث ما أستطيع أن أعرفه ـ وما يجب على أن أفعله » وأعتقد أن الفلسفة ـ فى بساطة ـ هى محـــاولة الكشف عن واقع الأهداف التى تتحكم فى طرق سلوكنا وتفكيرنا ، والفلسفة تقوم بطرح مجموعة من الأسئلة الهامة التى يطرحها الانسان فى كل زمان

ومكان فمثلا طرح الفيلسوف كانط فى القرن الثامن عشر هذين السؤالين : ماذا يمكنني أن أعرف ؟ وماذا يجب على أن أفعــل ؟ وللاجـابة على هذين السؤالين كتب مئات الصفحات والمجلدات ، وتوصل الى أن هناك من الموضوعات ما يستطيع بالفعل أن يدركه ، أما مالا يستطيع العقل ان يدركه فليس مجالا للعـرفة العلمية ، أما مايجب أن يفعله ففد توصل كانط الى اكتشـاف قيمة الارادة الانسانية ، وجعل منها أساس الأخلاق ٠

لتستبعد الفلسفة الأسئلة التى لايمكن الاجابة عنها ، وتحدد الفلسفة لنفسها مايمكن الاجابة عنه ، وهذه الأسئلة واجابتها تختلف من عصر الى عصر ، كما سبق وقال الدكتور زكى نجيب محمود ٠

وعلى هذا الأساس تعتبر الفلسفة سلاحا خطيرا لايستطيع ان يمسك به الا العلماء ، لأنهم أقدر الناس على تبين الطريق السليم للتفكير بصفة عامة ، ولا يكون فيلسوفا ألا من نبغ فى العلوم ، لأنها تحتاج الى عقلية تتسم بالتعميم والتجـريد ، ولكى يتكون فيلسوف لابد من أن يكون ــ هذا الفيلسوف ــ على دراية كبيرة بعلوم عصره ــ ومجريات الأحداث التى تدور حوله ــ فلا عجب اذن ان يكون الفيلسوف عملة نادرة ٠

دكتور أحمد رفعت حجازى : أستاذ الطبيعة ــ كلية العلوم جامعة طرابلس ــ ليبيا :

(يبدو أننا نبتعد عن القضية الأساسية التى طرحها أستاذنا توفيق الحكيم ، فنحن لسنا ــ كما قال الأستاذ فتحى سلامة منظر الندوة ــ بصدد المفاضلة بين العلوم والفلسفة ، لأن كليهما متمم للآخـر ، وليس هناك من يرغب فى الغاء الفلسفة كما قال الدكتور توفيق الطويل ، ولكن هناك دائما فى كل عصر سؤالا مطروحا ،

سؤال يتعلق بالانسان كوحدة أساسية فى التفكير ، هذا السؤال أو مجموعه الاسئله التى تدور حـــوله والاجـــابة عنه أو عنها هو مايشكل ــ وهذا ماقال به استاذنا زكى نجيب محمود ــ هو مايشكل الفلسفه الكبرى فى فترة ما ، ولنأخذ مثالاً لفلسفة تفسير التاريخ ، ونقارن جوهر هذا التفســير وفلسفته عند أفلاطون ، أو عنــد سان سيمون ، أو عند فلاسفة هذا العصر ، نجد أنها تختلف اختلافا كبيرا ، وان الاختلاف بينها واضح وظاهر ، وسؤال هذا العصر ، كما قال الدكتور عبد المنعم أبو العزم ، الدكتور رشدى فكار هو : لماذا ؟ وللاجابة عن السؤال أحتاج الى تفتيت هذه (المادة) الى أسئلة صغيرة ، يخص كل سؤال جزء بسيط من المعرفة ، ولهذا تبعثرت الفلسفة الكبرى الى جزئيات ، ولكنها فى النهاية تدافع الى محور واحد يشكل منها ــ مرة أخرى ــ رأس الفلسفة الكبرى ، وهذا التشكيل لايحتاج الى العلماء ، أنما يحتاج الى الفيلسوف ، فان واقع الأبحاث العلمية الآن تثبت انه لاتوجد حقيقة علمية ثابتة ، وتؤكد بصفة قاطعة ، وزميلى فتحى سلامة أثار هذه النقطة من قبل ، حيث لاتوجد حقائق علمية مطلقة ، ونستطيع أن نقول ان الفلسفة أبقى ، لأنها أشمل ، وعلى هذا الأساس فالعالم فى حاجــة الى الفلسفة ، ولكن الفلسفة التى تخص علمه ، أما الفلسفة الشمولية فهى من اختصاص مفكرين يجمعون بين العلم والتخيل والنظرة المستقبلية ، مثل توفيق الحكيم أو رشدى فكار ، والقول بأن الفلسفة والتفلسف نوع من الرياضـــة الذهنية على العلمـاء ممارستها مثل التربية الرياضية ، والألعاب الرياضية ، قول جدير بالفلسفة أساسا) .

دكتور رشدى فكار :

(أعتقد ان الدكتور أحمد رفعت وفق الى حد كبير ، وأنا أوافقه على الكثير مما جاء فى حديثه ، ولكن مالنا نغفل الفلسفة الاسلامية التى تقدم اجابات محددة ومقنعة عن كثير من الأسئلة التى تدور

حول (الحياة الانسانية) ، ان هذه الفلسفة أشمل وأعم ، ونحن لماذا نتبع فرقا فكرية تختلف معنا في كل شيء ، لماذا لا نتبع ما لدينا من دين واضح المعالم ٠

العلم مهما تقـــدم وتطور فهو نسبي في المعرفة ومشروط بعطاء عصره ، وهو في حد ذاته يفند رؤيته أولا بأول ، فالعالم خاضع للتحفظ والتغير في الموقف بل التخطى والتراجع ، وما يمكن أن يكون مقبولا في القرن العشرين كحقائق علمية قد يأتي القرن الواحد والعشرون فيفندها ويكشف ما بها من أخطاء ويقوم بتصحيحها ، فالى أى علم نحتكم ؟ وبالتالى فان المعرفة في حد ذاتها نسبية ، ولهذا فان الدين متجاوز لكل الفلسفات الأساسية للانسان ، ومن ثم فهو أسمى من أن يقارن بفلسفة ما ، لأنه الفلسفة الأفضل والأشـــمل والأبقى) ٠

الدكتور عبد الهادى أبو ريدة : أستاذ الفلسفة الاسلامية ــ جامعة الكويت :

(الفلسفات كثيرة ، وهى تقتسم فيما بينها عقول الأمم والأفراد على السواء وكل أمة كبيرة ذات حضارة فكرية لها فلسفتها ، ولهذه الفلسفة روح ونزعات خاصة بها ، ما بين نزعات اجتماعية مغالية ، الى جانب نزعة صوفية ميتافيزيقية (فلسفة الصـــين القديمـــة) أو نزعات ميتافيزيقية روحانية أخلاقية مع زهد وتقشف وتشاؤم (الفلسفة الهندية القديمة) ، وهنا نجد اننـــا أمام فلسفة عقلية استدلالية ، بل أمام فلسفة جاءت نتيجة لأنواع من الحدس ومعطيات الوجدان والشعور الانسانى ، بمساعدة مفاهيم مجردة من صـــنع الخيال لامن صنع العقل العلمى ووسائل البحث العلمى ، هذا مع شيء غير قليل من الخيـــال الفنى والمعـــايير الجماليـــة (فلسفة اليونان) ٠٠ وهكذا ٠

وفى دائرة الحضارة الفكرية التى جاءت بعد اليونان ظهرت فلسفات اتخذت من فلسفه اليونان أساسا للنظريه ، ومادة للبحث ، ولكنها أعطت التفلسف بواعث ، وجعلت له وظيفه جديدة ، كما انها طورت العلوم الفلسفيه و دان ذلك فى الفلسفات التى ارتبطت بالاديان المنزلة ، فالفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى مثلا عنيت بالدفاع عن العقائد وتبريرها بالجدل الفكرى ، من غير عناية خاصة بالعلوم ، والفلسفة الاسلامية عنيت بفهم الدين وتفصيل مفهوماته بالفلسفة والعلم ، فجددت الفكر النظرى فى منهجه وموضوعاته ، لكنها احتفظت بكثير من مفهومات اليونان المجردة ، غير أنه بفضل توجيهات القرآن اشتغل فلاسفة الاسلام — الذين كانوا أيضا علماء — بالعلوم بمعناها الخاص ، فجددوا المعرفة العلمية ومناهجها وأنشأوا علوما جديدة ·

ثم جاءت الفلسفة الأوربية الحديثة ثورة على فلسفة العصور الوسطى ، ونشأت مذاهب فلسفية كثيرة ، هى أشبه بتصورات كلية أو لوحات فكرية للوجود والكون والانسان ، وهى تصورات تتمشى مع نزعات أصحابها ، والجانب الذى نظروا اليه ، وهنا فى العصور الحديثة كما فى العصور القديمة يجد الباحث المتفكر نفسه أمام تصورات متباينة أشد التباين ، ما بين عقلية استنباطية محضة على أساس مفهومات غير واضحة ، أو مثالية متطرفة بعيدة عن الواقع كل البعد ، أو حسية مادية بعيدة عن العقل والروح بمعناها الدقيق ، أو تعسفية تريد — بلا مراعاة الموازين العقل والضمير — تغيير نظم الحياة واتجاه السلوك ·

وكل ذلك على خلاف ما حصل فى مجال البحث والعلوم العلمية ، وكان تقدم العلوم الطبيعية وتطبيقاتها فى القرنين وقوانينها ، فيقل الخلاف ، وتتضافر الجهود فى تقدم المعرفة الطبيعية ، حيث توجد الوقائع التى تفيد الباحث بخواصها التاسع عشر والعشرين ، وما كان لهذا التقدم من آثار فى حياة

الانسان ، سببا فى اظهار الفلسفة بمظهر الدراسة البعيدة عن الحياة بل عن الصواب ، بدلا من اهتمام المفكرين باعادة النظر فى الفلسفة والبحث عن أسس جديدة للتفلسف بما يتفق مع العصر وحاجات الانسان ظهرت فى أعقاب أزمات الحضارة المادية والحروب الشاملة المدمرة فلسفات مقصورة على قادة الفكر والحياة ، لأنها فلسفة أزمات ولاتتناول الانسان ككل ، ولاتهتم اهتماما جادا بمكانه فى الكون ورسالته على الأرض ، بل تعبر عن الجانب المادى فى الانسان وهو على كل ليس بالجانب الحقيقى فى طبيعته .

ثم ان تطور الحضارة المادية واتجاه الأمم الى أسباب القوة من جهة ، والى الترف من جهة أخرى ، هذا الى جانب قصـــور النظم التربوية على مستوى العالم كله عن تكوين النموذج الانسانى المتزن من الناحيتين الفكرية والخلقية ، وكل ذلك ــ حد من تأثير الدين الحق بروحانيته وأخلاقياته وتصوره للكون والانسان ، ومقدرته على تنظيم أمور الحياة ، ولقد كان الدين الصحيح دائما ، الى جانب نور العقل وصوت الضمير ، أكثر عامل يرشد الانسان ويساعده فى حياته .

نستطيع فى ضوء هذه الملاحظـــات أن نتصور الأزمة التى يعانيها الانسان ، وهو الكائن ذو العقل والقدرة والارادة ، المستعد لحياة عقلية وخلقية رائعة ، لكنه فى قطاعات كثيرة من الناس ضائع حائر متشكك يائس ، ولما كان لايمكن توجيهه ولا اسعاده ألا عن طريق فكره وارادته ، فانه لاخـــلاص له مما يعنيـــه الا بالتفكير والمعرفة لما هو حق وخـــير وكمـــال وفضيلة ــ وهذا ما يجب أن تشتغل به الفلسفة ، لكنها يجب أن تكون فلسفة عمليـــة تلائـم الحاجة اليها .

فاذا كان لى أن أجيب عن السؤال حول تصورى للفلسفة فانى على أساس تجربة طويلة فى دراسة فلسفات ومذاهب شتى ألاحظ أن المذاهب الفلسفية التى نعتبرها مذاهب جادة عبارة عن تجربة بدأت عقلية وتصويرات فوق الواقع الذى يعيشه الانسان ، ويمكنك أن تجادل فى الأسس التى تقوم عليها ، بل فى أدلتها ، وهذا ماقد حدث فعلا بين أصحابها ، أما الفلسفات الحسية والمادية الحديثة فهى بدورها موضع شك ، ومنها مالا يرقى أبدا الى مستوى نظر العقل ، والفلسفات الاجتماعية والأخلاقية نعرض وجهات نظر متنوعة ، دون عناية عملية بتربية الانسان كالانسان •

ولا أرى خلاصا للانسان مما هو فيه ألا بفلسفة جديدة ، تكرس نفسها لمعرفة الانسان فى حقيقته واستعداداته ، ومعنى حياته ورسالته على هذه الأرض ، وبتوجيه حياته بحسب المعرفة الصحيحة ـ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه لابد من بناء المعرفة على أسس طبيعية من ملكات الانسان الحسية والعقلية ، فللانسان حواس يدرك بها ما حوله ، وهو يتصورها بعقله ، ويصحح تصوره لها ان أخطأ ، ويجب عليه أن يتقيد فى التماسه فلسفة جديدة بمنهج البحث ، فلا يحاول معرفة المحسوس الا بالحواس ووسائلها ، ولايسير فى تصوراته للأشياء الا بحسب قوانين الفكر ، ومعنى هذا هو الالتزام بالمنهج العلمى فى دراسة الأشياء •

لكن دراسة الأشياء فى خواصها وعلاقة بعضها ببعض لاتكفى الانسان ، لأن عقله أوسع من مجال الحواس ، بل أوسع من الكون مهما كان كبيرا ، وهو يسأل عن مصدر الأشياء ، سواء فى أمور الكون أو أمور الحياة ، ويمكنه بلا شك أن يستدل على نحو يقينى من وجود هذا العالم ونظامه وقوانينه على وجود الانسان وعلى عناية المبدع ورحمته •

لكن على الانسان فى هذا الاستدلال أن يبتعد عن التصورات الخيالية لأمور الألوهية ، وعن اثارة أسئلة لايمكن أن يجاب عنها الاجابة اليقينية ، مكتفيا بقيام الدليل العقلى ، على تنزيه الصانع عن كل التصورات المأخوذة من هذه الأشياء التى يراها الانســـان حــوله ٠

على أنه لما كانت معارف الانسان الحسية قاصرة ، وكانت معارفه العقلية متأثرة بالتجــربة في عالمه ، فان كثيرا من المعـــارف الفلسفية عبارة عن اجتهادات انسانية فى حد طاقة الانسان وكثير من المذاهب الفلسفية ـ ظنون ، هذا الى أن أحكام المفكرين على قيم الأشياء والأفعال وتحديدهم للغايات ، كلها اجتهادات متباينة من الناحية النظرية ٠

وهذا يدل على أن الانسان ، على الرغـــم مما له من ملكات المعرفة والتقدير للقيم ، فى حاجة الى ما يكمل له نظام المعرفة ، ويبين له معنى هذا العالم ، ومعنى حياة الانســـان ، وقانونهـــا وغايتها ، وعلى ان يكون ذلك من مصدر فوق الانسان ، ألا وهو خالق الكون والانسان ، وذلك مانجده فى الدين الحق المنزل بمفهوماته وأدلته الواضحة ، التى لايجد العقل السليم والضمير أى صعوبة فى فهمها والعمل بأحكامها ٠

فأنا كمشتغل بالفكر الاســلامى ، أتصــور التفلسف على أنه استعمال للحواس والعقل فى دراسة هذا العالم على أوفق المناهج ، وبكل الوسائل ، لتكوين تصــور علمى للكون ، وللانتفـــاع بقوى الطبيعة التى يرشدنا الله تعالى الى انه سخرها للانسان ، وخصوصا لمعرفة الله وتوحيده وتنزيهه وتعظيمه وشكره ، ومحبته وعبادته ، بفضل آيات صنعه الرائع فى السموات والأرض ، كما أتصـــور

التفلسف تفكيرا وتدبرا لما تضمنه التعليم الآلهى فى القرآن من أصول المعرفة ومبادىء تنظيم الحياة ، وجعل ذلك ميزانا لمعرفة الحق والخير فى هذه الحياة ، وبذلك يضاف الى نور العقل نور من خالق العقـــل .

فاذا سألتنى عن كل هذا التـــراث الفلسفى الذى لاحصر له ، فانى أقول ان على الانسان ان يدرسه ليرى كيف فكر المفكرون ، وماذا حصلت الانسانية بوسائلها الطبيعية من تصورات للكون والحياة ، ولكن عليه ان يتجاوز التقليد الى تصـــور يصل اليـــه بفكره ، وتطمئن اليه نفسه .

الدكتور ابراهيم بيومى مدكور : رئيس اتحاد المجامع العربية :

(الفلسفة للحياة تتلخص فى أمرين : الأمر الأول أن تكون هناك أهداف والأمر الثانى أن تكون هناك خطة سليمة لتحقيق هذه الأهداف ، الفكر الفـلسفى لابد أن يحدد غايته ، وتحقيق الغـاية يرسم كيف نصل الى هدف هذه الغاية .

وعلى هذا الأساس يصبح العلم بكل فروعه فى خدمة الفلسفة ، والعلم أيضا يصبح وسيلة وغاية فى نفس الوقت ، ولهذا لا يمكن التفرقة بين العلم والفلسفة ، وان كنت أميل الى ما قاله الزميل الدكتور عبد الهادى أبو ريدة) .

فتحى سـلامه :

لا يزال السؤال المطروح بغير اجابـة محددة ، ان عصرنـا الحاضر يبحث بجدية بالغة عن اجابات تساعده على مسايرة الحياة ، وفى نفس الوقت يكون راضيا عن نفسه ، والمؤمن الحق هو من آمن

بالله وبآياته وبكل ما خلقه ، وانتفع بهذا الكون وساعد وعمل فى تعميره ، فالعمل هنا من الايمان ، والعبادة ليست توكلا فقط ، انما هى مثابرة واجتهاد ، وكل طقوس العبادة الاسلامية تحتاج الى (جهد) و (تعب) و (ممارسة فعلية) لا قولية ، وكل هذا يعطى دلالة حتمية على أهمية الاجتهاد ، ولهذا نحن نجتهد للاجابة على الأسئلة المطروحة ، وللأسف لا أجد اجابة كافية عليها ولعل ما نسمعه بعد ذلك يعطينا ولو اشارة ترشدنا للاجابة السليمة أو الأقرب للصواب .

ونواصل المحاورة ..

دكتور بهاء بكرى : أستاذ العمارة ـ جامعة القاهرة :

فى تصورى أن العلم المعاصر قد أفلس فى علاج المشاكل الاجتماعية والنفسية والانسانية بوجه عام ، لأنه لم يخضع لفلسفة محددة فى تطوره وفى أغراضه وأهدافه ، فالعلم مثل التكنولوجيا ، حيادى بطبيعته ، نسبى فى حقيقته ، فكل نتيجة يصل اليها العلم فى عصر من الجائز أن تكون صحيحة على مستوى العصر ، ولكنها خاطئة أو صحيحة جزئيا على مستوى خط التطور البشرى ، كما نشاهد فى جميع النظريات العلمية التى كثيرا ما تتغير بتغير المفاهيم والعصر ، بل أبعد من ذلك ، فأنا واثق أن العلم لا يصل ولا يمكن أن يصل الى الحقيقة المطلقة ، والتى لا يمكن أن تظهر الا بالايمان الذى هو قوة أخرى أشمل وأقوى من العلم ، وقد تعودنا كعلماء متخصصين أن يبحث كل منا فى نقط جزئية ، وتعمقنا الى حد كبير فى هذه العلوم الجزئية ، حتى أننا نسينا ان هذه الأجزاء ليست هى الشكل العام أو الحقيقة الشاملة ، والتى ليست اضافة لمجموع الأجزاء ، ولكنها تفاعل لهذه الأجزاء المتخصصة فى كل واحد شمولى .

فالانسان مثلا ليس مجرد مجموع لأجزائه المختلفة ، ولكنه كيان شمولى معقد واحد ، يستعصى الى الآن على العلم بتجاربه العلمية .

وعلى هذا الأساس فاننا كأساتذة سوف نتخلف عن العصر ان لم نتحول الى أساتذة شموليين ، بمعنى ألا ينحصر كل عالم فى مجال ضيق من مجالات التخصص ، ولكن يجب أن يلم بشكل كاف بتخصصات أخرى تجعل وظيفته اليوم أشبه بمنظم للحقائق النسبية فى تخصصات مختلفة عن متعمق فى فرع واحد أو جزئية واحدة بذاتها لا علاقة لها بالحقيقة الشمولية .

فمثلا أسس فى جامعة القاهرة كلية الهندسة قسم جديد أسمه (الهندسة الطبية) ، وهو قسم شائع فى العالم يقوم بدراسة الآلات الطبية ، مثل تصميم كلى صناعية ، أو أطراف الكترونية تعمل بموجات المخ البشرى .. وهو بذلك نموذج لقسم التخصصات يقع على الحدود بين الهندسة والطب ، ومثل هذه الأقسام سوف تظهر فى معظم التخصصات التى سوف تقع على المناطق الفاصلة بين العلوم المختلفة .

وان دراسة تاريخ العالم وأساطير العلم شاهد على أن علماء الماضى كانوا ذوى اهتمامات واسعة ومتنوعة ، مثل ابن سينا الذى كان طبيبا وفيلسوفا ورياضيا وموسيقيا ، وكذلك فيثاغورث الذى كان فيلسوفا ورياضيا وموسيقيا .

ونحن الآن فى أمس الحاجة الى العودة الى هذا المنهج الشمولى الذى ينظر الى العالم كوحدة واحدة .. وهناك مثل صينى يقول « أنت لا تستطيع أن تقطف زهرة الا واهتز لها نجم فى السماء » وهذا ينطبق على العلم وعلى السياسة ، وعلى الطب ، وعلى التكنولوجيا ، وعلى الانسان ، وعلى كل شىء .

فمثلا بالنسبة لمشكلة مثل مشكلة غزو الصحراء وهو التحدى المعاصر الذى يواجه الانسان ، لا يمكن أن نحل هذه المشكلة الا بطريق شمولى ، أى باتباع فلسفة شمولية هامة ، وهكذا بالنسبة لجميع المشاكل التى تواجه الانسان فى العصر الحالى .

فتحى سلامه :

أرى الدكتور عبد الهادى أبو ريدة له تعليق :

الدكتور عبد الهادى أبو ريدة :

فى هذا العصر المسمى عصر العلم والتكنولوجيا ، نلاحظ أن كل المفكرين الحريصين على الانسان وعلى حضارته ومصيره قد رفعوا أصواتهم بالشكوى من طغيان الجانب المادى فى حياة الانسان على الجانب الروحى وطغيان الميول الى الترف وماله من أضرار على الميول الى الحياة البسيطة السليمة ، كما رفعوا أصواتهم بالشكوى من الضياع والحيرة والتشكك الذى وقع فيه الانسان، خصوصا الأجيال الناشئة ، بسبب ما أشرنا اليه من قصور نظم التربية العامة ، والتعليم العام فى العالم كله ، عن تكوين النموذج السليم فى هذا العصر الخطير .

والعلم الحديث ، بمعناه الدقيق ، يعنى بدراسة الأشياء . وهو ان عنى بدراسة الانسان وأموره فانه يدرسه كشىء لاكذات تعقل وتشعر بقيم عقلية وبأحاسيس خلقية ، وله حاجات روحية . ومنذ أوائل العصور الحديثة قل اشتغال العلماء بالتفكير فى حقائق الأمور الانسانية ، وفيما وراء أو فوق هذا العالم المحسوس الا حديثا عندما وجهت الى العلماء تهمة الالحاد مثلا ، أو عندما تعرضت حضارة الانسان للأخطار المحققة بسبب تقدم العلوم والتكنولوجيا .

لذلك فالمنتظر من أجيال المتفلسفين في عصر العلم أولا أن يبنوا تصورهم للكون على نتائج الأبحاث العلمية ، مستعينين في ذلك بالعقل واستدلاله الدقيق ، وان يبتعدوا عن الخيالات الميتافيزيقية التقليدية البعيدة عن الواقع ، بل عن العقل ، وان يتجنبوا تحكيم الأمزجة الشخصية واتباع الهوى والأفكار المشكوك فيها ، وان يتجنبوا التظاهر بالحذق الزائف والاعجاب بالآراء اللامعة كالسراب ، الذى يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ٠

والحق أن الحقائق كلها ، سواء كانت حسية أو عقلية أو خلقية هى فى الغالب واضحة ، ولا يشوشها الا ادعاء الحذق والعبقرية ، وأنواع الشك الذى لا يقصد منه النقد والوصول الى اليقين ، بل مجرد التظاهر بالذكاء ٠

وأتصور التفلسف فى عصر العلم معنيا بالانسان ، هذا الكائن العظيم ، الذى هو من حيث استعداداته وملكاته تاج هذا العالم وأعلى المخلوقات فى المرتبة ، وسواء نظرنا اليه بمنظار الدين أو الفلسفة أو العلم ٠

ان الانسان هو العقل الذى يتصور الكون ويدرك معناه ودلالته ، وهو لذلك سيد الطبيعة ، وصاحب كل هذه الحضارة بمنجزاتها الفكرية والعلمية ، بحيث يجب أن تكون العناية بالانسان فى كيانه الروحى والعقلى والبدنى مقدمة على كل شىء ، لأن الأشياء كلها خادمة له ، وهذا واجب المفكرين جميعا ، وواجب الدول التى تتولى أمر الناس ٠

لكن كيف تتسنى العناية المتكاملة بالانسان فى العصر الحديث ؟ كان العلم والفلسفة فى النشأة شيئا واحدا ، ثم انفصلت العلوم بموضوعاتها وفي ميادينها . ولابد من الوحدة فى المعرفة ، بمعنى انه اذا كان على المتفلسفين المحدثين ، فى رأيي — ان يرجعوا الى العلم لبناء تصور للكون فان على العلماء أن يتجاوزوا النظر الى جزئيات الأشياء ، ويتجهوا الى النظرة الكلية وأن يتعاونوا مع الفلاسفة فى الاجابة عن الأسئلة التى يثيرها العقل ويهتموا مع الفلاسفة بطموح الأرواح نحو ما هو أعلى وأسمى من حاجات الانسان المادية ، وأن يهتموا جميعا بقضية الدين الحق ، الذى يقدم لهم تصورا محكما للكون والحياة ، وبذلك يمكن التوصل الى نظام متكامل فى المعرفة الانسانية والى العناية بحامل العلم والمعرفة والحضارة وهو الانسان • نظام فى المعرفة يلتقى مع مصدر المعرفة بكل حق وخير أعنى التعليم الالهى •

الدكتور صلاح رسلان — أستاذ الفلسفة الاسلامية يقول :

(اننا لا نستطيع أن نستغنى فى عصر الآلة والتكنولوجيا والصعود الى سطح الكواكب الأخرى عن الفنون من شعر وموسيقى وقصة •• وبالمثل لا نستطيع أن نستغنى عن الفلسفة ، لما لكل هذا الفكر من أثر على مشاعر الانسان وعواطفه وأحاسيسه ، وتنميه الجانب الخلاق المبدع فيه ، فلابد اذن من مخاطبة الوجدان) •

الدكتور محمد على غباشى — أكاديمية البحث العلمى يقول :

أعترض على اعتبار أن الفلسفة نوع من الرياضة الذهنية ذلك ان الفلسفة هى البداية الأصيلة للعلم ، وسوف تظل كذلك لان الأبحاث العلمية تقوم دائما على نظرية الاحتمالات وهذه تقوم على أسس فلسفية ، ونحن عندما نبحث عن المعادلة الرياضية

(١ + ١ = ٢) انما نبحث عن لماذا (١ + ١ = ٢) وليست الفلسفة لونا من ألوان الرفاهية والترف ، انها العامل الأساسي الأول للفكر سواء الفكر التجريبي المادي أو الفكر العقلي البحت ، أما عدم وجود فلسفة كبرى فان ذلك يرجع الى التشعب المتعدد للمعرفة الانسانية ولكن يمكن اعتبار الحياة بهذا الشكل تمثل فلسفة عامة مشتركة وربما يكشف لنا الزمن عن كيفية الوصول الى الفلسفة الكبرى وخاصة بعد تطور وسائل الاتصال المعرفي والتقدم المذهل والمتزايد في هذا المجال) .

(الخلاصة ، انه بالرغم من النتائج الهامة التي توصل اليها العلم خاصة في القرن العشرين ، فان العلم وحده لا يستطيع أن يشبع كل متطلبات الانسان وبخاصة الروحية — ولا ان يرضى رغبته العارمة في المعرفة الشاملة التي تفسر له مصيره ، وتساعده على اتخاذ القرارات المصيرية ، والمواقف العلمية من كل ما يدور حوله) .

دكتور محمد خيرى ابراهيم : كلية الزراعة — جامعة الزقازيق :

(يبدو أننى لا أستطيع أن أضيف جديدا الى كل ما قيل ، ولكنى أريد أن أقول ان الباحث في مجال (تربية الحيوان) يبدو بعيدا عن (الفلسفة) ولكنه في الحقيقة يعتبر مجالا قريبا من التفكير الفلسفي ، ذلك لأن الباحث في هذا المجال يستخدم نفس النظرية التي يستخدمها زميلي الدكتور غباشي ، نظرية الاحتمالات ، والتي يجب أن استخدمها أنا أيضا في تصور وتخيل نوع (الحيوان المرغوب) ، ولكي أصل الى هذا التصور لابد من استخدام نفس السؤال المطروح ، كما قال الدكتور زكي نجيب محمود ، لماذا ؟ ..

لأننى سوف أطرح سؤالا جديدا ، يبدأ أيضا (بماذا) وهكذا . أليس هذا هو (تفلسف) ، وخلاصة القول : إن العلماء ما هم الا فلاسفة ، ولكنهم يشتغلون بالعلوم التجريبية ، ولن يفصل العلم عن الفلسفة ، وستظل الفلسفة دائمة بدوام الفكر (الانسانى) .

وأخيرا .. نلاحظ أن العلماء يعتبرون الفلسفة وسيلة للعلم ، فى حين أن الفلاسفة يعتبرون العلم هو وسيلة الفلسفة .

ولا يهم الخلاف بين الفريقين ، ولكن المهم أن لا أحد يبغى الغاء الفلسفة ، أو ينكر وجودها .. والأهم أيضا ، أن الفلسفة الكبرى لا تزال موجودة وان اختلفت باختلاف العصور ، ومع هذا تظل قابلة للحديث .

نعود الى دائرة الحوار الذى لا يزال ممدودا ، سوف نلقى الضوء على بعض الآراء التى جمعناها حول الفلسفة الكبرى وعالم التكنولوجيا :.

سوف نورد هنا دراسة متميزة للباحث محمد مصطفى من استكهولم ، وهى وجهة نظر يجب احترامها .

الإنسان ... العقل والضمير والارادة ..

الانسان .. هو أشرف وأسمى مخلوقات الله على الأرض ، ومعجزة بليغة من معجزاته التى لا تعد ولا تحصى ، أودعها أسراره التى تقف شاهدا على ألوهيته وقدرته وعظمته سبحانه وتعالى ، وبرهانا على وحدانيته وتفرده بالعظمة والخلق والحكمة وسمو التدبير والتنظيم ، ودليلا قويا لاقناع المتشككين بأنه الخالق ..

المحيى والمميت .. ولاقامة الحجة على الكافرين يوم الحساب بأنه أفاض عليهم فى دنياهم بنعمه وأنزل عليهم آياته وأبان لهم الشواهد والدلائل وأمدهم بالكتب والرسالات وبعث فيهم الرسل مبشرين ومنــذرين فآثروا العمى والزيــغ والضــلال على البصر والهدى والرشــاد .

والانسان فى نفســه لوحة معجزة تنطوى على كم هائل من الآيــات البــاهرة مصداقــا لقوله ســبحانه «« وفى انفســكم أفلا تبصرون »» يستطيع من يشاء أن يأخذ العبرة والعظة منها ، ان كان فيه عقل يستوعب أو بصيرة يســتهدى بها على وجود الصانــع والخالق ، فى مقدمة هذه الآيات يأتى العقل والضمير وهما آيتان لا يملك المرء القدرة على ابصارها أو الاحاطة بهما ، لكن من رحمة الله عليه ان زوده بملكة الاحساس بهما وأرشده ـ عن طريق رسالاته وأنبيــائه الى كيفيــة توظيفهما ـ فيما خلق له ـ توظيفــا سليما وصحيحا . فهاتان الآيتان تميزان الانسان عما سواه من المخلوقات الأخرى ، بل تميزان الانسان الفرد عن أخيه الانسان فى الدرجة وشرف المكانة فى ضوء حسن توظيفه لهما .

فالعقــل ـ بعيدا عن الايغــال فى التعريفــات الفلســفية اللانهائية ـ هو آلية تساعد الانسان على فهم واســتيعاب مفردات الكون من حوله ، وسلوكياته فى ذاته ، ويهديه الى اختيار النهج الذى يلائمه فى حياته ، وموازنة الأوضاع المختلفة والتكيف معها وتوظيفها بما يخدمه ولا يضره ، ويجعله فى العموم منســجما مع معطيات حياته التى يحياها ، محققا له الهدف النهائى من غرض وجوده وخلقه فى هذه الدنيــا .

فاذا غابت أو تعطلت هذه الملكة ابتداء أو أضاعها صاحبها هو بيده ـ اهمالا أو انحرافا ـ أضاع كل حكمة وكل قيمة من وجوده على ظهر هذه الأرض ، ولم تعد له أهمية أو ضرورة من استمراره عليها اللهم الا انتظار حلول قدره وساعة رحيله منها ، اذ فى اللحظة التى يغيب فيها العقل يفقد الانسان كل قدرة على الفهم أو الاستيعاب ولا يدرى كنه أو عواقب تصرفاته أو سلوكياته ، وتتعطل لديه كل امكانية للمشاركة الاجتماعية أو النهوض بأى دور داخل المجتمع الانسانى الذى يعيش فيه ومن ثم تسقط عضويته فيه وأهليته وأهميته كانسان ، ويتحول الى مجرد موجود أو كائن حى بالمجتمع ربما يستدر عطفا أو ينال اشفاقا من المحيطين به ، بيد انه لا ينبغى أن ينتظر منهم أكثر من ذلك .

ما هو الضمير .. وتفسير دوره ؟

الضمير ، يلعب دورا كبيرا فى تمييز الانسان عمن سواه من المخلوقات الحيوانية اذ يخلق بوجوده داخل الانسان ينبوعا دائما يفيض بمشاعر الرحمة والعطف تنداح منه الى السلوك فتهذبه وتروضه وتبعده عن أفعال الرزيلة والوحشية ، ليس هذا فحسب، بل يميز ضمير الانسان عن أخيه الانسان ، ذلك أن من رزق ضميرا حيا طاهرا نقيا ، كان انسانا فاضلا نبيلا كريما ، تتسم تصرفاته وسلوكياته بالرقى والسمو الجميل ، وكان شخصا محبوبا مرغوبا مؤتمنا وعضوا صالحا وفعالا فى كل مجتمع يشارك فيه أو يتواجد به على نقيض من حرم أو فقد هذه الملكة وتلك النعمة العظيمة ، فانه وان تمتع بالعقل ، يجىء تصرفه مناقضا للطبع الحسن والذوق السليم ، فاقدا للثقة فيه أو الاطمئنان اليه أو التعامل معه ، بل يأتى غياب الضمير أو الانحراف به لدى انسان ما عن سبيله الصحيح فى مقدمة الأسباب التى تدعو الجميع الى

تجنبه والنأى عن التعامل معه ، فيعتزله الجميع ويعتزل هو الجميع ، ويعيش حياة خلت من الخير والرحمة لانه هو نفسه ــ حين غاب لديــه الضمير ينبوع الخير والرحمــة ــ لا يستحقهما لانه فقــد أسبابهما ومصدرهما فى ذاته وأصبح غير قادر على العطاء بهما أو الحصول عليهما فصار شقيا تعيسا فى حياته غير مأسوف عليه، فى مماتــه ٠

ما هى الارادة والادارة ؟

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : اذا كان الأمر كذلك ، فهل يكفى ذلك الانسان أن يتوفر لديه العقل والضمير والقدرة على توظيفــهما ــ وهو ما نطلق عليــه الارادة ــ ليتملك منزلة التميز والتسامى على المخلوقات الأخرى ، ويصير تلقائيا حقيقا بالدخول فى عالم الانســانية الفــاضلة ؟ أم أن ثمة شروط وأحكام ينبغى توافرها قبل ذلك ؟ بمعنى آخر هل الانسانية الحقــة والأصيلة تترتب للفرد بالطبيعــة منذ مولده وتلازمه حتى مماتــه ؟ أم أنها تترتب له بالفطرة منذ مولده فحسب ويتوقف استمرارها معه على درجة نموه الفكرى والسلوكى بالتوازى مع درجة نموه البيولوجى والفسيولوجى ليتوافق الاثنان معا : النمو الجسدى والنمو العقلى بالاضافة الى الارتقاء السلوكى (الكاشف عن درجة نمو الضمير وحيويته) ؟ أم يا ترى لا يلزم أن تكون درجة التوافق والانسجام بين جناحى التكوين الانسانى متطابقــة تمام التطابق ، بل تكفى درجة معقولة من التوازن أو التقارب بينهما بحيث لا يكون التفاوت بينهما كبيرا أو ملموســا ، (أنها ثلاثة أسئلة تحتاج الى اجابات شافية حتى يستطيع كل منا أن يحسم فى داخله ، بينه وبين ذاته، مكانه ومنزلته من عالم الانسانية العظيم الاتساع وفضائها الهائل من حوله ، وحتى يطمئن على ذاته وتسكن نفسه اذا تأكد له أنه

داخل هذا العالم ، والا فانه يدرك بالأسباب والعوامل اللازمة لذلك أما اذا كان لا يعنيه هذا الأمر في شيء فلا يناطح أو يشاحن أو يتشاكى أو يتبرم ممن ينظر اليه أو يتعامل معه باعتباره مخلوقا لا وزن له ولا قيمة لانه ارتضى ذلك في الأصل لنفسه فلا ينكره على غيره اذا أنزل عليه حكم ونتائج ما ارتضاه لنفسه) ، هنا نعلق على حديث الزميل محمد مصطفى بأن هذا ربما يبعدنا عن حوارنا الأصلى وهو البحث عن الفلسفة الكبرى وعلى العموم نواصل معا الدراسة من منطلق اجتماعى دينى .

الادارة .. أم الارادة :

(ان الحديث عما يمكن تسميته بادارة الانسان ، (الانسان من يديره) أي يوجهه ويرشده ويضع له المقاييس والقواعد والشروط اللازمة للوفاء بهذه المهمة الخطيرة ، وما نوع هذه الادارة هل هي تشبه ادارة الماديات ، أم هي ادارة المعنويات أو ما يسمى بتربية الضمير والروح والنفس (الادارة الروحانية) أم هي ادارة تجمع الاثنين معا : الماديات «« السلوكيات والمعنويات »» «« الضمير والعقل »» وهل لهذه الادارة مقاييس وشروط وموازين وأحكام معينة يتوقف على درجة العمل والالتزام بها وتحققها مستوى التحقق الانسانى المنشود) .

الاجابة على هذه الأسئلة كانت ولا تزال محل نظر وفكر ودراسات لا تحصى وشغل علماء السياسة والاجتماع والدين ، وموضع اجتهادات وتأملات الفلاسفة والحكماء ، وفي هذا الميدان انقسم هؤلاء وأولئك ، كانقسامهم حول القضايا الانسانية ، حيث اختلفت زوايا النظر فيها الى الانسان

فالانسان عند أرسطو كائن اجتماعي بالطبع ـ يتعلق هذا بالسلوك الكاشف عن طبيعة تفكيره وضميره الاجتماعي ـ وان الذى يبقى متوحشا هو انسان ساقط السلوك وغائب الرشد ومظلم الضمير ـ أو أنه انسان سمى من النوع الانسانى ·· أما ابن خلدون فذهب الى أن الانسان مدنى بالطبع ـ لأنه يسعى للارتقاء دوما وسعيه هذا مداره أعمال العقل والروح النشط داخله ـ أى ينزع الى حياة المدنية والعمران ، وهذا مناطه داعية تقدير الانسان وتفكيره لا طبعه وغريزته أى أن العقل والتفكير الصحيح يدفعه ليتحول من عالم شبيه بالعالم الذى يعيش فيه الحيوان بالغريزة والطبع لا يفكر فى سمو أو ارتقاء أو تغيير نحو الأفضل الى عالم يسوده عمران وتقدم وحضارة ومدنية ·

بينما نرى الفيلسوف الألماني نيتشه يصور في مرارة المجتمع الانسانى مجتمعا حيوانيا بكل ما فى كلمة حيوانى من معنى وان هذا المجتمع قد تسلطت فيه الوحوش الكاسرة المفترسة على الحيوانات الضعيفة ، فساقتها الى حظيرة أشبه بحظيرة الراعى الذى يضم اليها قطعانا من الغنم يشرب من لبنها ويكتسى من صوفها ثم يذبحها فى نهاية الأمر ليتغذى بلحمها وهذه صورة تعبر فى قسوة وضع الانسان الذى راح يستغل تفكيره وعقله فى غير ما خلق له ، لانه فقد الضمير الحى أو عطله داخله وراح يتعامل بغريزة السوء المركبة فى الطبع الحيوانى ، من هنا شبه نيتشه هذا المجتمع الحيوانى ·

هذا من ناحية بيان أثر سمو الطبيعة الانسانية أو انحطاطها فى استحقاق المرء هذه الصفة وتلك القيمة من عدمها ، من ناحية أخرى يفاجئنا أرسطو بانحيازه المطلق للعقل ، ومن ثم يتصف بالسمو والارتقاء العقلانى على غيره ممن لايتمتعون بذات الدرجة فى هذا الجانب ، وان تميزوا بالكفاءة فى جوانب أخرى ، وجعل

السيادة للأولين واستحقاقهم للسيادة والامرة على الأخرين ، ووجوب طاعة هؤلاء لأولئك ٠

وفي ذلك يقول أرسطو ان الطبيعة التي ترمي الى بقاء النوع وحفظه هي التي خلقت بعض الكائنات للسيادة والامرة ، وبعضها للطاعة والولاء ، هي التي أرادت للكائن الموصوف بالعقل والتبصر أن يأمر بوصفه سيداً ، كما أن الطبيعة هي التي أوجبت على الكائن الكفء بخصائصه الجسدية أن يطيع وينفذ ما يؤمر به من العقل بوصفه عبداً لهذا السيد ، وبهذا تمتزج منفعة السيد ومنفعة العبد (يتبين هنا بجلاء أن أرسطو أراد أن يقسم المجتمع الانساني الى شطرين : احدهما متطور وراق يسود والآخر قوي جسداً ولكنه يخضع ويطيع ، وهو هنا يقصد أن من يتميز بالعقل يسود من يتخلف عنده هذه الملكة) ٠

ويستطرد أرسطو قائلا : ينبغي أن ينظر هل يوجد أناس جعلهم الطبع كذلك ، أم لا يوجد البتة ؟ وفي حق من من الناس ـ أيا كان ـ تصير العبودية عدلا ونفعا ؟ أم أن كل استرقاق هو عمل مضاد للطبع ؟؟

يجيب : العقل والواقع يمكن أن تحل هذه المسائل ؟! أن ثمة كائنات تخصص بعضها منذ الولادة للطاعة ، وبعضها للامرة ولو على درجات وفروق شديدة التخالف بالقياس الى هؤلاء وهؤلاء ٠٠ بدهيا ان الموجود الحي مركب من روح وجسد ، وجد احدهما بالطبع ليأمر والآخر ليطيع وان سلطان النفس أو الروح هذا بين في الانسان الكامل سليم العقل ، سليم البدن ، أما في الفاسدين من الناس أو المستعدين للفساد ، فان الجسم أحيانا يتسلط على النفس ، ذلك بأن نموهم غير المرتب هو ضد الطبع تماما ٠

(ونظرية أرسطو هذه تجعل النـاس والمجتمع الانسـانى مشطورا شطرين سـادة وعبيدا ، حكاما ومحكومين ، فى وضـع لا يملـكون له بديلا أو تغييرا ، فالعبد عبـد أبدا لانه هكذا خلق والسيد سيد أبدا لانه هكذا ولد ، وعلى قول أحد الكتاب «« وليس فى مقدور من ولدته الطبيعة قزما أن يصير عملاقا ولا فى مستطاع من ولد طويلا أن يتحول الى قزم ؟؟! متوهما أنه بذلك يحفظ نظام المجتمع الانسانى من الشرور والمفاسد »» وبذلك يتصور أرسطو أن المحافظة على الطبيعة الانسانية تكون بأن يبقى الفرد على ذات النشأة والطبيعة البيولوجية والفسيولوجية التى خلق بها وينبغى أن يستمر عليها دون محاولة تغييرها حتى لا يفسـد النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه) ٠

لا شك أن هذا التصور هو تصور منحرف وضـد الطبيعة الانسانية ، فلو كان الأمر كذلك ففيم العمل اذن ؟! وفيم السعى والاجتهاد ؟! ولن ينزل السيد عن مقامه ، مهما بلغ من سوء ، ولن يتحول العبد عن مكانه من العبودية مهما بلغ من الكمال ، انها نظرية ضالة وخاطئة وان كانت من أرسطو (أبى الفلاسفة وأستاذ الحكماء فى عصره) ذلك أن الفرد له وجود ذاتى ، يرفض تماما أن يتنازل عنه ليذوب فى وجود غيره ، حاكما كان أو محكوما ٠٠ فردا كان أو مجتمعا ٠٠ وعلى الرغم من أنه يسعى للاجتماع والاتحاد مع غيره لانه لابد له أن يعيش فى مجتمع يأخذ منه ويعطيه ، ويخضع فى علاقاته داخل هذا المجتمع لقانون أو تشريع ، الا أنه يظل محتفظا بكينونته وانسانيته ووجوده الخاص والمستقل — على الأقل — أمام ذاته !!

والسؤال :

لكن كيف يتحرك هذا الانسان ، باستقلاله وذاتيته هذه داخل وحدته الاجتماعية ، أسرة كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة أو دولة ، هل يضع لذاته تصورا من وحي عقله وضميره الذاتي ويسير على هداه ، أم أن غيره يضع له ذلك التصور ويوضح له السبيل الذي يتعين عليه سلوكه لتجيء حركته داخل وحدته الاجتماعية غير متصادمة مع حركة الآخرين الذين يقاسمونه هذه الوحدة ، بمعنى آخر هل حركة هذا الانسان داخل ذاته وداخل مجتمعه محكومة ومربوطة بادارة ما ، أم انها حركة نظرية تأبى على التدخل والتوجيه ؟

نعلم جميعا أنه من المستحيل أن يضع كل فرد لنفسه تصورا خاصا به يحيا في ضوئه بمعزل عن الآخرين والا تحول الأمر الى وجود عدد من التصورات والسلوكيات بعدد أفراد المجتمع ومن ثم يتحول المجتمع الى ساحة من الفوضى والاضطراب ، اذن فلابد من قوة فوق قوته وقوة غيره من البشر تحد من اطلاقه لذاتيته وتمنع انحرافها عن جادة السبيل وان تكون هذه القوة محايدة حتى مع المجتمع من الذي يملك هذه القوة وهذه القدرة على القهر المتوازن للفرد وللمجتمع ؟! هل تكمن هذه القوة في القانون البشرى الذى هو من صنع مجموع أفراد المجتمع ممثلين في نوابهم ومشرعيهم الذين جاءوا باختيارهم لا بالطبيعة ويملكون سلطة التشريع وأداة القهر والتنفيذ ؟ ـ كما قال أرسطو ـ أم هو القانون الطبيعى (الفطرى) المستوحى من العقل والضمير الانسانى داخل الانسان ذاته ؟ أم هو القانون السماوى المستمد من رسالات السماء المنزلة من الخالق الى البشر بواسطة الأنبياء المرسلين الى البشر ؟!

في نظرى ، أن العالم أجمع جرب منذ قديم الأزل الى يومنا هذا الحياة فى ضوء هذه القوانين الثلاثة وكانت التجربة فشل القانون الطبيعى لانه قام على الاعراف والتقاليد وترك لضمائر البشر أن تعمل بأحكامه وتلزم نفسها به ، ولما كانت الضمائر البشرية بطبيعتها تتعرض للفساد والانحراف والضلال ، كان منطقيا الا يصمد هذا القانون أمام فساد ضمير فريق من البشر ، وتحول المجتمع الى مجتمع لا تحكمه شريعة منظمة تسندها قوة عادلة فوق الجميع ، وانما سادته شريعة الغاب ، القوى يقهر فيه الضعيف وينزل عليه أحكامه هو ، كما فشل القانون البشرى بالرغم من بلاغة نصوصه وعباراته ، فى أن يوفر للانسان العادى حقه فى مواجهة جور الحكام وأصحاب النفوذ والسلطة والقوانين منهم وتسخيرهم له من أجل تحقيق مصالحهم وتنمية مطامعهم والحفاظ على مميزاتهم .

ونواصل مع الباحث محمد مصطفى مناقشة نظريته حول الفلسفة الاسلامية .

استطاع الاسلام أن يدير الانسان والمجتمع الانسانى ، بل استطاع أن ينقذ هذا الانسان ويخلصه من حياة متدنية كان فيها والحيوان شيئا واحدا لا يفترقان ، وأخذ بيده الى حياة راقية مستنيرة متحضرة ، اذ حول حياة البدو الرعاة الرحل الأجلاف ، وجعل منهم قادة علم ومدنية ، وخلق منهم وبهم مجتمعا حضاريا رائعا ساد فيه العلم والنور ، وأقام العدالة فى أسمى صورها وأنبل مظاهرها ، فانتشرت بين جنباته الأمن والطمأنينة ورفرفت عليه أعلام السعاد والوئام والتآلف والتكامل الانسانى فى أروع وأكمل مظاهره ، ولا نريد الاطالة فى هذا الأمر أكثر من ذلك ، وكفانا أن العالم أجمع بما فيه غير المسلمين قد اعترف بأن الاسلام أشاد مدنية وحضارة وعدالة لم يشهدها العالم من قبل وساهمت فى قيام

الحضـارات الأخرى على ثمراتها وثمرات جهد أبنـائه من العلماء الفلاسفة والمفكرين الذين تربوا في مدرسته العظيمة ، فاذا تبين له إنها الحق وآمن بذلك واعتقد قلبيا ، ان يتأثر سلوكه بذلك وتأتي حركته في هذا الاطار الايماني الذى جاء وليد التبصر واعمال الفكر (العقل) والايمان (الضمير) ، فتتناغم بذلك حركات الجوارح مع معتقدات الضمير وتأملات العقل وتبصره ، ومن ثم يتحقق له ـ بهذا الانسجام بين داخله وخارجه ـ توحدا ذاتيا وتآلفا اجتماعيا وتكاملا انسانيـا شـاملا مع بني وطنه وجنسه عموما ، ومن ثم تنساب حياته في هدوء واطمئنان ، وينجو من حالة الضياع وفقدان الذات والاحساس بالغربة والانفصام فيما بينه وبين نفسه ، وبينه وبين المجتمع الانساني من حوله ، وهي تلك الحالة التي يستشعرها بقوة ويعاينها في ألم كل من افتقد وحرم الانسجام والتناغم بين تلك العناصر ٠

وهكذا ، وفي ضوء هذه المقومات ، كان الاسلام قانونا متوازنا مثاليا ٠٠ احترام العقـل ـ لانه ينبوع الفكر ـ وخاطبه ونصحه وأرشده وجعله سيدا على الفرد أى جعل الفرد محكوما بعقله هو لا بعقل غيره ٠ من هنا وجه الاسلام اهتمامه أساسا الى هذا الحاكم (العقل) وراح يدربه تدريبا ساميا يليق بمكانته وأهميته في حياة البشر ، هذا من جهة ومن أخرى ، وفي نفس اللحظة لم يغب عن الاسلام أن العقل لا يحكم فراغا أو هواء ،ولا يعمل وحده ذاتيـا بمعزل عن سواه ، وانما يعمل من داخل جسد مكون من أعضـاء وأعصـاب وأحاسيس ومشاعر متضـاربة متفاوتة في تناقضاتها تتضارب داخله وتتلاطم فيه الأهواء والنوازع البشرية وأنه خلق من أجل أن يسوس هذه المفردات العضوية والحيوية ويقودها في حركة منسجمة متناسقة متفـاعلة بينها وبين المحيط الانسـاني الشامل بمفرداتها المادية والروحية ، فكان لازما أن يمد الاسلام

الانسان بارشاداته وتعاليمه الحكيمة فى كيفية تربية ذاته الباطنة وتنقية سريرته وتطهير قلبه من الشرور والآثام ، واتبـاع منهاج الصلاح والاستقامة ، مرتكزا فى ذلك على اسلوب الاقناع العقلى والايمان الوجدانى الارادى معبرا وعاكسا لحركة البناء الانسانى العام فى مجموعها سواء على المستوى الفردى أو المستوى الجماعى « المجتمع البشرى »» ومن ثم ضبط هذا القانون السماوى ــ اذا صح هذا التعبير ــ معه البناء الانسانى العام عقلا وجسدا وضميرا وسارت حياته فى ائتلاف ووحدة مثالية رائعة وراح الوئام يلف المجتمع الانسانى وأفراده •

والخلاصة أن نجاح الاسلام فى هذا المضمار يرجع فى أساسه الى أنه لم يكن مجرد مجموعة من التصورات النظرية يحتويها العقل أو متتاليات من المثل يتمثلها الخاطر ، أو اعدادا من مواد القانون موقوفة التنفيـذ ، وانما هو معتقـد يصحبه عمل وايمان يصوره سلوك موجه بهذا الايمان وأحكام ملزمة واجبة التنفيذ لاتبرأ الذمة الا بقضائها والوفاء بها •

انه منهج تفكير (العقل) واعتقاد ظنى راسخ (الضمير) ومنزع سلوك حياة يعيش به الانسان بين الناس ويتحرك على هداه (ارادة) ، فهو ــ الاسلام ــ عقيدة وان تكن أمرا ذاتيا يتعلق بذات الشخص ويرجع الى ضميره ووجدانه ، فانها لا تكون شيئا ذا بال اذا هى لم تصرح عن مضمونها ولم تكشف عن ثمراتها ومعطياتها فى الحياة •

كما أن الاسلام فى أحكامه وتشريعاته وآدابه ، ليس فى عزلة عن الحياة ولا عن الأحداث الجارية بين الناس ، بل هو اعداد لهذه

الحياة وتوجيه لها ودفع الى الغايات الكريمة والمقاصد الطيبة النبيلة النافعة ، وهذه الحقيقة شهد بها كثير من العقلاء الذين لم يعتنقوا الاسلام ولم يدينوا به ، اذ كانت من البيان والوضوح بحيث يرى العاقل ان من الظلم لعقله ، الازدراء بانسانيته أن ينكرها أو يجحد

يقول الفيلسوف جب :

الحق ان الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات انه أعظم من ذلك كثيرا انه مدينة كاملة • فالانسان أيا كان وضعه فى المجتمع الاسلامى مطالب بأن يعيش فى أكثر من وجود وأن يحيا فى أكثر من حياة وأن يتحرك فى أكثر من أفق وأن يظل دائما وفى كل حال انسانا قائما بذاته مستقلا بشخصيته مسئولا عن أقواله وأفعاله جميعا على أن هذا الأمر لكى يكتمل ويتمكن من تحقيقه يحتاج منه الى ايمان قوى (ضمير) وعزيمة راسخة (ارادة) وبصيرة نافذة (عقل) حتى يستطيع أن يوفق بين هذه المجالات ويجعل منها دوائر متداخلة متكاملة تدور كلها دورة منتظمة ترتكز جميعا على مركز واحد هو الايمان بالله ، والمشكلة هنا هو أن يعرف لكل جانب من هذه الجوانب المتعددة حقه من نفسه وأن يقدر كل حال بقدرها وحسابها •

يقول أحد علماء الاسلام الأجلاء (المرحوم الدكتور / محمد عبد الله دراز) :

ان القرآن يضعنا أمام سلطة ثلاثية :

أنظروا فى أنفسكم تجدوا محكمة ••• محكمة الضمير فى قلوبكم •

أنظروا من حولكم تجدوا محكمة ... محكمة البشر من حولكم .

أنظروا فوقكم تجدوا محكمة ... محكمة السماء من فوقكم .

يقول الله تعالى فى قرآنه العظيم (الأنفال الآية ٢٧) :

«« يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »» فهذه الكلمات القليلة جمعت ثلاثة مسئوليات :

لا تخونوا الله .. هذه هى المسئولية الدينية .

والرسـول .. هذه هى المسئولية أمام الناس .

وتخونوا أماناتكم .. هذه هى المسئولية الأخلاقية أمام الضمير .

وختمها سبحانه بقوله «« وأنتم تعلمون »» مشيرا الى مسئولية العلم وهى عمل العقل ، فكأن المسئولية هنا مدارها محاور : العقل والضمير والسلوك .

وقد أبان لنا كيفية ادارة هذه المسئوليات والتوفيق فيها بالأحكام المفصلة فى كتابه الكريم ، وبتعقلها وتدبرها فى العقـل واحتضانها والايمان بها فى القلب والضمير الواعى والتعبير عنها سلوكا ومنهاجا عمليا بالعمل الصالح والمسئول .

من هنا تكون الاجابة على سؤالنا .. الانسـان .. العقـل والضمير والارادة من يديره ؟

انه الخالق والصانع العظيم .. الله سبحانه ، وأداته فى ذلك ـ سبحانه ـ أحكامه وتعاليمه ووصاياه للانسان التى أودعها شريعته الغراء (الاســلام) :

يقول المفكر جرينباوم فى كتابه «« حضارة الاسلام »» :

«« والاسلام مجتمع الله .. جلت قدرته .. هو الحقيقة التى يدين لها المسلم بوجوده والله مركز خبرته الروحية وهدفها وعقلا وروحا ، لا يمنحه هذا الاعتراف الا وهو كائن اجتماعى يعيش فى مجتمع ويتفاعل معه .. ومن ثم كان مرشدا له يأخذ بيــده نحو السبيل السليم والقويم لكى يكون عضوا صالحا فى المجتمع وقوة دافعة فى قوى بنائه ، وهكذا يقيم الإسلام ومن شرع الله ميزان الحق والحكمة والعدل بين الفرد والمجتمع على صورة اذا تحققت بها أكمل حياة يمكن أن تبلغها طبيعة البشر وقام مجتمع الله على هذه الأرض .

ويستمر الحوار :

حاولنا تقديم دوائر حوارية حول الحاجة الى الفلسفة والعلم ، لأن هذه القضية منذ أن عرف الانسان أو تفلسف وهو يبحث عن أسرار هذه المعرفة أحيانا يغالى فى الثقة بالنفس ، وتصبح عنده المعرفة هى (الكنز) الذى أكتشفه ، ينبهر بها ، ومن هنا جاءت نظريات فلسفية مثل الفاشية والماركســية والوجودية وأيضـا البرجماتية وغيرها ، وكان الدكتور عبد العزيز عزت أستاذى بكلية الآداب جامعة القاهرة يوم كنت طالبا بها يسخر كثيرا من أصحاب النظريات الفلسفية ويقول انها نتاج عقل مشبوش أو عقل واقع تحت تأثير الخمر ، وكان يدلل على قوله بكثرة النظريات الفلسفية التى تخرج من فرنسا وحدها .

وبعيدا عن هذا القول الساخر ، فان الانسان سيظل يبحث عن المعرفة ، بكل الطرق وكلما وصل الى نقطة منها اكتشف نقصا فيها فيبحث عن غيرها، وهكذا سيظل الانسان يرجى خلف الفلسفة، وستظل الفلسفة هى الشعلة المرشده فى كافة مجالات المعرفة ، والانسان لا يكتشف جديدا انما هو يعثر على الجديد ـ من وجهة نظره ـ فى القديم الذى يلقيه جانبا ٠

وتستمر دوائر الحوار على مدار عمر البشرية ٠

الفصـــل الثــانى

الحداثة ما قبلها وما بعدها

من طبائع الامور التغير ، الانســان عاداته ولغتــه وسلوكه وقوانينه ، البيئة وما يحيط بها من مناخ وطبيعة وطرق التعامل معها ، كل شيء قــابل للتغير ، ولكن السؤال الذى ظــل مطروحا لسنوات عديدة ، بل يمكن القول لقرون عديدة ، هو مقدار هذا التغير ودرجه اتجاهه ومدى أهميته واهمية تأثيره سلبا وايجابا ، بل يمكن القول ان التغير كما هو فطرى في الإنسان فهو حتمى فى كل ما يحيط بهذا الانسان ·

ومن أهم القضايا قضية (القديم) والحفاظ عليه أو التمسك به ، أحيانا يسمون القديم (الأصوليــة) أو (الكلاســيكية) أو التراث ، واحتلت كلمة التراث العنــوان الثــابت للحديث عن الموروثات أو الأرث البشرى ، لهذا سوف نخصص هذا الفصــل للحديث عن أمرين أولهما :

(أ) التراث / القديم / الأرث :

(ب) المستحدث / الحداثة / نظرة الى القادم :

وسوف نذكر هنا دائرة حوار جرت منذ أعوام عديدة اشترك فيها وساهم في هذه الدائرة الأساتذة الدكاترة ابراهيم امام (عميد كلية الاعلام الأسبق) ، أبو السعود ابراهيم (خبير المعلومات) ،

حسين فوزى النجار (الأستاذ بجامعة القاهرة) ، حامد عبد المجيد (خبير التراث ومحقق مخطوطات) ، عبد الحميد يونس (الأستاذ بجامعة القاهرة ورائد دراسات التراث) ، محمود حسن العزب (سكرتير لجنة احياء التراث) عبد المنعم اسماعيل (الأستاذ بجامعة الرياض) ، عبد المنعم خفاجى (الأستاذ بجامعة الأزهر) فتحى سلامه (كاتب هذه السطور) ٠

استمر العمل فى هذه الندوة عدة أشهر واستغرقت عدة حلقات للنقاش ، فقد عقدت أول حلقة فيها حيث اشترك فى هذه الحلقة الدكاترة عبد الحميد يونس وعبد المنعم خفاجى وعبد المنعم اسماعيل وقد تناولنا فى الحلقة تحديد كلمة (التراث) ، ولكن الحديث تشعب بنا ، وشعرت بأهمية الموضوع ، وأنه يحتاج الى المزيد من الدراسة فهو ليس مجرد موضوع للنقاش وأخذ الآراء ، لأنه موضوع يخص تراث الأمة العربيــة كلها ، ثم عقدت الحلقــة الثانية التى ضمت ، خلاف ما ذكرت ، الأستاذ أبو السعود ابراهيم، خبير المعلومات بجامعة الدول العربية الذى قدم لنا بيانات دقيقة عن المخطوطات العربية ، وساعد كثيرا فى تقديم معلومات كان لها أكبر الأثر فى تقدم الندوة ، وقدم أيضــا مجموعة من المقترحات التى تصلح أساسا جيدا للمناقشة ، واشترك أيضا الدكتور ابراهيم امام الذى أوضح أهمية الاهتمام بالتراث لمحاربة هذا الغزو الاعلامى والفــكرى والثقــافى الذى يتعرض له عالمنــا العربى والاسلامى ، واتضحت أكثر اهمية الدعوة لوضع خطة قومية للحفاظ على التراث العربى ، خطة تتكاتف الدول العربية كلها ومنظماتها وهيئاتها فى تنفيذها ، والعمل على جمع التراث وتحقيقه ونشره ٠

وفى الحلقات التالية بعد ذلك انضم الى من سبق أن ذكرت ، الأســتاذ الدكتور محمد عبد القــادر أحمد ، الذى اهتم بموضوع

التراث العربي منذ عام ١٩٧١ وحتى الآن زار خلال هذه الفترة كل الدول العربية ، ونقب عن المخطوطات العربيــة في كل مكان من الموصل حتى نواكشوط بموريتانيا ، وساعدنا أيضا الأستاذ محمود حسن العزب ، الذى عمل باليمن الجنوبية ، وهو خبير التراث بهيئة الكتاب ، وقدم لنا كشفا بما حققته المنظمات والهيئات العربية من أمهات كتب التراث ، حيث اشتغل سكرتيرا للجنة احياء التراث لمدة طويلة •

وخلال كل تلك الحلقــات ، كان الشــعور يتزايد بأهميــة الموضوع ، لذا فانني سوف ألخص ما دار خلال تلك الجلســات الطويلة من النقاش حول التراث العربي ، ولكن الهدف هو كيف نتوصل الى وضع خطة شاملة لاحياء التراث ونشره ، فقد فجرت هذه الحلقات مجموعة كبيرة من القضايا الفكرية التى تمس الفكر العربي ، لن يحسمها الا البحث فيما تركه السلف الصالح من فكر انسانى كان له أكبر أثر فى تطوير الفكر الانسانى كله •

ونبدأ بما عليه من تعريف للتراث العربي ، حيث دار الحديث حول ماهية التراث •

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى :

تراث أى أمة من الأمم هو موروثها الحضارى فى شتى العلوم والفنون والآداب ، وتراثنا العربي هو كل ما أبدعه العقل العربي من ذخائر الفكر والعلم والأدب والفن ، وبقى لنا مخلدا فى كتب مخطوطة أو مطبوعة ، وهذا التراث العربي يتناول ما دون من آثار أدبية مأثورة عن العصر الجاهلى ، ومن معارف وأساطير وقصص وأحداث تاريخيــة مروية للجاهليين ، كما يتناول الآثار الدينيــة والأدبية والعقلية والعلمية والفنية التى تركتها الحضارة الاسلامية

والعبقريون من أسلافنا المسلمين على اختلاف عصور التاريخ ، منذ ظهور الاسلام حتى العصر الحديث ، بل حتى اليوم ٠

الدكتور محمد عبد القادر أحمد :

نطلق لفظ التراث بالمعنى الواسع على نتـاج الحضارة فى جميع ميادين النشاط الانسانى من علم وفكر وأدب وفن ، ومأثورات شعبية وآثار ومعمار ، وتراث فلكلورى واجتماعى واقتصادى ٠

وكثير من هذا التراث سجله الأجـداد فيما خلفوه لنـا من مخطوطات عربية تتناول البحث فى فنون المعرفة المختلفة من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وأدب ، ولغة ، ونحو ، وتاريخ ، وفلسفة ، وطب ، وعلوم ، ورياضيات ، وفلك ، وفلاحة ، وغيرها ٠

وقد اسـتطاع اليسير من هذا التراث أن يصـارع عوادى الزمن ويعيش حتى الوقت الحاضر ٠ ولكن جله لم يعرف طريقه الى الطباعة فتعم الفائدة منه ٠

ومازال معظمه رهين رفوف المكتبات ومخزونا داخل صناديق فى ظروف طبيعية صعبة ، وأعتقد أن الوقت قد حان لاحياء التراث العربى واخراجه الى النور وفق برنامج محكم ٠

الأستاذ محمود العزب :

(٠٠ لا يقـل التراث الأثرى والمعمارى أهميـة عن التراث الفكرى الموجود فى المخطوطات ، والتراث المعمارى والأثرى يتمثل فى المساجد والقصور والحمامات والتـكايا والسدود ، والقـلاع والحصون ، والأبراج والأسوار ، وهذا التراث يحتاج الى جهود مكثفة للكشف عنه وترميمه واصلاحه والمحافظة عليه) ٠

فتحى سـلامه :

والتراث الشعبى أيضا ، هل يمكن الوصول الى تحديد لمعنى التراث الشعبى ؟

الدكتور عبد الحميد يونس :

(لانزال نختلف على تحديد معنى التراث الشعبى على الرغم من التقدم الملحوظ فى الدراسات الانسانية على اختلافها ، وبخاصة الدراسات الاجتماعية والانتروبولوجية والنفسية ، ولقد أصبح من المحتم أن نعترف بأهمية الموضوع ، فانه يرتبط أوثق ارتباط ، والحياة الموصولة للمجتمعات الانسانية ، بل لعله الذى يشـكل بأقصى حد نمط السلوك الانسانى فى اطاره الاجتماعى ، وهذا يؤكد الحاجة الماسة الى محاولة الكشف عن هيكل عام متكامل للتراث الشعبى .

ومن أعظم النتائج التى انتهى اليها المتخصصون فى التراث الشعبى توسيع دائرته ، بحيث يشمل الفنون التشكيلية ، كالعمارة والتصوير والنحت ، فى اطار الخبرة الشعبية) .

فتحى سـلامه :

يقول الأسـتاذ الباحث عبد السـلام هارون ان كلمة تراث مأخوذة من مادة (ورث) والتى تدور معانيها حول حصول المتأخر على نصيب مادى أو معنوى ممن سبقه ، ويقول الأستاذ عبد السلام هارون ما نصـه :

« أجمع اللغويون على أن التراث ما يخلفه الرجل لورثته ، وأن (تاءه) أصلها (الواو) أى : (الوراث) ، وله نظائر فى كلمات

أخرى منها : التجاه ، وأصلها الموجاه ، أى الجبهة .. وهكذا يدور قلب الواو المقصود لهذه الكلمات تـاء ، لأنها أخف من الواو ، ولا تتغير بتغير أحوال ما قبلها كما يقولون .

لعل من أقدم النصوص التى وردت فيها هذه الكلمة ما جاء فى القرآن الكريم من سورة الفجر : (وتأكلون التراث أكلآ لما) كانوا فى جاهليتهم يمنعون توريث النساء وصغار الأولاد »» .

(د) حسين فوزى النجار :

هذا المعنى قديم ، وقد ورد فى أقوال الشعراء كثيرا .

فتحى سـلامه :

كما قال سعد بن ناشبا ، وهو شاعر اسلامى ، عندما هدمت داره :

فان تهدموا بالغدر دارى فانها   تراث كريم لا يبالى العواقبـا

(د) حسين فوزى النجار :

لقد كان هذا المعنى قائما ، أى استخدام كلمة التراث بمعنى الميراث ، ولكن فى العصور الحديثة عندما تشعب البحث فى كل الميادين أصبح هناك تراث تاريخى ، وتراث حضارى ، وتراث فى الفن والأدب ، فاذا أردنا اقتصار البحث فى حدود من المنطق المنظور أمامنا الآن نقول : اننا يجب أن نقصد التراث الفكرى المتمثل فى الآثار المكتوبة الموروثة ، والتى حفظها لنا التاريخ..

وليست هناك حدود معينة لتاريخ أى تراث ، فكل ما خلفه مؤلف من انتاج فكرى يعد تراثا فكريا ، وبالتالى يصبح التراث العربى هو كل ما كتب باللغة العربية بصرف النظر عن جنس كاتبه ، فان الاسلام قد جب هذا التقسيم وقطعه فى جميع الشعوب القديمة التى فتحها وأشاع الاسلام فيها ، ولغة الاسلام هى اللغة العربية التى صبغت الشعوب بصبغة واحدة هى الفكر الاسلامى .

نتحى سلامه :

فيما يبدو أننا نتفق معا حول المفهوم العام للتراث ، ويبدو أن الدكتور محمد عبد القادر أحمد يطلب منا أن يكون الحديث حول التراث الفكرى وهو ما ترك مدونا فى مخطوطات سواء تلك التى تم اكتشافها وتحقيقها ، أو التى لم تحقق أو تكتشف بعد .

أبو السعود ابراهيم :

أعتقد أن التراث بالمفهوم العام ، حيث وضح ذلك الأستاذ محمود العزب ، ويوافقه فى هذا الرأى الأستاذ عبد السلام هارون وبقية الأساتذة — هو ما تركه السلف من نتاج عقولهم ، ويمثل الوجه الكامل للحضارة العربية التى تركت لنا هذا التراث ، ومن هنا يجب الاهتمام به .

د. عبد المنعم اسماعيل :

(لا خلاف ، ولكن المهم الآن هو الوصول الى خطة قومية للاهتمام بهذا التراث ، لجمعه وتحقيقه ونشره بالوسائل العلميه الميسرة لنا الآن ، لقد سبقنا العلماء الأوربيون الى الاهتمام بالتراث، وعندما اكتشفوا ما صنع أسلافنا فى مختلف زوايا العلم والمعرفة استولى عليهم الدهش ، ولان التراث العربى غنى فى الكيفية وفى

الكمية أيضا ، سواء فى التشريع أو العلوم الفلسفية ، والرياضية، والجغرافية ، والطبية ، والفنية ، وغيرها ، ولا تزال هذه العلوم والنظريات الفلسفية والاجتماعيـة لعلماء العرب أصـلا من أصول المعرفة الانسانية المعاصرة ، وقد وجدت ولمست ذلك بنفسى خلال وجودى فى أوربا ، بل لقد برهنت الدراسات على أن العرب هم أساتذة العالم المتحضر الآن ، وعليه لا يصح أن تبقى هذه الذخائر عرضة للفقد والضياع وعدم الاستفادة منها) .

فتحى سـلامه :

لاشك أن العلماء العرب كان لهم السـبق فى شتى مجالات الفكر الانسانى ، ويرجع اليهم الفضل فى كثير من العلوم المستحدثة وتذكر (ابن فارس) فى كتابه (مقاييس اللغة) الذى استطاع أن يستنبط نظرية لغوية دقيقة لم يسبقه اليها مفكر ، حيث أرجع كل مادة لغوية من مواد المعاجم تلى أصل أو أصلين أو عدة أصول معنوية ، وهذه النظرية تعتبر من المعجزات الفريدة فى عالم التأليف، وكذلك (ابن خلدون) فى كتابه (مقدمة ابن خلدون) والزمخشرى فى كتابه (أسـاس البـلاغة) وابن سينا فى كتابه (القانون) ونصر الدين الطوسى صاحب علم حساب المثلثات، وكذلك الخوارزمى صاحب علم الجبر ، وكل هذه العلوم استحدثها العرب ، وعلى أساس ما جاء فى كتبهم تطورت هذه العلوم ، فما أحوجنـا نحن بما تركه لنا الأسلاف لنطوره بعد دراسته ، مارأى الدكتور ابراهيم امام عميد الاعلام العربى ؟

الدكتور ابراهيم امام :

(أحب أن أذكر شـيئا هاما ، أفكر فيه منـذ زمن طويل ، وخلال حضورى للمؤتمرات العلمية التى تعقد كل حين ، وخاصة

تلك المعنية بعلم الاعلام ، وهذا الأمر الذى أفكر فيه هو أن العالم العربى يتعرض لغزو اعلامى ، بل قد تعرض فعلا لاحتلال واستعمار اعلامى ، وتحولنا نحن العرب الى (مستقبلين) فقط ، نخضع لتأثير ما يصل الينا من (أخبار) الغرب ، أو ما يرسلونه هم الينا من أخبار انجازاتهم ، ولم تعد لدينا القدرة على الارسـال ، وغلبنـا التطور العلمى لوسائل الاعلام الأجنبية ، ولاشك أن هذا التطور الاعلامى كان نتيجة حتمية للتطور الحضارى ، ولهذا يجب طرح سؤال هام : الى متى سنظل نستقبل فقط ؟ لقد فكرت فى الاجابة • بالطبع ستكون حتمية التطور الحضارى للعرب ، بحيث تصـبح منافسة للحضارة الأوربية ، وهذا عن طريق اعادة انماء القدرة على الابتكار ، وهذه تحتاج الى دراسة جيدة للتراث ، حتى نتمكن من طرح استقراء علمى عربى • ولهذا نحن فى حاجة الى احياء التراث للاستفادة منه علميا وليس للتفاخر به) •

دكتور عبد المنعم خفاجى :

انى أوافق أستاذى الدكتور ابراهيم امام فيما ذهب اليه ، وأعتقد أن أهمية التراث تتمثل فيما يلى :

١ ــ انه يمثل قيمة تاريخية فريدة ، فمنه عرفنا تطور الإنسانية فى عصورهـا الماضـية ، الأمر الذى يجعلنـا على قدرة من استكشاف المستقبل واستشعاره •

٢ ــ انه يمثل قيمة قومية ، فهو يحمل قيمة تعلو على كل قيمة •

٣ ــ انه الأساس الذى يجب أن نبنى عليه نهضتنا المعاصرة •

ونحن مطـالبون بجمع التراث وحفظـه وتسهيل مضمونـه الحضارى للأجيال الدارسة •

الدكتور محمد عبد القادر أحمد :

(من المؤسف ان هذا التراث الضخم الذى خلفه لنا الأجداد لا يجد العناية الكافية التى ينبغى أن نوجهها اليه فى الوقت الحاضر . فميدان الاهتمام بالمخطوطات العربية وتحقيق النصوص القديمة لا يغرى سوى فئة قليلة جدا من الدارسين والباحثين ، لأن العمل فى هذا الميدان ربما لا يتيح لأصحابه ما تتيحه المجالات الأخرى من الصيت والشهرة ، كما ان العمل فى احياء التراث ليس عملا هينا يسيرا ، بل هو عمل شاق مرهق ، تحف به صعاب لا تكاد تحصى ، ولهذا فان قضية التراث تطرح نفسها اليوم وتؤكد أهميتها على الصعيد القومى كعنصر أساسى يؤكد أصالة الأمة العربية وصمودها أمام التحديات المصرية) .

محمود العزب :

(أشعر أن من واجبى أن أقول لأساتذتى ان الاهتمام بالتراث وجمعه ليس وليد هذا العصر ، انما يرجع ذلك الى الزمن القديم ، حيث بدأ التراث العربى فى عصر الأمويين ، ثم ازدهر على أيدى العلماء فى عصر العباسيين ، وكانت هناك عدة بواعث وراء اهتمام العرب بجمع تراث أسلافهم ، سواء كان بواعث قومية أو دينية أو اجتماعية ، كما صاحب حركة جمع التراث وتدوينه العناية بانشاء المكتبات العامة ، كما حدث فى بغداد ثم فى القاهرة وقرطبة ، ولم يكن الاهتمام بجمع التراث وانشاء المكتبات مقصورا على الملوك والأمراء ، بل شارك فى ذلك عامة الناس فى أنحاء الوطن العربى) .

فتحى سلامه :

ولكن .. أين ذهب كل هذا الكم الهائل من مخطوطات التراث ؟

الدكتور محمد عبد القادر أحمد :

الأمة العربية .. بالعقل .. تملك تراثا كبيرا يمثل حلقة ضخمة من حلقات تطور الانسانية واطراد النشاط الفكرى العالمى ، ويقدر عدد المخطوطات العربية الموجودة فى العالم بنحو مليونى مخطوط على أقل تقدير .

ابو السعود ابراهيم :

أعتقد أنه يقدر بنحو ٣ ملايين مخطوط ، وفقا لآخر احصائية قامت بها هيئة اليونسكو ، التابعة لهيئة الأمم المتحدة .

فتحى سلامه :

ومع هذا يبقى ، أين ذهب كل هذا ؟

د. محمد عبد القادر أحمد :

(نحن نتحدث عما بقى لا عما كان موجودا ، لقد لعب الاستعمار دورا خطيرا فى تبديد الجزء الأكبر من التراث ، ويتعجب المطلع على الكتب التى عنيت بحصر التراث وذكر أسماء المخطوطات من تلك الأعداد الهائلة التى نصت عليها ، والتى ليس لها نظير فى أية حضارة من حضارات العالم ، ومنذ عصر التدوين والمكتبة العربية يزداد رصيدها كل يوم من المخطوطات العربية ، ويكفى المرء أن يعرف أن فهارس مكتبة الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ بلغت عشرة مجلدات ، وذكر ابن خلدون ان مكتبة الحكيم المستنصر الأموى الذى كان فى قرطبة من سنة ٣٥٠ الى ٣٦٦ هـ بلغ عدد فهارسها أربعا وأربعين فهرسا ، كل فهرس عشرون ورقة ، وليس فيها ذكر أسماء الدواوين ، ومما يؤسف له ان هذا التراث الجم

الغفير تفرق فى جميع أنحاء العالم نتيجة لكثير من العوامل التاريخية والاقتصادية والسياسية والفكريه التى مر بها الوطن العربى ، وما تعرضت الأمة العربية له من هجمات استعمارية ومحن فكرية وثقافية، وقد كان للبعثات التبشيرية والتجارية والسياحية والرحالة والغزاة المستعمرين الأثر الكبير فى جمع ما تضمه بلادنا من نفائس المخطوطات ونوادرها وتهريبها الى الخارج ، بحيث أصبحت مكتباتهم ومتاحفهم تزخر بآلاف المخطوطات) .

د. عبد الحميد يونس :

(ان واجب الأمة العربية ، وهى تسعى فى الوقت الحاضر الى استعادة مكانتها الحضارية ، أن تحقق انتماءها الثقافى والفكرى بالعناية بتراثها وجمعه والحفاظ عليه واحيائه ودراسته ، حتى حياتها الفكرية المعــــاصرة على أسس من جهود علمائها وأدبائها السابقين ، دون تفريط فى امتدادها التاريخى) .

د. حسين فوزى النجار :

- لقد أصاب تراثنا العربى عدة نكبات هائلة ، وكان لها دورها وأثرها الخطير فى تبديد تلك الثروة الانسانية الهائلة ، لقد مر التتار عندما سقطت بغداد فى ايديهم عام ٦٥٦ هـ على بيت الحكمة واحرقوه ، والمدرسة النظامية والمستنصرية ، ثم ألقوا ما تبقى من ذخائر التراث الفكرى العربى فى نهر دجلة حتى شكلوا منه جسرا عبروا عليه وقام الأسبان بتدمير مكتبات الأندلس ، ولم يسلم منها الا القليل حمل الى أوربا ، وكذلك فعل جنود الصليبيين ، وكذلك فعلت فرنسا عندما غزت مصر ، وايطاليا عندما احتلت ليبيا ، لقد كانت المخطوطات العربية التى تحوى كنوزا من المعرفة الانسانية الأصيلة يقذف بها فى البحر ، وتحمل على عربات ثم يلقى بها فى الماء فى مينـــــاء طرابلس ، وكذلك فعل الفرنســـيون فى تونس

والجزائر ، فقد أحرق الفرنسيون مكتبة الأمير عبد القادر ، ثم بعد ذلك مكتبة جامعة الجزائر ، والمكتبة الوطنية ، وكذلك فعل الأسبان في المغرب ، وما نهبوه من كتب التراث العربي تقلوه لكى يبقى مجرد مخزون كتبى للتباهي به)

فتحى سـلامة :

ما لا يدرك كـله لا يترك كله ، لقد بقى من كتب التراث الكثير ، بعضه فى مكتبات روسيا وأمريكا وأوربا ، ولا سبيل الى استرجاعه ولكن ما هو موجود الآن متفرق فى البلاد العربية ، بعضه معرض للاهمال والاصابة بأمراض الورق ومعرض للتلف ، وبعضه تلف بالفعل ، والباقى يمكن انقاذه لو توافرت النية الصادقة ، والخطة الحكيمة ، والتمويل اللازم ٠

ولهذا يجب ان نقدم مقترحاتنا فى هذا الشأن ٠

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى :

أتمنى أن :

١ ـ نقيم المؤتمرات العلمية الدائمة من أجل خدمة التراث ٠

٢ ـ زيادة عناية مراكز التراث فى جامعاتنا به عناية أكثر ، مع الاستفادة بما سبق من تجارب ٠

٣ ـ تدريب طائفة كبيرة من المشتغلين بالتراث على العمل من أجل خدمته وتحقيقه ٠

٤ ـ نشر خلاصات علمية لأهم ما تقف عليه من كنوز علمية ٠

٥ ـ الفهرسة (الببليوجرافية) الكاملة لمخطوطاتنا ، وأعتقد أن هذه أمنيات من الممكن تحقيقها ٠

الدكتور حامد عبد المجيد :

(لقد أمنتم جميعا على أهمية احياء التراث عن طريق جمعه وتصنيفه واعادة تحقيق ما لم يتحقق منه تحقيقا علميا سليما ، وامنتم من قبل على أهمية هذا التراث وقيمته العلمية والانسانية لنا وللناس كافة ·

والأمر ، وفق ما أعتقد ـ يحتاج الى (التمويل) فان وجد هذا التمويل بالقدر الكافى وضعت الخطة اللازمة لانقـــاذ التراث من الدمار وقد عانيت ، كأحد المشـــتغلين بتحقيق التراث ، متاعب كثيرة ، ولكن أهمها وجود المال اللازم ، والوقت اللازم ، لأن أمر تحقيق المخطوط ليس بالسهل) ·

فتحى ســـلامة :

الدكتور حامد ، أتصور أنه يوجد التمويل ، مع أننى أعتقد انه يجب تحديد قيمة هذا التمويل فماذا بعد ؟

د· حامد عبد المجيد :

(أقصد التمويل المســـتمر ، ونتصـــور معا ان الحكومات العربية رصدت مبلغا يساوى مليون جنيه ، فيجب ان يستمر رصد هذا المليون كل عام حتى ننتهى من جمع التراث وتحقيقه وطبعه ونشره ، وليس الأمر ، أمر مبلغ يرصد ثم ينتهى قبل الانتهاء من تحقيق الهدف العام) ·

وانى معك سأتصور وجود هذا التمويل الجمعى من الحكومات العربية ، فانه يجب انشـــاء ما يســـمى (بالمركز الدائم لخدمة التراث) وهذا المركز لا عمل له الا الاشراف على المبلغ المعتمد فى

خطة كل عام ، وحصر الهيئات القادرة على جمع التراث وتحقيقه بالوسائل العلمية وتصويره ونشره ، وأيضا لها دور آخر هو حصر المحققين القــادرين على تحقيق التراث ، وانشــاء معهد لتدريب محققين جدد ٠

والخطوة التالية هى ان يقوم هذا المركز باعطاء الهيئات التى اختارها فى مختلف الدول العربية مخصصا ماليا فى مقابل ان تتعهد هذه الهيئات بتقديم تحقيق لعدد معين من المخطوطات ، يقوم المركز بطبعها تحت اشرافه وتوزيعها على المكتبات الرسمية فى البلاد العربية ، وأتصور ان هناك خطة يضعها هذا المكتب الدائم تعطينا توضــيحا كاملا بمخطوطات التراث التى لدى كل الدول العربية ، أو فى مكتبات الدول الأخرى ، ثم ما هى المخطوطات التى تم تحقيقها وتلك التى لم يتم تحقيقها ؟

أعتقد أننا بهذا نحل الكثير من المشاكل ، فقد لاحظت ان كتابا قد تم تحقيقه أكثر من مرة بمعرفة أساتذة أجلاء ، ولكن كل منهم اعتمد على مخطوط مختلف باختلاف البلد الوارد منها ، وهذا بالطبع يحدث البلبلة الفكرية كما يحدث الخلط) ٠

أبو السعود ابراهيم :

(ان من أهم مشكلات التراث هى وجوده مبعثرا فى مكتبات عامة أو خاصة ، والجزء الأكبر منه مجهول لوجوده فى مكتبات غير مفهرسة أو مصنفة ، ولم تمتد اليها يد التنظيم الفنى ٠ لابد من جمع هذا التراث الضخم ليكون فى متناول الباحثين ، والعلماء حتى تكون دراساتهم أقرب الى الكمال ٠

وأتصـــور ما يلى :

١ ـ يتم انشاء مركز وطنى فى كل وطن عربى يضم ما جمع من مخطوطات وما عثر عليه من كتب التراث ٠

٢ ـ يتم بعد ذلك انشاء مركز قومى مركزى ينظم التعاون بين المراكز الوطنية ، ويأخذ على عاتقه تصوير المخطوطات العربية من مختلف أنحاء العالم ، ويضع هذه المصورات تحت تصرف المراكز الوطنية ، أو بتقديم نسخ منها على الميكروفيلم يتم ذلك عن طريق الاعادة التعاونية ٠

٣ ـ تقوم المراكز الوطنية بفهرســـة ما لديها ونشره على بقية المراكز ٠

٤ ـ انشـــاء نشرة دورية متخصصة تعنى بنشر البحوث المتعلقة بالمخطوطات ٠

٥ ـ اختيار عدد من المصادر الكبرى للتراث ، وتكليف عدد من العلماء والباحثين للقيام بدراستها دراسة موضوعية تحليلية ، ترمى الى تقريبها الى القارىء العربى المعاصر ، مع المحافظة على أصل المخطوط ، وعلى ان يشتمل هذا العمل على ابراز أهم معالم المخطوط مع وضع معجم للألفاظ والمصطلحات الواردة ، وكذلك وضع كشاف تحليلى للموضوعات ، ليتيسر الرجوع الى مافيه من مواد ٠

ان الجهود التى بذلت حتى الآن فى تحقيق التراث ، كلها جهود فردية وغير معروفة ، نظرا لعدم وجود فهارس منشورة توضح ما الذى حقق ، أو الذى لم يحقق ، وقد يوجد للمخطوط الواحد

نسختان فى مكانين مختلفين ، ويقوم باحث بتحقيق احداهما ثم يأتى من بعده آخر يقوم بتحقيق النسخة الأخرى ، ولا أنكر وجود بعض الجهود التى قام بها معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، حيث أرسل بعثاته الى اسبانيا واليمن وبعض البلدان الأخرى لحصر وتصدير المخطوطات التى عثر عليها ، ولكن عيب هذا الجهد فى نظرى أنه لا يمكن الاستفادة منه ، لأنه يجب أن تسبق عملية تصوير المخطوطات فهرستها حتى يمكن الرجوع اليه بشكله التقليدى أو غير التقليدى بعد تصويره) ٠

د٠ حسين فوزى النجار :

يجب الاعتراف ان احياء التراث قد تعرض لثورة عندما استحدثت المطبعة ، فقد ظهرت أول مطبعة عربية فى مدينة (فانو) وافتتحها ليون العاشر سنة ١٥٢٤ ، ثم مطبعة البندقية حيث طبع لأول مرة القرآن الكريم ، كما طبعت أول ترجمة ايطالية للقرآن سنة ١٥٤٧ ، وبعد ذلك طبع (قانون ابن سينا فى الطب) ، وبعد ذلك تواكبت المطابع فى الاستانة ولبنان ومصر ، حتى تكونت أول جمعية تتولى طبع ونشر كتب التراث تحت اسم جمعية المعارف بمصر ١٨٦٨ ، وقد نشرت طائفة من الكتب أهمها (تاج العروس للزبيدى) وألفباء ، وأسد الغابة ٠ ثم جاءت بعدها شركة طبع الكتب العربية التى تولت طبع مجموعة من كتب التراث ، منها الموجز فى فقه الشافعى ، وفتوح البلدان للبلاذرى ٠ وبعد شركة الكتب العربية توالت الجمعيات الأهلية وبعضها كان يتكون من أجل تحقيق وطبع كتاب واحد مثل ما حدث لكتاب ، (المخصص لإبن سيده) ، بالاضافة بالطبع الى جهود المستشرقين فى احياء التراث ، وهذا يعنى ان قضية احياء التراث هامة وخطيرة وتحتاج الى تكاتف الجهود ، وتبنى قضية التراث العربى على أساس انها قضية تهم كل الدول العربية ، فلماذا لا تتكاتف هذه الدول ؟ لماذا لا تتكاتف

الجامعات فى الدول العربية وتشكل اتحادا علميا لاحياء التراث ، بل ان بعض الجامعات فى بعض البلاد العربية لديها من الخبرة وسـابق التجربة ما يجعلها جديرة ببذل هذا الجهد ، ان مركز المخطوطات بليبيا ، وجامعة الخرطوم بالسودان وجامعة الرياض بالمملكة السعودية وجامعة القاهرة بمصر ، لدى كل منها الامكانيات المتاحة والخبرة فى مجال احياء التراث ، فلماذا لا تقوم بدور ريادى فى هذا المجال) ٠

د٠ عبد الحميد يونس :

لقد تحدثنا فى الندوة عن التراث العربى بشكل عام ، وان كنت اعتقد أن التراث الشعبى يستوعب القوام الثقافى الجماعى الذى تصور الجماعة فيه عن الشخصية الجماعية أكثر من صدورها عن الشخصية الفردية ، التى لها خصوصية واضحة تميزها عن سائر الأفراد ، وبذلك يستطيع الدارس ان يحدد ــ الى أقصى حد ممكن ــ مجال التراث الشعبى ، وهو يتآلف من عناصر تعمل على تحقيق ما استقر فى النفسية الجماعية العامة فى اطار شعب من من الشعوب ، من قيم عليا ومن خبرات كامنة أو ظاهرة تراكمت على تاريخ يحدده الطول والقصر ٠

وحيث اننا بصدد خطة لاحياء التراث بدراسته وتحقيقه ونشره للاستفادة منه ، فأنني أرى ، وخاصة فى مجال التراث الشعبى ، ان الحياة الانسانية الآن تتطور بخطوات متزايدة السرعة ، ولهذا التطور مظهران :

الأول : التقدم التكنولوجى الذى يعتمد على الالة المعقدة ، والطاقة الكبيرة المنوعة وهذا يغير الكثير من عناصر التراث الشعبى ، بل انه يكاد يقضى عليها قضاء تاما ، ومن هنا أخذ المعنيون بالتراث

الحى يشمرون عن سواعدهم لاكتشاف كل ما له سمة شعبية فى هذا التراث :

الثانى : الطفرة الهائلة فى وسائل الاتصال بين الناس ، وهى أيضا موصولة التطور ، وقد جعلت الجهد الفردى أو الجماعى شبه عفوى ، وبخاصة فى الفنون الشعبية التى تتوسل بالكلمة والحركة والايقاع والصورة ، ولكن هذه الثورة تفيد بشكل مباشر أو غير مباشر من تزويد بعض الأنماط الشعبية أو استغلال أجزاء منها أو استلهامها ، وهذا يجعل الفولكلوريين مطالبين باتخاذ منهج مقارن ومعقد فى الكشف عن عناصر التراث الشعبى .

ولم يعد البحث العلمى فى الدراسات الانسانية اجتهادا منطقيا ، لأنه يتطلب ملاحظة واقعية بجميع وسائل الكشف والتسجيل والتصنيف والحكم ، كم نتمنى ان تجد فى وطننا العربى معاهد لدراسات التراث الشعبى .

فتحى سلامة :

أعتقد أننا طرحنا قضية غاية فى الخطورة والأهمية ، وهى ببساطة شديدة هل نحن جادون فى الاهتمام بالتراث العربى أولا ؟ اذا كنا نباهى الأمم بعراقة حضارتنا وفضلها وسبقها فى كل المجالات أليس من الواجب الحفاظ على ما نتباهى به ؟ لهذا مطلوب تبنى خطة قومية للحفاظ على التراث واحيائه ، والعمل على الاستفادة منه لتطوير حياتنا الفكرية وأشكركم .

سوف تواصل دراسة دائرة الحوار الخاصة بالتراث على أساس أن قضية المبارزة بين الماضى والحاضر وأيضا بين الماضى والمستقبل ، واستحداث كلمات جديدة ـ لكل عصر ـ تعبر عن

نفس المصطلح ، ولا ندرى لماذا الاصرار على استخدام كلمات جديدة لها مدلول قديم .

ولأننا نعيش عصر (العولمة) الذى يحاول السيطرة على كيانات البشر كافة ، ويقابله مقاومة عنيفة نتوقع لهذه العولمة الانهيار ، واختفاء هذا المصطلح بعد حين نعود الى دائرة الحوار الجديدة ، فى أوائل القرن ٢١ .

ودائرة الحوار هذه المرة اشترك فيها الأساتذة والدكاترة كمال بشر (العميد الأسبق لكلية دار العلوم) ، حسين نصار (العميد الأسبق لكلية الآداب) ، الشاعر محمد التهامى ، الأستاذ محمد خليفة حسن (الأستاذ بجامعة القاهرة) ، عبد اللطيف عبد الحليم (الأستاذ بدار العلوم) ، مصطفى ماهر (الأستاذ بجامعة عين شمس) .

وسوف نركز على أمرين :

أولهما التراث ، ثانيهما العالمية وعلاقة هذا بالأدب .

فى البداية يقول الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن فى بحثه القيم حول احياء التراث .

ان قضية التراث أصبحت تمثل احدى القضايا الثقافية المهمة فى ظل المتغيرات السياسية والثقافية والاقتصادية التى يمر بها العالم وبخاصة بعد تبلور ظاهرة العولمة ووضوح خطرها الثقافى وتهديدها للثقافات الوطنية والاقليمية وتهميشها للدور الثقافى القومى وتركيزها على ما يسمى بالثقافة العالمية ورفضها للتعددية الثقافية .

ولذلك فان قضية التراث العربى تحتاج الى مناقشة جديدة وجادة فى ظل العولمة الثقافية تطرح قضية مستقبل الثقافة العربية من ناحية ، ومسألة احياء التراث العربى بوصفها مسألة قومية وانسانية من ناحية أخرى • ولابد هنا من الربط بين القضيتين فان مستقبل الثقافة العربية مرهون باحياء التراث العربى وابراز تأثيره فى الثقافة العالمية وفضله عليها وبخاصة فى ظل غياب أية « قيمة جوهرية ذاتية للثقافة العربية الحديثة » ، وسيطرة حالة من العجز والجمود على الموقف الثقافى الراهن ، وسيادة شعور بالدونية الثقافية فى مواجهة الثقافة الغربية ، وغياب الابداع الحقيقى فى كل مجالات الحياة العلمية والثقافية فى ظل نظام تعليمى يقوم على التلقين وفى ظل مناخ علمى لا يساعد على الابتكار •

وفى هذه الورقة لن أتعرض للمجالات التقليدية فى عملية احياء التراث ، واعتقد أن معظم الأوراق الأخرى ستعالج هذا الجانب المرتبط باحياء التراث الأدبى والعلمى • ولذلك تهتم هذه الورقة بتوجيه الأنظار الى بعض المجالات الجديدة والجديرة بالاهتمام فى عملية احياء التراث العربى وهى مجالات صعبة نسبيا وتتطلب تأهيل عدد من الدارسين المتخصصين الذين يستطيعون الدخول الى هذا المجال وخدمته وتتمثل هذه الصعوبة فى أن التراث العربى المراد احياؤه هنا ليس مكتوبا بالخط العربى ، كما أنه فى بعض الأحيان ليس مدونا فى اللغة العربية ، وقد نتج عن هذه الصعوبة اهمال شديد لهذا التراث بل وجهل به فى معظم الأحوال •

أولا : التراث العربى المكتوب بالخط العبرى :

لقد سادت فى العصر الوسيط ظاهرة نقل أعمال من التراث العربى العلمى والأدبى الى بعض الخطوط السامية الأخرى ومن أهمها الأعمال التى نقلت الى الخط العبرى بواسطة العلماء اليهود

والتي غطت تقريبا معظم مجالات الانتاج العربى على مستوى العلوم التجريبية والعلوم النظرية (ومن بينها علوم الدين والأدب والفلسفة والأخــــلاق) .

ويمثل هذا التراث العربى شريحة مهمة من الأعمال والكتابات اليهودية التى استخدم فيهـــا كتابها اليهود اللغة العربية المدونة بالخط العبرى ، فأصبحت هذه الأعمـــال متاحة للقارىء العربى اليهودى الذى يعرف الأبجدية العبرية ويســـتطيع قراءة العربية بالخط العبرى بينما حرم القارىء العربى من قراءة هذه الأعمال التى تنتمى الى تراثه العربى . ويحتاج الأمر الى ضرورة نقل هذه الأعمال العربية من الخط العبرى الى الخط العربى لاسترداد هذا التراث العربى المفقود بعد ان ظل قرونا بعيدا عن متنـــاول القـــارىء العـــــربى .

ويمكن تصنيف هذا النوع من الأعمال العربية المدونة بالخط العبرى الى نوعين :

١ ـ أعمال تتناول موضوعات عربية خالصة .

٢ ـ أعمال تتناول موضوعات يهودية خالصة .

وقد لجأ العلماء اليهود فى العصر الوسيط الى هذا الأسلوب فى نقل التراث العربى وذلك لاثراء الثقافة اليهودية بموضوعات من التراث العربى الذى نشـأوا فى بيئتـه وتأثروا به . ويمكن تصنيف الأعمال العربية المدونة بالخط العبرى الى ثلاثة أنواع : أعمال مؤلفة باللغة العربية ومدونة بالخط العبرى ، وأعمال منقولة من الخط العربى الى الخط العبرى ، والصنف الثالث يتكون من الأعمال العربية التى تمت ترجمتها الى اللغة العبرية . وهذه لها

قيمة علمية كبيرة وتظهر أهميتها فى انها فى بعض الأحيان ترجمة عبرية لأعمال من التراث العربي فقدت أصولها العربية وأصبحت لا توجد الا فى الترجمة العبرية والمثـال الكبير على هذا الترجمة العبرية لكتاب ابن رشد «« شرح جمهورية أفلاطون »» ٠

أما الأهمية الثانية فتبدو في ان هذه النصوص العربية المدونة بالخط العبرى هي بمثابة نسـخ أخرى للأصـل العربى المخطوط ويمكن اضافتها الى النسخ العربية الموجودة فعلا والاستفادة منها فى عملية تحقيق ونشر النص العربى الأصلى ، هذا بالاضافة الى فائدتها فى التعريف بتاريخ الأصل العربى بل وتاريخ النسـخ العربية الأخرى ، وتأثير الثقافة العربية فى الثقافة اليهودية ٠

أما الأعمال التي تتناول موضوعـات يهودية خالصـة فهذه تحسب ضمن التراث العربى لانها مكتوبة باللغة العربيـة رغـم استخدام الخط العبرى كما تحسب أيضا ضمن التراث اليهودي لان موضوعها يهودى وهذه الأعمال تنقسم أيضا الى قسمين : أعمال يهودية لها أصول عربية وتم نقلها بالخط العبرى مثل أعمال كبار علماء اليهود فى العصر الوسيط مثل سعديا الفيومى وموسى ابن ميمون وكثير من علماء القرائين والسامرة ، وهناك أعمال يهودية ليس لها أصول عربية وكتبت مباشرة بالخط العبرى ويغلب هذا الأمر على أعمال الفرق اليهودية مثل فرق القرائين والسامرة ٠

ويمكن في هذا الشـأن أيضـا توجيه الاهتمام الى الأعمال العربية التى ألفها يهود وفى موضوعات غير يهودية مثل الأعمال الأدبية والعلمية والفلسفية والأخلاقية ٠ وهذه تدخل فى التراث العربى لكونها مكتوبة باللغة العربية ولا تعالج موضوعات يهودية بل تتناول موضوعات فى التراث العربى العلمى والأدبى ٠

وتأتي في المرتبة الأخيرة الأعمال المكتوبة بالعربية وبالخط العربي ولكنها تعالج موضوعات يهودية : وهى على الرغم من يهودية موضوعاتها فانها تدخل في التراث العربي المدون بالعربية وتظهر أهميتها في الاستدلال على قدرة اللغة العربية على التعبير عن الموضوعات اليهودية الخاصة مثل الموضوعات الدينية المرتبطة بالتفسير اليهودي أو بالتشريعات والعبادات والشعائر والطقوس وغير ذلك من الموضوعات الدينية ، التى تجعلنا نحكم فى النهاية بأن اللغة العربية أصبحت لغة دينية لليهود في زمن ماتت فيه اللغة العبرية كلغة حديث وكتابة لدى جمهور اليهود فى العالم العربى في العصر الوسيط .

أولا : أهم الأعمال العربية المترجمة الى اللغة العبرية :

لجأنا لحذف الكثير من أمثلة الترجمة وفقا لحوار الدكتور محمد خليفه .

١ ــ ترجمات أبراهام بن عزرا (١١٤٠ ـ ١١٤٦) وهو يهودى أندلسى اشتغل بالترجمة من العربية الى العبرية : ومن أهم ترجماتـه :

ــ ثلاث رسائل فى النحو .

ــ رسالتان في التنجيم لما شاء الله .

ــ تعليق البيرونى على جداول الخوارزمى .

٢ ــ ترجمات أبراهام برهيا (١١٣٣ ــ ١١٥٠) يهودى أندلسى :

ــ رسالة فى الموسيقى من العربية الى العبرية .

٣ ـ جوزيف قمحى (١١٥٠) يهودى أندلسى :

ـ كتاب الهداية الى فرائض القلوب لبهيا بن يوسف (الأخلاق) .

٤ ـ يهوذا بن طبون (١١٥٠ ـ ١١٨٠) يهودى أندلسى :

ـ ترجم لسعديا بن يوسف الفيومى كتاب الأمانات والاعتقادات وغيرها .

٥ ـ ابن حسداى (١٢٢٥ ـ ١٢٤٠) يهودى أندلسى :

ـ ميزان العمل (للغزالى) رسالة فى الأخلاق وغيرها .

٦ ـ صموئيل بن طبون (حوالى ١٢٠٠) يهودى أندلسى :

ـ ترجم النص العربى للآثار العلوية لأرسطو ترجمة يحيى ابن البطريق .

ـ ثلاث رسائل صغيرة لابن رشد (من تلخيصاته الفلسفية) .

ـ دلالة الحائرين لموسى بن ميمون .

٧ ـ يعقوب أناتولى (١٢٣٠ ـ ١٢٥٠) يهودى فرنسى ، ترجم من العربية واللاتينية الى العبرية :

ـ تعليقات ابن رشد على ايساغوجى فورفوريس وعلى مقالات أرسطو .

٨ ــ سليمان بن أيوب يهودى أندلسى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) :

ــ كتاب الفرائض لموسى بن ميمون .

ــ الأرجوزة لابن سينا (فى الطب) .

٩ ــ شيم طرف بن اسحاق يهودى أندلسى :

ــ تلخيص ابن رشد (الوسيط) لكتاب الروح لأرسطو .

ــ كتاب التصريف (فى الطب) لأبى القاسم الزهراوى (١٢٥٨) .

١٠ ــ زراحيا جرشيان ــ يهودى أندلسى :

ــ ترجم لأرسطو من العربية الى العبرية : الطبيعة ، ما بعد الطبيعة ، السماء والعالم ــ الروح .

ــ تلخيص ابن رشد للطبيعة وما بعد الطبيعة والسماء لأرسطو .

١١ ــ موسى بن طبون (١٢٤٠ ــ ١٢٨٣) يهودى فرنسى ، ترجم من العربية الى العبرية :

تلخيصات ابن رشد لأرسطو :

١٢ ــ يعقوب بن ماهر بن طبون يهودى فرنسى ترجم من العربية الى العبرية :

ــ كتاب الكرة المتحركة (حركة الأجسام السماوية) لاسحاق بن حنين وقسطا بن لوقا .

ــ تلخيص ابن رشد لكتاب الحيوان لأرسطو .

١٣ ــ ناثان الهاميتى يهودى ايطالى ترجم من العربية الى العبرية :

ــ قانون ابن سينا ٠

ــ المنتخب فى علاج العين لعمار بن على الموصلى ٠

١٤ ــ صموئيل بن يعقوب يهودى ايطالى ترجم من العربيــة الى العبرية :

ــ ر سالة فى الأدوية لماسويه الماردينى ٠

١٥ ــ قالونيموس بن داود الأكبر يهودى فرنسى من النصف الأول من القرن الرابع عشر ترجم من العربية الى العبرية :

ــ تهافت التهافت لابن رشد ٠

١٦ ــ قالونيموس بن قالونيموس يهودى فرنسى ترجم من العربية الى العبرية :

ــ رسالة فى الكرة والأسطوانة لأرشميدس من النســخة العربية لقسطا بن لوقا ٠

١٧ ــ صموئيل يهودا المارسيلى ترجم من العربية الى العبرية من النصف الأول من القرن الرابع عشر :

ــ شرح ابن رشد لجمهورية أفلاطون ٠

ــ الجامع لابن رشد (أورجانون أرسطو) ٠

١٨ ــ تودروس التودروسى يهودى فرنسى ترجم من العربيــة الى العبرية :

ــ كتاب عيون المسائل للفارابى (فلسفة أرسطو) ٠

١٩ ـ سليما بونيراك يهودى ايطالى ترجم من العربية الى العبرية :
ـ بعض أعمال جالينوس المترجمة الى العربية بواسطة حنين ابن اسحاق .

٢٠ ـ سليمان بن باطر يهودى قشتالى ترجم من العربية الى العبرية:
ـ كتاب فى هيئة العالم لابن الهيثم .

٢١ ـ اسحاق بن ناثان القرطبى يهودى أندلسى ترجم من العربية الى العبرية :
ـ رسالة للغزالى فى مسائل سئل عنها .

٢٢ ـ سموأل بن سليمان الهامينى يهودى ايطالى ترجم من العربية الى العبرية :
ـ شرح جالينوس لكتاب الحماية من الأمراض الحادة من النسخة العربية لحنين بن اسحاق «« تفسير كتاب تدبير الأمراض الحادة »» .
ـ مصباح الشفاء لابن زهر .

٢٣ ـ يوسف بن يشوع اللورقى يهودى أندلسى ترجم من العربية الى العبرية (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) :
ـ مراجعة الترجمات العبرية السابقة لرسالة ابن ميمون فى المنطق .
ـ جزء من قانون ابن سينا .
ـ رسالة فى قوى وصفات الأطعمة والأدوية المفردة والمركبة (مفقود فى العربية) ليوسف بن يشوع اللورقى .

٢٤ ـ داود بن يعيش يهودى أندلسى :

ـ النسخة العربية من الرسالة الاغريقية فى تدبير المنزل (مفقود فى اليونانية) ٠

٢٥ ـ يهودا بن سليمان ناثان يهودى فرنسى ترجم من العربية الى العربية :

ـ كتاب الأدوية المفردة لأمية ابن أبى الصلت ٠

ـ مقاصد الفلاسفة للغزالى ٠

ـ كتاب الوساد لابن وافد ٠

٢٦ ـ صموئيل بن مطوط يهودى قشتالى :

ـ كتاب الحدائق لعبد الله بن محمد البطليوسى (مفقود فى العربية) ٠

ثانيا : الأعمال العربية المدونة بالحرف العبرى :

يشتمل هذا النوع بالتقريب على معظم المؤلفات اليهودية العربية التى حرص اليهود على نقلها الى الخط العبرى ٠ وتشتمل هذه المؤلفات على أعمال عربية كتبت أصلا بالحرف العبرى فأصبحت موجودة فى الخطين العربى والعبرى ٠

وهناك أعمال عربية لم تكتب أصلا بالحرف العربى بل كتبت مباشرة بالحرف العبرى ٠ ويجب أن نشير هنا الى أن اليهود حرصوا فى كل بلد عاشوا فيه على تطوير اسلوب للكتابة لا يعرفه الا اليهود فقط ٠ وهذا الاسلوب هو التأليف بلغة البلد الذى يعيشون فيه

مع تدوين هذه المؤلفات بالخط العبرى حتى لا يقرأها الا من يعرف هذا الخط • وقد نشأ عن هذه الظاهرة ما يسمى بالكتابة العربية اليهودية Arabic Judes والكتابة الفارسية اليهودية - uaes Persian وغير ذلك • وهو أشـبه بنظام سرى للكتابة يستخدم فى الموضوعات اليهودية الخالصة

وقد دونت بالكتابة العربية اليهودية كل أعمال كبار علماء اليهود من العصر الاسلامى أمثال سعديا الفيومى وموسى بن ميمون ويهودا اللاوى وأبراهام بن عزرا وسليمان بن جيبرول وغيرهم •

بقايا من الآداب العربية القديمة فى نصوص من الآداب السامية :

تشير بعض نصوص الآداب السامية القديمة الى أصول عربية وجدت طريقها الى الآداب السامية وأصبحت تكون عنصرا أساسيا فى بنية الأدب السامى القديم • وتشير هذه الآداب السامية الى وجود بقايا نصوص وآثار أدبية عربيـة قديمة تتطلب منا اعادة قراءة لهذه الآداب •

وهناك عدة نماذج أدبية تشير الى وقوع تأثير عربى مباشر ونأخـذ على هذا مثـالين واضحين ، الأول من أدب العراق القديـم ويتمثل فى ملحمة جلجامش الى تعكس تأثيرا عربيا بدويا صحراويا كبيرا على بيئة العراق الزراعية ، وتوضح الملحمة انتصـار القيم العربية البدوية على القيم الزراعية وتعكس فى نفس الوقت تغير مفهوم البطولة وتشير الى المسار التاريخى من البداوة الى الحضارة وكيفية دخول العرب البدو فى حضارة بلاد النهرين وعملية تكيفهم مع البيئة الجديدة وتكوين انسان جديد فى بلاد النهرين يجمع بين قيم البادية وقيم المدنية ويجمع بين الفطرة العربية والشكل الحضارى المعقد الذى تمثله البيئة الزراعية •

وتعتبر ملحمة جلجامش أثرا عربيا قديما يحدد طبيعة الشخصية العربية قبل وبعد اندماجها فى البيئة الزراعية . وقد اعتبرها نجيب محمد البهبيتى أقدم ملحمة عربية ووضع كتابا عنوانه « المعلقة العربية الاولى أو عند جذور التاريخ » واعتبرها ملحمة شعرية أو قصيدة عربية وأقدم معلقة عربية مطوع بتعميقها فى خزانة قصر الملك أشور بانيبعل ٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م وأن الشعر القديم كان قصصيا ويقارن المؤلف قصيدة جلجامش بقصيدة ابن العبد .

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فان كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى .

سفر ايوب فى العهد القديم :

تظهر الثقافة العربية واضحة فى قسم المكتوبات من العهد القديم والذى تعرف أسفاره عامة بأسفار الحكمة . ومن بين هذه الأسفار سفران يعكسان أصولا عربية قوية ، الأول سفر أيوب والثانى سفر الأمثال . وبالنسبة لسفر أيوب فقد اعترف بعض علماء العهد القديم بأن السفر يعكس خلفية عربية قوية وقد عرف جيزنيوس فى معجم العهد القديم أيوب بأنه عربى كما كتب المستشرق الفرد جيوم مقالا بعنوان الأصول العربية لسفر أيوب وكتب عالم العهد القديم هـ . فوستر مقالا بعنوان : هل سفر أيوب ترجمة عن أصل عربى ؟ كما أكد هذه الصلة المستشرق مرجوليوث فى كتابه عن « العلاقات بين العرب والاسرائيليين القدامى قبل

ظهور الاسلام » ، وكذلك المستشرق جيمس مونتجمرى فى كتابه بعنوان « الجزيرة العربية والكتاب المقدس » وتتفق هذه المصادر على ان سفر أيوب صياغة يهودية لقصة أيوب العربية وان هذه الصياغة تشتمل فى بنيتها على أصل عربى مفقود ، ويتطلب الأمر عقد دراسة أدبية نقدية تعزل المادة اليهودية عن المادة العربيه للوصول الى تصور أولى للقصة العربية ويؤكد على الأصل العربى المناخ العام للقصة والألفاظ ذات الأصول العربية ٠

سفر الأمثال :

يعكس سفر الأمثال كثيرا من الآثار العربيه وقد رد بعض نقاد العهد القديم الأجزاء الأخيرة منه الى أصول عربية حيث وردت أسماء عربية لها ما يقابلها فى نقوش عربية جنوبية وبخاصة النقوش المعينية مثل (مسا وأجور) من الاسماعيليين ٠ ومن الدراسات المهمة التى أثبتت الأصول العربية لسفر الأمثال دراسة سكوت عن سفرى الأمثال والجامعة ودراسة فيليب حتى عن تاريخ العرب ومونتجمرى عن الجزيرة العربية والكتاب المقدس ومن الدراسات العربية دراسة للدكتور عبد المجيد عابدين : الأمثال فى النثر العربى القديم مع مقارنتها بنظائرها فى الآداب السامية الأخرى ، ودراسة د٠ محمود المراغى : الصورة الأدبية بين أسفار المكتويات والأدب الجاهلى ٠

ومثل هذه النصوص الواردة فى العهد القديم انتقلت الى اليهودية من مصادرها العربية الشفوية وقام اليهود بتدوينها واضافتها الى العهد القديم بعد تهويدها وعبرنتها ٠ ومثل هذه المواد الأدبية أصولها اليهودية غير محسومة وقد واجهت صعوبات شديدة عند ضمها الى كتاب العهد القديم بسبب غرابة مادتها وخروجها على الطابع اليهودى العام للعهد القديم ٠

ومن خلال عمليات النقد الأدبى مثل النقد النصى والمصدرى يمكن استعادة هذه النصوص العربية بتخليصها من عناصرها اليهودية من خلال عملية نقدية أدبية تطبق على النص العبرى للوصول الى أقرب تصور ممكن للنص العربى الأصلى .

وقد نقلنا دراسة الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن كماهى لانها تلفت الانتباه لأمر هام جدير بالدراسة غير التقليدية التى اتبعناها حتى الآن فى دراسات التراث وهو أمر فى غاية الأهمية .

ويؤيده فى ذلك الشاعر العربى الكبير محمد التهامى بل ويدعو الى المزيد من الالتفات لأهمية التراث فى مواجهة ذلك الهجوم الشرس لحداثة الغرب يقول الشاعر العربى الكبير مصمد التهامى :

فلسفة التراث وكيفية التعامل معه

لا يخفى ان التراث الأدبى والثقافى والحضارى للأمم والشعوب عامة والأمة العربية خاصة هو صوت وجدانها وصدى حياتها والدليل على منطلقات فكرها ونتاج تعاملها مع الحياة وخلاصة تجاربها وفلسفتها وأطر سلوكياتها ومعالم منهجها الحضارى التاريخى على مدى الأيام .

ولهذا فهو الركيزة التى تقف عليها الشعوب المعاصرة التى يجب عليها أن تتحسب فى خطواتها الى المستقبل لتثبت على الجذور التى تحمل اليها عصارة الحياة بعناصرها الذاتية المميزة ، وتضيف اليها الجديد الطارىء الذى يزيد ازدهارها وتألقها ، وبذلك لا تهتز فتفقد معالم الذات الراسخة وتنقاد الى التبعية المطلقة ، التى تفقدها الهوية وتدفعها الى الضياع فى خضم الأمواج العاتية والذوبان فى غمار اجتياح الغير غريب السمات والملامح ، وتصبح ذرة ضائعة

تائهة الوجود مهضومة الحقوق فاقدة الملامح فى السيل الجارف المسمى بالعولمة .

ويزداد التصاق الشعوب المعاصرة بتراثها وتزيد قوة اعتزازها به كلما أدركت أبعاد هذا التراث وفهمت وقائعه وكشفت خوافيه ، وحينئذ يدفعها علمها الشامل به الى ادراك أسرار حياتها فيه وكيفية مدى تأثيره فى تشكيل هذه الحياة .

ومن أجل هذا وجبت محاولة دراسة التراث الأدبى والثقافى العربى من حيث منطلقاته وأسسه وأساليبه وفلسفته ومراميه ووسائله وغاياته ، بالمقابلة مع التراث الأجنبى الغربى ، فهما التراثان اللذان يخوضان الآن المعركة العارمة فى معركة العولمة .

فقد قام التراث الأدبى والثقافى العربى أساسا على الايمان بالمثل الأعلى والاتجاه الى تحقيقه سواء بالفطرة أو الاستجابة الى تعاليم الأديان ورسالة السماء ، ولا مناص هنا من الاشارة الى انه لحكمة عليا بالغة كان الشرق الأوسط العربى مهبط الرسالات السماوية الثلاثة ، ولهذا فالانسان فى هذا المحيط يتطلع الى المثل الأعلى المطلق فى الخير والحق والجمال ، الذى يشكله ايمانه وتهفو اليه أحلامه ويتصوره فكره ثم يصوغ خطوات حياته الأرضية الواقعية المعاشة ما أمكنه فى طريق تحقيق هذا المثل ، وهو فى هذا السبيل يستثمر كل ما يتيسر له من علم وفكر ومقدرة وامكانية وطاقة ويستعمل قواه الذاتية وكل ما يتاح له من عناصر البيئة الطبيعية (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) والبشرية (قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) ، وذلك لادراك الحلم فى مسيرة جناحاها الروح والمادة .

وفى مقابل هذا يقوم التراث الأجنبى الغربى على دراسة واقع الحياة المعاشة وأعمال الفكر والعقل والعلم فى العمل على تطويرها

وتقدمها فى محاولة تحقيق أقصى ما فيها من نفع وخير ورفاهية ، وهو فى هذا المجال يفتقد الجانب الروحي ونادرا ما ينجح فى الوصول اليه ، الى حد انه يلجأ أحيانا الى التكفير عما يظنه كما فعل صاحب جائزة نوبل للتكفير عن اختراع الديناميت ، والى حد أن تقول الاحصائيات ان أعلى نسبة فى الانتحار فى العالم هى فى الدولة الأكثر تقدما كالسويد والنرويج ، وهذه كلها ظواهر على فقدان الروح وطغيان المادة ، وقد قام التوازن فى القوة والخوف من تفجيرات الذرة بضمان السلام فى العالم بعد الحرب العالمية الثانية على أساس توازن القوى بين القطبين روسيا وأمريكا حتى انهارت روسيا أخيرا وسيطرة القوة الوحيدة فى أمريكا ، وانطلاقا من سيطرة القوة المادية وحدها وتراجع القيم الروحية ثم تراجع المؤسسات الدولية ومجلس الأمن أمام أمريكا التى تجسدت سيطرتها أخيرا فى العولمة ، التى تستهدف الغاء القوميات وفتح الأبواب للشركات العملاقة متعددة الجنسيات لتتخطى حدود الدول وتسيطر على العالم كله وتسخر كل الطاقات الطبيعية والبشرية فيه لخدمة هذه الشركات ومالكيها من أباطرة المال والنفوذ ضاربة بكل القيم الانسانية وحق الناس فى الحياة الكريمة فى أوطانهم عرض الحائط ، وبهذا يكون قد انتصر الشيطان وسيطرت المادة وتراجعت الروح وديست القيم .

وفى هذا النطاق الذى نتحدث عنه يتضح انه منذ القديم وحتى الآن تقوم المواجهات الساخنة حينا والهادئة أحيانا بين التراث الشرقى الذى يقوم على الجانب الروحي والجانب المادى على توازن بين الجانبين ، والتراث الغربى الذى يقوم أساسا على الجانب المادى وان كان يتغنى بالقيم ويسطرها حبرا على ورق من قبيل مبادىء الحرية والاخاء والمساواة للثورة الفرنسية ، والتى اهدرتها فرنسا فى تاريخها الاستعمارى الطويل الذى تبقى ظلاله حتى الآن

فى الفرانكفونية ، ومبادىء حقوق الانسان التى تتغنى بها أمريكا وتحرم منها الزنوج الأمريكان ، ومواثيق وقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة التى تمتهنها وتسخر منها اسرائيل وتكافئها الأمم المتحدة نفسـها بالغاء قرارها السـابق بعنصرية اسرائيـل ٠

وفى واحدة من أشهر هذه المواجهات التاريخية بين التراثين استطاع الشرقى بما فيه من قيم روحية ومبادىء ساميـة بقيادة صلاح الدين الأيوبى أن يصد هجمات الصليبيين الغربيين عن الشرق الأوسط ، وان يخلص القدس من أيديهم ، كما استطاع المصريون أن يجعلوهم عن ساحل مصر الشمالى ، وان يأسروا لويس ملك فرنسا فى المنصورة ثم يطلقوا سراحه حيا ٠

ولكن فى واحدة أخرى من أشهر المواجهات العاصفة استطاع التراث الغربى أن يطرد التراث الشرقى من شـبه جزيرة ايبريا أسبانيا والبرتطال فى معارك بربرية قادها الملك فرناندو والملكة ايزابلا ، وارتكب فيها من المذابح والابادات الجماعية ما لم يشهد له التاريخ مثيلا فى جميع عصوره ، حتى فنى العرب والمسلمون جميعا بالقتل أو الهجرة الى البلاد العربية والقليل الذى بقى اضطر الى اخفاء دينه والتظاهر باعتناق المسيحية فيمن سموا بالموريسليين حتى انتهت حياتهم ٠

ومن الغريب ان أحد الدارسين المنصفين من الأسبان أنفسهم يشيد بموقف التراث الشرقى فى قيمه ومبادئه وسماحته ومعاملاته الانسـانية ، حين ترك المسلمون المنتصرون اتبـاع أحد المذاهب المسيحية فى كنائسهم بطليطله Talido على ديانتهم وضمنوا حريتهم ، وهم يسمون موس ارابيس Mos Arabic فى حمل

هؤلاء المسيحيين على رفض الاشتراك فى جيوش فرناندو وايزابلا فى محاربة العرب المسلمين وطردهم والتنكيل بهم ، وما يزال اتباع هذه الطائفة موجودين حتى الآن ، ويتركنا هذا الباحث لنستلخص ان هذه الانتصارات والمعارك الهمجية الوحشية كانت سقطة من سقطات الانسانية وعارا على جبين البشرية على خلاف ما حدث فى انتصارات التراث الشرقى التى سبقت الاشارة اليها .

ثم توالت سيرة التاريخ وقد امتلك التراث الغربى زمام القوة المادية والتقدم العلمى التجريبى ، واستطاع احتلال واستعمار مناطق التراث الشرقى المقصود فى البحث ، واستمرت المواجهة والمقاومة والغلبة فيها للمستعمرين ، الذين طوروا الاستعمار من استعمار عسكرى الى استعمار اقتصادى وغزو ثقافى ، وبلغ مداه فى الاستعمار الاستيطانى حين استطاع المستعمرون من دهاقنة الغرب الأوربى والأمريكى غرس دولة اسرائيل فى قلب العالم العربى ، بمعارك ضارية طاحنة استخدمت فيها أبشع الوسائل العسكرية والارهابية والحيل السياسية وديست فيها القيم وضرب بالمبادىء والمواثيق والقرارات الدولية عرض الحائط ، وشهدت الانسانية عار مذابح دير ياسين وقانا والمسجد الابراهيمى، وضاعت أرواح مئات الآلاف من الضحايا العرب الفلسطينيين والمصريين ، وشرد شعب فلسطين وضاعت بلاده وتغيرت سماتها وأسماؤها ، وهجر اليها شذاذ الآفاق من الصهاينة من جميع بقاع العالم ، وقد أذيع أخيرا هذا الأسبوع ان المهجرين الروس بلغ عددهم المليون ، وما تزال رحى المعارك دائرة تصاحبها مهازل المفاوضات والمساومات بين قوى غير متكافئة ، وقد بلغ الأمر الى أن ترسم خريطة اسرائيل الكبرى من الفرات الى النيل على جدران الكنيسة وان يقيم السياسيون والقادة الصهاينة أمامها يمين الولاء ، وان تعد المخططات علانية وفى الخفاء لهدم المسجد الأقصى واقامة هيكل سليمان مكانه.

ولكن هل هذه هى نهاية العـالم ؟ أم ان المسيرة الحياتيـة ستواصل مشوارها وسيظل التراث الشرقى بكل قيمة وامكانياته الأقل حاليا فى مواجهة التراث الغربى بكل جموحه وامكانياته الأكثر نسبيا وهو مفتقر الى القيم ؟ فى الحقيقة اننا لا ندرى ماذا يخبئه المستقبل والتغيير وارد ولكن المهم أن نعلم أجيالنا دقائق مقومات تراثهم بكل مقوماته وسماته وتفاصيله ومرتكزاته وأهدافـه وان نوضح مواطن الالتقاء والاختلاف مع تراث الأمم الأخرى حتى تتم المواجهة عن بينة من الأمر وحتى تستطيع الثقافة العربية ان تثبت أقدامها وان تستفيد من غيرها دون أن تخضع له .

هذا من ناحية ماهيـة التراث الأدبى والثقافى والحضارى بشكل عام وضرورة الالمام الواعى به ، أما كيفية هذا الالمام من ناحية الابداع الأدبى وتاريخ الأدب فيجب الا يكتفى فيها بالتركيز فقط كما يحدث الآن فى دراسة الأدب على أساس تقسيمه الى عصور تاريخية متوالية ، والاحاطة بالمدارس الابداعية والفكرية المختلفة ، والوقوف عند الشخصيات البارزة هنا وهناك ، بل يجب أن يضاف الى هذا دراسة عميقة متأنية وواعية لأغراض الابداع الأدبى ودوافعه والقيم التى يؤمن بها ويروج لها على مختلف العصور للوقوف على خافيات أعماق وجدان الأمة وخصائصها المميزة لها .

فمثلا تدرس قيم الشجاعة والكرم والفخر والمروءة والانتماء والعصبية القبلية وكيفية تنـاولها على العصور المختلفة والثابت الدائم منها والمتغير الطارىء عليها وأثر ذلك على المد الحضـارى المنطلق ، وعلى سبيل المثال هل يمكن أن يخلص الدارسون الى أن العصر الذى تخف فيه نزعة العصبية القبلية العربية ويشارك العرب غيرهم تزدهر فيه الحضارة كما حدث فى العصر العباسى على خلاف العصر الجاهلى وصدر الاسلام والأموى ؟

ومثال آخر يمكن أن تقضى اليه الدراسة عندما تصل الى أن تراجع الجامعة العربيه وفشل الوحدة العربيـة وتخلف السوق العربيه المشتركة وحموت دعوة القومية العربية برغم اللغة العربية الواحدة والثقافة العربية الواحدة يرجع الى شيوع الايمان بالعصبية القبلية والحماس للفطرية المحدودة والرغبة فى التشتت حتى انه ليصبح غريبا جدا ان تنجح السوق الأوربية المشتركة ويقوم الاتحاد الأوربى وترفع الحدود وتتوحد العملة بين دول مختلفـة اللغات والثقافات ، وقد قامت بين بعضها والبعض الآخر كل الحروب الدولية والعالمية من الحروب النابليونية الى الحرب العالمية الأولى ثم الثانية ، بينما يفشل مجرد التعاون العربى حتى فى مواجهة الاستعمار الاستيطانى الذى يشد الأرض العربية من تحت أقدام العرب ويهددهم جميعا بالزوال وهم لا يستطيعون حتى الآن مجرد عقد مؤتمر قمة يتدبرون فيه أمورهـم !!!

اننا فى حاجة ماسة الى أمثال هذه الدراسات لتراثنا التى تكشف لنا أعماق ذاتنا حتى نعرف من نحن حقيقة ، لنعرف كيفية التعامل بين بعضنا والبعض ، ومع الآخر وفى مواجهته ، لعلنا نعرف ونشخص أمراضنا حتى نستطيع علاجها والخلاص منها .

التــوصيات

أولا : تشكيل هيئة متخصصة للتراث تكون مهمتها دراسة التراث الأدبي والثقافي والحضاري العربي من حيث منطلقاته وغاياته، والقوى الكامنة فيه ومصادرها ، ودوافع النمو الاستمرارية والمعاصرة لديه ، ومدى حيويته وصدق تعبيره عن خصائص الذات العربية ، والعلاقة بينه وبين التراث الأجنبي ·

ثانيا : تقوم هذه الهيئة بدراسة التراث على أساس القيم السائدة فيه، وجذورها التاريخية ومسيرتها على مدى العصور الحضارية في محاولة لتطويعها لخدمة الأجيال المعاصرة واستثمارها فى اللحاق بركب الحضارة العالمية المنطلقة ، وتعظيم مقدرتها على المساهمة الفعالة فى مجال التقدم العالمى المحموم ·

ثالثا : دراسة الابداعات الثقافية الأجنبية المعاصرة الأدبية والعلمية على أساس نقلها الى اللغة القومية الأم ، وليس الاقتصار على التعامل معها بلغاتها المختلفة ، مع تعظيم دور اللغة القومية ومضاعفة العناية بها كاطار لهويتنا ولحركتنا الذاتية الثقافية والحضارية المعاصرة ·

من خلال وجهة النظر التى طرحها كل من الأستاذين محمد خليفة ومحمد التهامى حول التراث يمكن الولوج بسرعة الى قضية

أخرى ، طرحت على أشكال مختلفة، وبمسميات تكاد تكون متعارضة، ومتنافرة لهذا سوف نقدم مجموعة الآراء التى تعكس الرغبة فى ما يمكن تسميته (العالمية) وقد اختلفنا فى الأساس فى تفسير (العالمية) ، ولهذا سوف نفرد لهذا البحث فصلا مستقلا ، وان كنا نقول وان اختلفت المسميات انه منذ فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل ونحن نتشدق حول العالمية ، وننادى بوجوب الدخول فى باب الأدب العالمى ، نضارب فى سوق تجارى ، نرايد فيه ، وسوف تظل العالمية هى نتاج المحلية المطلقة ، أما التأثير الاعلامى فهو أمر آخر يرجع لقوى غير أدبيـــة ، ولن ندخل دائرة اســتخدام المصطلحات المستحدثة للدلالة على اننا أيضا نساير العصر ، وسوف نجاهد لكى لا نستخدم مصطلحات غير ثابتة المدلول ٠

الفصـــل الثـــالث

الأصالة المعاصرة الحداثة العالمية

ندخل مباشرة فى المحاورة ، أو دوائر الحوار حول كل هذا لأن ما قيل فى هذه القضية يسير مع التيار ولا يقدم جديدا وكأننا لم نعد نجد الكلمات الدالة والصادقة على كل ما يجب قوله ، ونؤكد أننا حاولنا حفر الأوراق ، والبحث عن كل ما قيل ، ليس كله بالطبع ، انما كل ما استطعنا الحصول عليه ٠

وبالطبع فان الدراســـات حول التراث ما هى الا محاولة للدخول الى (صندوق الارث) الذى يخص الانسانية ، والحديث عن العالمية ، هو حديث عن مستقبل الانسانية ، والأدب هو معيار هذا التراث وأيضا مقياس المعاصرة ، ومكانة الأديب يمكن اعتبارها مقياسا اجتماعيا ، ودلالة هامة ٠

مكانة الأديب فى المجتمع المصرى :

تاريخيـــا :

فى مصر القديمة ، ومنذ الأسرة الرابعة وفى عهد مؤسسها الملك خوفو ، ارتفع الهرم الأكبر ومنه ارتفعت قيمة وأهمية الكاتب المصرى أو الحكيم المصرى كما كانوا يطلقون عليه فى عهد الأسرة القديمة ، وترجع أهمية الكاتب الى انه صاحب القول الحق أو

(الحكمة) وهو الذى كتب أعظم كتب الفلسفات الدينية منذ فجر التاريخ وهو (كتاب الموتى) حيث احتوى على فلسفة الحياة والموت والبحث ، ومن هذا الكتاب تفرعت مذاهب أدبية عديدة ، اتخذت بعضها شكل الحكايات والقصص والأشعار واتخذ البعض الآخر شكل الأقوال الحكيمة ، واهتم (الفرعون) الملك بكتاب مملكته لأنهم يؤدون له وظيفة الاعلام والتاريخ وأيضا قيادة جماهير الشعب، لهذا كرمهم (الملك الفرعون) وكان يبحث عن مواهب الكتاب فى كل الأقاليم ، وتشهد الموميات ان تلاميذ المدارس كانوا يتبارون حول من هو الأهم ٠٠ هل ضابط الجند أم (الكاتب الحكيم) ٠٠ بل بلغت أهمية الكاتب الحكيم مركزا أفضل من الأمراء والوزراء وأصحاب السلطة ٠

وظلت منزلة الأديب المصرى هكذا حتى غرقت مصر في بحر متلاطم من التدخل الأجنبى ، وهنا لجأ الشعب الى الأدباء ، واتخذ الأدباء من الفن الشعبى وكتاباته خندقا لحرب الأجنبى ، بل ان التاريخ يذكر لنا (أدباء) استطاعوا أن يهزوا عروش الفراعنة وإن يخلعوهم عن مقاعد الحكم ٠

ثم جاءت الفتوحات الاسلامية ، وجاءت معها اللغة العربية وآداب اللغة فاذا بمكانة الأديب فى مصر تحديدا تأخذ طابعا متميزا وفريدا ، فهم حكماء الأمة وملاذ العلم ومنائر الهداية ، ولا يمكننا فى هذه العجالة ان نسرد تاريخ الأدب العربى فى مصر ومدى قيادته للحركة الأدبية فى العالم العربى والاسلامى ٠٠ ويكفى القول ان العالم العربى كله فى أوائل القرن الماضى لم يكن به الا مجموعة نادرة من عمالقة الأدباء وجميعهم من مصر ٠٠ لطفى السيد ، أحمد شوقى ، أمين الخولى ، أحمد زكى (شيخ العروبة) ، البارودى ، طه حسين ، يحى حقى ، الحكيم ، عائشة عبد الرحمن ، تيمور وغيرهم قادوا حركة تجديد الأدب العربى فى الوطن العربى كله ،

ونالوا الدرجة الرفيعة . بل كرمتهم الدولة ، يكفي ان نذكر حادثة عزيز أباظة ، الذى نال الباشوية لا بصفته محافظا ولكن بصفته شاعرا وقد نالها وهو يفتتح مسرحية جديدة له ونالها طه حسين أيضـــا لمنزلته الأدبية ، بل ان عباس العقاد استطاع ان يتحدى الحكومة وأن يسهم فى ايجاد ما يمكن ان يسمى بالتبجيل الاجتماعى للأديب ٠

واذا أردنا استعراض مكانة الأديب فى العالم العربى ، سواء قبل الاسلام أو بعده فاننا سوف نرى بوضوح منزلته الاجتماعية بين القبائل وعند الأمراء والملوك بعد ذلك ٠

الحـــال الراهـــن :

ربما لاقتحـام الفن الدرامى التليفزيونى ســـاحة الحكايات وسحب البساط من تحت ارجل الكتابات الروائية والقصصية ، الأمر الذى أدى الى تراجع أهمية هذا الجانب فنحن مثلا عندما نقارن بين توزيع احدى الروايات فى الأربيعينات والخمسينات وبين توزيع مثلها فى الزمن الحاضر نرى فرقا شاسعا وانخفاضا مذهلا ، وقد صاحب هذا اهتزاز مكانة الأديب الروائى والقاص تبعا لذلك ٠

وأيضا ، قيام التليفزيون والصحف وأجهزة الاعلام الأخرى بدور الاعلام بل والتاريخ أيضا وقيادة الجماهير ٠٠ ساهم مساهمة كبيرة فى تقليل شأن (الأديب) الذى انزوى الى ركن مظلم ومجهول وكأنه لم يعد له أهميته وهذا أيضا ينطبق على الشعراء والنقاد ودارسى الأدب بوجه عام ٠

ومن خــلال (التوجهات التليفزيونية) قل شـــأن الكاتب والأديب ومعهما قل شأن الاهتمام باللغة العربية التى أصبحت الى

حد ما لغة مهجورة .. وتبع ذلك ان اندثر حلم الأطفال فى ان يكونوا أدباء ، والبرامج التليفزيونية أيضا توحى للمتفرج ان كل الأطفال يحلمون بأن يكونوا ضباطا أو أطباء أو نجوما فى السينما ، وهكذا تدور أحلام وآمال الأجيال الجديدة .. لا-ترى من يحلم بأن يصبح كاتبا فى المستقبل .

وانصراف أجهزة الاعلام عن الأدباء على وجه التحديد وعدم استضافتهم فى برامجها أو دعوتهم فى المناسبات القومية ، جعل الأديب يجلس على الهامش ، حتى انه لا يدعى فى الاحتفال السنوى بمعرض الكتاب ، الا قلة منهم وهم يحضرون بصـــفتهم الاعلامية لا بصفتهم الأدبية .

وهكذا .. ساهمت الأمية التى بلغت حدا مخيفا ، مع تهميش دور الأديب والمبدع فى استبعاد الأدباء والكتـــاب عن دور الريادة وساهمت أيضا مشـــاكل الكتاب الأدبى التى لم تحل مع الضـــائقة الاقتصادية عامة فى انزواء الأديب واضطراره الى العمل فى أعمال لا يجيدها وتعطل موهبته وتحول دون استمراره وتطوره الفنى .

وهناك العديد من الأسباب الســـياسية أيضا التى دفعت الأديب الى الخلف ، وخاصة فى أزمة التحولات السياسية ، وزاد الأمر سوءا ان انصرفت الأحزاب جميعها عن استقطاب الأدباء كما كان يحدث من قبل ، فكثير من الأدباء تربعوا على القمة بفضـــل أحزابهم ، ولكن الأحزاب الآن لا تهتم بالثقافة ولا بالأدباء ولا بالعلماء عـــامة ..

توصـــيات :

أولا : دعم ميزانية تفرغ الأدباء والفنانين بما يفي بتفرغ أكبر عدد ممكن مع رفع المكافأة الشهرية بحيث تتناسب وتكاليف الحياة حاليـا ٠

ثانيا : اعتبار اللقاء السنوى بالسيد رئيس الجمهورية عيدا خاصـــا بالكتاب والأدباء وان يتولى اتحاد الكتاب بصفته الممثل الشرعى لهم بدعوة الأدباء والكتاب جميعهم ويكرم فى هذا اللقاء أصحاب الجوائز فى افرع الأدب المختلفة ٠

ثالثا : العمل على رفع المكافآت المالية لتأليف الأعمال الابداعية سواء المنشورة على هيئة كتاب أو المنشورة فى الصحف والمجلات على ان توجه هذه التوصية الى المجلس الأعلى للصحافة وأيضـــا المجلس الأعلى للثقافة للاشراف على تنفيذها بحيث يصبح للأديب الحق فى مطالبة الناشر بحقه المادى والأدبى ٠

رابعا : العمل على ان تقوم هيئة الاستعلامات بالتعاون مع وزارة الخارجية والمجلس الأعلى للثقافة بايفاد أدباء الى العديد من الدول وتنظيم ذلك مع اتحاد الكتاب حتى يمكن للأديب المصرى ان يرى ما حوله وان يتأثر به ويؤثر فيه ٠

خامسا : تخصيص منتجعات للأدباء والكتاب فى المدن الجديدة والمدن الساحلية تؤجر بأجور زهيدة على ان تخصص نسبة مئوية فى كل من تلك المدن لهذا الغرض ٠

سادسا : العمل على اصـــدار تشريع يبيح للأديب بموجب عضويته لاتحاد الكتاب دخول دور العرض المسرحى والســـينمائى

والأوبرا والعروض الفنية الأخرى مجانا وان يحصل على تخفيض ٥٠ بالمائة فى كافة وسائل النقل والمواصلات البرية والجوية والبحرية ٠

سابعا : اعفاء الأدباء والكتاب من كافة أنواع الضرائب وتقديم اقرارات ضرائبية تشكل هما سنويا يعيشه بينما هؤلاء لم يحصلوا على شيء ٠

ثامنا : رعاية الأديب وأسرته صحيا على ان تكون له أولية العلاج والرعاية الصحية على نفقة الدولة ٠

تاسعا : حماية الأديب على أساس أن الدستور كفل له حرية التعبير وذلك بعدم التحقيق معه فى رأى أبداه أو فى مذهب يؤمن به ، لأن الحرية التى اعطاها له الدستور حجبتها العديد من الهيئات تحت اسم حماية الوطن ٠

عاشرا : العمل على تمثيل الأدباء فى لجان ومجالس الرقابة والصحافة والاذاعة والتليفزيون ولجان هيئة الاستعلامات وأجهزة الاعلام الأخرى ٠

ولكن الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى له وجهة نظر مختلفة الى حد ما ، ونعرضها هنا كما جاء فى بحثه ٠

الثقافة العربية الاسلامية كانت أوربا فى العصور الوسطى تأخذ عنها ، وتتعلم على يديها ، وتغرق من بحرها العظيم (١) ٠

---

(١) يقول م٠م٠ مات فى كتابه (تاثير الاسلام على أوربا الوسيطة : ان اغفال هذا التاثير على التراث الاوربى وتجاهله كليا ٠٠ ادعاء كاذب ٠

وكانت حركة الترجمة من العربية تغذى هذا التأثير ، كما كانت كراسى اللغة العربية فى جامعات أوربا تعمل عملها فى نفوذ الثقافة الاسلامية الى عقول الأوربيين .. وعوامل أخرى كثيرة وصلت بين العقل الأوربى والفكر العربى انذاك بصلات وثيقة ، من اتصال الغرب بالشرق فى التبادل التجارى ، وفى الحروب الصليبية ، وفى صقلية والأندلس ، وفى الحروب المتصلة ، الى مراكز الترجمة من العربية في طليطلة وغيرها فضلا عن تأثير المخطوطات العربية ومافيها من زاد ثقافى كبير .

والأدب يصاحب الثقافة اينما كانت .. وبسبب ذلك كله كان أدبنا العربى أدبا عالميا طيلة العصور الوسطى ، وحتى أوائل العصر الحـــديث .

والأدب الانجليزى الوســـيط ، وهو جزء من التراث الأدبى الأوربى ، مدين بالكثير من الأشكال الأدبية العربية ويؤكد ساندز فى كتابه « القصص الشـــعرية الانجليزية الوسيطة » تأثر أدب الرومانس بالعبقرية العربية وبالقصص العربية .

وقد تسربت قصائد الشعر وبعض الأشكال والموضوعات فى الأدب الأندلسى الى أدب أوربا الوسيطة .. وأصول الأدب الروائى الأوربى المعروف بزخارفه اللفظية والبديعية وبموضوعاته المتصلة بالأدب الساسانى ، أدب الاحتراف والكدية ، أو قل أدب المقامات العربية ، كلها تعود الى أصول عربية .

والعلاقة بين شعر الغزل العربى وشعر التروبادور البروفنسالى تتضح فى هذا التوافق فى الموضوعات والصور الأدبية ، وفى المفاهيم والعواطف وأشكال الوزن ، والتقنيات الشعرية ، وقد تحدث عنها طويلا فون غروشبيوم فى كتابه (اسهام العرب فى شعر التروبادور).

ويبرز أثر ابن زيدون وابن حزم فى (طوق الحمامة) واضحا فى الشعر الغنائى الأوربى ابتداء من منتصف القرن الثانى عشر وهو العصر الذهبى لشعراء الغناء ، كما انتشرت قصائد الزجل الأندلسية المعروفة عن ابن قزحان وأضرابه ، ووجدت طريقها الى الشعر الرومانسى الصافى ٠

وأثر المعرى فى دانتى فى (الكوميديا الالهية) وميلتون فى (الفردوس المفقود) مما أثبته العديد من الباحثين ٠

واذا كانت صلة الآداب الأوربية بابداع الأدباء العرب قد انقطعت فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل القرن العشرين فان صلتها بالتراث الأدبى العربى ظل موصولا غير مقطوع ٠

ومنذ القرن العشرين ، وبتأثير الصلات المتبادلة بين الشرق والغرب من شتى الطرق ، من الاستعمار الى التبادل السياسى والثقافى والاقتصادى ، الى الرحلات العلمية الى أوربا ، الى الترجمة لكثير من آثار المفكرين وأعلام الأدب فى الغرب أقوى الاحتكاك بين الأدب العربى والآداب الغربية ، فظهر أدب المقال ، وأدب الرواية والمسرحية والملحمة ، والشعر القصصى وأدبه الطفل ، والخيال العلمى وأدب القصة ، الخ فى أدبنا العربى ٠

وترجمت ألوان كثيرة من أدبنا الى اللغات الغربية ، مما أخذ يؤثر فى عودة انتقال أدبنا الى العالم ، وقرأ الغرب لطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهم ألوانا من أدبهم ٠٠ وأكدت نوبل محفوظ هذه الصلة القوية بين أدبنا والآداب العالمية ، ولاشك ان هيمنة أمريكا وأوربا السياسية والعلمية ، والأدبية ، اليوم ، مما يضاعف حركة التأثر والتأثير بين الأدب العربى والغربى ٠

واذا كان بعض أدبائنا يقفون اليوم مبهورين بالفكر الأدبى الغربى ، وبالنظريات الأدبيـــة والنقدية فى الآداب الأوربيـــة ، مما لانكاد نجد مثيلا لها في أدبنا ، فان ذلك لايقف أمام الثقة بجدارة أدبنا العربى ليصبح أدبا عالميا ٠

وأدبائنا مشغولون بالبنيوية ، التى صارت مذهبا قديما فى الغرب ، واذا كان سوسير وشتراوس وغيرهما من أعلام مدرســة البنيويين ينظرون الى لغة الأدب ، لا من منظور لغوى تاريخى ، ويرون ان الأدب كنتاج تكافىء بيتشكل من بنية اللغة ' ويقررون مبادىء نظريتهم البنيوية ، فان القاهر الجرجانى فى كتابيه (الأسرار والدلائل) كان أسبق منهم جميعا فى الكشف عن هذه العلاقات فى بنية الأدب ، وفى جوهر الفكرة فى الشعر ٠ واذا كان الغرب يقف بين نظريتين فى الأدب ودراسته ونقده، نظرية تعنى بالظروف المحيطة بالنص ، ونظرية تقف أمام النص ذاته (١) حتى ليؤكد اليـــوت الأمريكي الأصل والانجليزى الجنسية انه يجب ان نعنى عنـــاية شديدة بخصوصية النص ولغته ، فان نقادنا وأدباءنا القدامى كانوا دائما مع النص وأثر عبقرية الأديب فيه ٠

وعلى أدبائنا المعاصرين ان يغفلوا الطابع المحلى والشخصـــية الذاتية لابداعهم لأن ذلك جواز للمرور ببوابة الأدب العالمى ، ومن قبل قال مستشرق فرنسى كبير : اننا نقرأ أدب الجاحظ واضرابه له لذة كبيرة ، ولا نقـــرأ الأدب العربى الحـــديث لأنه بضـــاعتنا ردت الينـــا ٠

---

(١) يقول أحد نقـاد شكسبير : ان قيمة الشعر انما ترجع الى حسن نظامه الباطنى وليس الى مطابقته لحوادث تاريخية والمقياس الوحيد الذى يمكن ان يسأل الفنان عنه هو ان يعبر العمل الفنى عن ذاته . اى ان يكون متسقا من داخله ٠

وبعد ، فعسى ان تتأصل فى ثقافاتنا وابداعنا الأدبى العوامل التى تدعم مكانة أدبنا العربى وعالميته ومن أجل ذلك اقترح مايلى :

١ ـ ضرورة اهتمـــام أدبائنـــا بالتراث الأدبى العـــربى والافادة منـــه .

٢ ـ ضرورة اتساع ثقافة أدبائنـــا ، وأحاطتهـــم بالثقافة العربية أولا ، وبالثقافات العالمية ثانيا ، ليبدعوا أدبا يقبل عليه قراء من أنحاء العالم ، ولا غنى للأدباء عن الرحـــلات الأدبية الى مراكز الآداب العالمية .

٣ ـ الاهتمام بالكتاب الأدبى شكلا ومضمونا ، ليكون سفيرا لادبنا فى العالم مع فتح منافذ لتوزيعه فى الخارج .

٤ ـ اعادة فتح فرع القاهرة لنادى القلم الدولى .

٥ ـ اثراء حركة الترجمة من العربية واليها ، وقد قدم هنا فى الشعبة اقتراح بانشاء أكاديمية أو معهد للترجمة ، ونحن لنا تاريخ مضىء فى ذلك ، حيث قامت دار الحكمة فى بغـــداد فى عهد الرشيد ، ودار الحكمة فى القاهرة فى عهـد الحاكم بأمـــر الله ، كما قامت دار الحكمة فى القيروان وفى قرطبة .

٦ ـ عدم تجاهل دور الاعلام فى التعريف بأدبنا عن طريق الاذاعة والمجلات الثقافية والأدبية واتحادات الكتاب والمجامع اللغوية ووزارات الثقافة والجامعات العربية ، والمعاهد والمراكز العربيـــة والأدبية والثقافية فى الخارج .

بينما للأستاذ الدكتور مصطفى ماهر ، رأى آخر ، ورد فى دراسته التالية :

أدبنا العربى الحديث وقضايا العالمية والتحديث :

من المفيد فى البـــداية ان نحدد ما نقصـــده بأدبنا العربى وبالعالمية وبالتحديث وهى المفاهيم التى وردت فى عنوان الدراسة ، اما السؤال عن الأدب العربى من منظور العالمية فسؤال مركب يفتح أبواب المناقشة على سعتها ، ويتشعب الى العديد من الأسئلة ، التى ينبغى علينا ان نطرحها وان نعمل على ان تنتهى الاجابات عنها الى تحديدات نراها ضرورية • لايمكن ان ندرس الموضـــوع الا فى ضوئهـــا •

هل المقصـــود هو الأدب بمعناه الواسع • ما يسميه الألمان Literatur أى : كل ما عبر عنه الانسان المبدع بالكلمة المسموعة أو المكتوبة ؟ أم : الأدب بمعناه الجمالى ، ما يسميه الألمان Dichtung أو Belletrisik أى : مجموعة بعينها من هذا التراث الابداعى هى مجموعة النصوص التى تنطبع فى جوهرها وشـــكلها بطابع جمالى (استطيقى) ونعرفها بسماتها القصصية والتمثيلية والغنائية أو كما يقول البعض بسماتها الشعرية Poetizitat والتخيليـــة Fiktionalitat ؟ واذا أخذنا • على ســـبيل التبسيط • بالتحديد الثانى ، وركزنا اهتمامنا على الأدب العربى الذى ينطبع فى جوهره وشكله بطابع جمالى (استطيقى) فيه الشعرية وفيه التخيلية ، كان علينا ان نسأل عن المقصود بكلمة عربى • هل المقصود هو الأدب المكتوب بالعربية سواء كان الكاتب من أبناء الوطن العربى أم لم يكن ؟ أم هل المقصود هو الأدب العربى الذى يكتبـــه ابن من

أبناء العربية بغض النظر عن اللغة ؟ والأرجح أننا لن نضيق على أنفسنا وسنقبل بالتحديدين ، فنعتبر الأدب المكتوب بالعربية سواء كتبه عربي أو أجنبي أدبا عربيا ، وسنعتبر من الأدب العربيّ ما كتبه أبناء العربية بالانجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية والتركية .. الخ ، بل لن نجد غضاضة في أن نضم الى العربية ما ترجم اليها فانتقل من بيئته الأولى الى بيئته العربية . وسنسأل عن اللغة العربية ، وهل المقصود الفصحى أم اللهجات ، وسنجد أننا أيضا نقبل بالفصحى وغير الفصحى من دارج ولهجات ، وسنعتمد على اعتبارات عديدة ، سياسية ودينية في المقام الأول ، لنغلب الفصحى ، وسنسأل عن الزمان والمكان ، فنقبل بكل العصور وكل البلاد ، فأدب الجاهلية يندرج تحت العنوان المطروح مثله مثل الأدب المعاصر ، وما كتبه شعراء وأدباء المهجر العرب أو بالعربية ، وما كتبه من قبلهم العرب والمستعربون في بلدان الخلافة وغيرها أدب غربي شأنه شأن أدب العالم العربي بحدوده السياسية الحالية .

وسنأخذ بحلول توفيقية في تحديدنا المقصود ب (الحديث) ، فنبدأ بمطلع القرن العشرين مع (زينب) لهيكل ، أو شعر البارودي أو نتقدم الى عصر شوقي وحافظ ، أو الى بدايات طه حسين وتوفيق الحكيم ، أو الى بدايات نجيب محفوظ ويحي حقي ، أو نتحدث مثل الأوروبيين عن الفترة المعاصرة . ويدخل في هذا الأدب بطبيعة الحال الأدب المترجم الى العربية ، وقد رأينا بعض ترجمات محمد عثمان جلال تترجم الى الألمانية . من البديهي ، في رأيي ، ان العمل المترجم من آداب الأمم الأخرى الى العربية ينتمي الى الأدب العربي (نذكر مثلا « كليلة ودمنة » و « ورباعيات الخيام » وانسج على منوالهما) .

أما العالمية فنحن في أكثر الأحيان نستخدمها نقلا عن اللغات الأوروبية التي ترجمنا عنها وقد بدأ الهومانيون ـ أصحاب النزعة

الانسانية فى القرن الخامس عشر ثم السادس عشر يتحدثون عن ثقافية عالمية أى للبشر جميعا · وتصوروها بدأت فى مصر ، مهد الحضارة ، وانتقلت الى بلاد الاغريق ثم الى بلاد الرومان حتى وصلت اليهم وقد أضاف اليها العرب اضافات حاسمة عندما حملوا المشعل ثم تحدثت حركة التنوير الألمانية ـ ويمثلها ليسينج فى القرن الثامن عشر ـ عن تنوير البشر جميعا ، وألف ليسينج كتابه المعروف « تربية الجنس البشرى » وتلعب الفنون والآداب دورا أساسيا فى هذه التربية · وجاء من بعده مفكر مهم هو هردر فهم الانسانية على انها أسرة كبيرة وقارن مراحل تطورها بمراحل تقدم الفرد من الطفولة الى الصبا والشباب والنضج ، ورأى أن الشعر هو اللغة الأولى التى عبر بها الانسان عن أفكاره وأحاسيسه فى زمان الفطرة وبحث هردر عن آثار هذا الشعر القديم · واهتم بالشعر الشعبى أو الغناء الشعبى وتصوره تراثا للبشر جميعا يصدر عن نبع ابداعى واحد · ونجده على سبيل المثال يقرأ المعلقات وغيرها من الشعر العربى القديم فى ترجمات لاتينية ، ويترجم بعضا منها والمشهور انه أول من استخدم اطلاقة « الأدب العالمى Weltlitratur فى حديثه الى اكرمان فى مطلع عام ١٨٢٧ ، وكلمات جوته مهمة ، يقول : « أصبحت أرى على نحو متزايد ان الشعر ملك عام للبشر جميعا ، وانه فى العالم كله وفى كل العصور ينطق به مئات عديدة من البشر ·· لم يعد الأدب القومى يعنى اليوم الكثير فقد أتى عصر الأدب العالمى وعلى كل واحد منها ان يعمل على التعديل بحلول هذا العصر » ·

وأغلب الظن أننا لم نحدد لأنفسنا ما نقصده بالآداب العالمية ، وربما وقد اهتم المفكرون بهذه الجملة التى أرسلها جوته فى الناس ، وشرحوها شروحا مختلفة جديرة بأن تحفزنا على مزيد من التفكير ، ففهم البعض بكل بساطة ان هناك أدبا عالميا هو حاصل جمع الآداب القومية فى كل بقاع الأرض وفى كل الأزمنة ، وقلل البعض من

أهمية التصور الكمى ، وتصوروا الأدب العالمى منظومة من القيم نستخرجها من آثار كبار الشعراء التى تزخر بها الآداب القومية ، ونختار بناء عليها أدبا يتجاوز الحدود ويلقى تقدير الناس جميعا ، ثم ظهرت مقاييس أخرى منها انتقال آثار أدبية من وطنها وانتشارها فى العالم وتلقف الشعراء والأدباء لها وتفاعلهم معا ، ثم ظهرت بعد ذلك جوائز عالمية أهمها جائزة نوبل ثم جائزة فيصل ، تقوم على القول بأن هناك أعمالا فى مختلف آداب العالم تتناول القيم الانسانية أو تتشكل بأشكال يمكن أن تستمتع بها شرائح من المستمعين أو القراء وراء الحدود المحلية • وفرضت ظاهرة التلاقح بين الثقافات نفسها • وأصبح الأدباء والشعراء يبدعون فى اطار التوفيق بين المخزون والوارد والمصدر ، ويتجهون الى طبقات مختلفة من الجمهور ، الجمهور داخل الحدود والجمهور خارج الحدود واستقر فى عالم العلاقات الثقافية العالمية سعى صاحب اللغة الى تعليمها للآخرين ، وسعى الناس الى تعلم لغات غيرهم ، وسعى صاحب الأدب الى تعريف الآخرين به • وسعى الناس الى معرفة آدب الآخرين • وتكرر طرح السؤال عن الهوية القومية فى مواجهة الهوية الاقليمية والهوية العالمية •

وأدى التقارب بين الأمم ، وتبادل الخبرات ، الى اكتشاف ظاهرة التقدم والتأخر ، حقيقية كانت أو زائفة ، ووضعت لها معايير ، واتخذت مفاهيم الجديد والحديث والمختلف أبعادا عالمية نتيجة للمقارنة ، وأصبح على كل انسان ان يقيس نفسه بالآخرين وان يباريهم ، وهو ما انتهى الى ظهور اتجاهات مثل :

- النقل عمن ان نعتبرهم متقدمين بالقياس الينا •
- فهم ما لدى الآخرين والابداع على مستواه أو الظهور عليه •

– السعى الى تقديم اضافة الى الأدب العالمى .

– ادراك ضرورة وجود أرضية مشتركة وان نقدم الى الآخرين أعمالا أدبية تعبر عنا ويجدون فيها جديدا يجتذبهم ويفيدهم .

– الخوف من العالم وما يتبعه من ابتعاد أو نفور وتقوقع على الذات .

والأرجح ان فلاسفة الثقافة المجددين الأوائل عندنا ابتداء من رفاعة الطهطاوى كانت لديهم تصورات تقدمية انفتاحية على العالم واستمر هذا الخط الى يومنا هذا متعرجا حينا ومستقيما أحيانا . هكذا ترجمنا منذ نشأة مدرسة الألسن فى القرن الماضى آلاف الأعمال من الأدب الانجليزى والفرنسى والروسى والايطالى والألمانى ومن كتب النقد وعلوم الأدب وتاريخه . ومازلنا نترجم . وقرأ كثير من أدبائنا ومتأدبينا ونقادنا وعلمائنا ما شاء الله لهم ان يقرءوا من النصوص فى لغاتها الأصلية ، أو فى ترجمات الى ما يعرفون من لغات أجنبية ، وأثر ذلك كله على أدبنا فدخلته أجناس تطورت فى أوروبا الغربية خاصة مثل الرواية والقصة القصيرة والمسرحية بأشكالها المختلفة (الشعرية والنثرية والغنائية والتراجيدية والكوميدية ... الخ) وألوان من الشعر مثل الصوليت والابيجرامه والشعر الحر . بل حلا للبعض ان يقلدوا حركات أدبية مثل الكلاسيكية والرومانتيكية نشأت فى بيئات ثقافية مختلفة لأسباب وأهداف لا تتصل بواقعنا . وعلى الرغم من ذلك فقد خلق هذا التأثر ظروفا حفزت على التجديد فاغترف أحمد شوقى فى مسرحياته الشعرية من معين التراث المصرى القديم والتراث العربى بدلا من التراث الاغريقى الرومانى الذى اغترف منه الفرنسيون وبدلا من التراث الأوروبى المسيحى الذى اغترف منه الرومانتيكيون ، ولم يغلب العقل دائما كما فعل الكلاسيكيون ولم يغلب الوجدان كما

فعل الرومانتيكيون ، بل سلك سبيله الذى اصطنعه لنفسه جامعة بين القديم والجديد ٠

والتأمل المتأنى يبين لنا انه لم يكن هناك معنى لأن يتشبث البعض بالمسميات الأوروبية لحركات أدبية قامت فى بيئات غريبة فى ظروف خاصـــة بها مثل الكلاسيكية والرومانتيكية ومن قبلها الباروك والروكوكو وغيرها ٠ وليس هناك شـــك فى ان الاحتكاك بالثقـــافات الأخرى ، عن طريق الترجمة وغيرها ، حرك الميـــاه الساكنة ، وفتح المجال أمام ألوان من التجديد كان من بينها خلق أرضية مشتركة قوامها عناصر شكلية وعناصر مضمونية ٠ وانطلاقا من هذه الأرضية المشتركة أدرك الأدباء أن العمل الأدبى يمكن أن يرتفع عن المحلية ويتيح المتعة الجمالية لبشر من بيئات ثقافية بعيدة لم يكن المبدع يفكر فى توجيه خطابه اليهم ٠

ويقول الأستاذ الدكتور مصطفى ماهر :

ـ وعلينا فى حديثنا عن أدبنا أن نفكر فى بعض الأمور التى أراها ذات أهمية مبدئية ٠

ـ علينا ونحن نفكر في العالمية بشقيها ، اعنى الأخذ والعطاء ، ان نعمل على نشر أدبنا على المستوى القومى المحلي أولا ، ونمكن له ونجعل أهل اللغة أنفســـهم يفهمونه ويتذوقونه ويقدرونه ، فلا يصح ان نعرف الخارج بأدبنا ونحن لا نعرفه على نطاق واسع ، وهذه مهمة تقع على وزارتى التعليم ، ووزارة الثقافة والصحافة والاذاعة والتليفزيون ٠

ـ علينا ان ننشر اللغة العربية والثقافة فى العالم ، كما تنشر دول العالم القادرة لغاتها وثقافاتها ، فالنص الأدبى ، والشـــعرى

خاصة ، لا يتذوقه الانسان الا فى أصله ، النصوص لابد ان تكون موجودة فى المكتبات ومتاحة للقراء ولابد ان يكون اخراجها عصريا مناسبا لكل شريحة من شرائح القراء فى الداخل والخارج ٠

ـ لا غضاضة في ان يجرب المجددون عندنا قوالب جديدة وموضوعات جديدة وأفكارا جديدة ٠ ولكن من الضرورى المحافظة على استمرارية أنواع أدبية تعتبر بمثابة أركان الأدب العربى ، ومنها على سبيل المثال القصيدة العمودية ٠

ـ اللغة العربية ـ وبالتالى الأدب العربى ـ لها خاصية تميزها وهى أنها بقيت فى منظومتها الأساسية على مر الزمن ، حفزها القرآن الكريم ٠ ودخل عليها التطور الطبيعى ، واضافات متواضعة من جهود المجتهدين تحتاج الى تكثيف ونشر بايقاع يناسب العصر ٠ واذا كان قارىء الألمانية لا يستطيع التعامل مع نص من العصر الوسيط الا اذا درس لغة العصر الوسيط وهى لغة مختلفة الى حد كبير ، فان قارىء العربية لا يحتاج الى تعلم لغة أخرى عندما يقرأ النصوص القديمة ، ولا يحتاج الا الى معرفة بظروف كل نص ٠ ومعنى هذا أننا مطالبون بالحفاظ على استمرار هذه الأجناس الأدبية الخاصة بنا والمميزة لهويتنا ولست أفهم أن يحاول شاعر مثل روكرت الألماني نقل الشعر العربى ببحوره وقوافيه وبيانه وبديعه ٠ ونكون نحن أقل حرصا منه على بث الحياة فى تراثنا ٠ ونقول نفس الشىء بالنسبة الى المقامة التى رأينا الشاعر السويسرى المعاصر دورينمات يستخدمها ٠ ونتجاهلها نحن ٠ وأكرر أن المطلوب ليس منع المجددين من التجديد بل على العكس ينبغى تشجيعهم ٠ ولكن ليس على حساب تناسى التراث العظيم ٠

ـ الترجمة تلعب دورا هاما ، وعلينا ان نكون على بينة من ان النص الأدبى المترجم شىء ، والأصل شىء آخر ، المترجم يقدم

بلغته ما يفهمه ويحسه ، ولذلك فمن الممكن بل من الضرورى ترجمة النص الأدبى مرات ومرات • للترجمة انماطها ، وكثيرا ما يتحدث الناس عن نمط واحد من الترجمة هو الذى يعترفون به ، ويرفضون مثلا الأنماط الأخرى التى يفرض فيها المترجم ارادته أو تغلب فيها عبقريته ، يرفضونها أو يحقرون من شأنها • ويرجع السبب فى اتخاذ هذا الموقف الى ان أصحابه لا ينطلقون من الواقع ، واقع عالم الترجمة ، بل من مثال قد تكون له جذوره فى الواقع ، فهم لا يتصورون حالة تتلاشى فيها شخصية المترجم ، فيتقمص العمل الأصلى كما هو ، وتعمل موهبته الموضوعية بعيدا عن المؤثرات الذاتية ، فيخرج الى الناس عملا هو عمل المؤلف الأصلى ، اختلفت لغته ، ولم يتغير فى شكله ومضمونه وتأثيره • صحيح ان هذا المطلب ممكن الى حد بعيد فى نقل الوثائق والنصوص غير الأدبية ، ولكن واقع الترجمة يبين ان ترجمة طه حسين لفولتير تحمل طابع طه حسين أيضا وشيئا من ارادته وكثيرا من جماليات لغته العربية وأنها أحدثت وتحدث فى قرائها المختلفين عن قراء فولتير الفرنسى القديم البعيد أثرا من نوعية أخرى ، ومن هنا نقول ان الترجمة الأدبية ثمرة تفاعل ترجمى بين مبدعين اثنين : صاحب النص الأصلى وصاحب النص المترجم ، ونقول ان ثمرة التفاعل الترجمى هذه تخرج الى الناس على هيئة أنماط تختلف طولا وشكلا وأسلوبا ولغة ، ويفرض هذا الواقع علينا ان نأخذ بنظرية الأنماط المتعددة التى دعوت اليها ، والتى يبدأ الناقد بناء عليها بتحديد نمط الترجمة الذى اختاره المترجم ثم ينقد ويقيم فى حدود واضحة ، والترجمة طريق من العالمية واليها ما فى ذلك أدنى شك وعلينا ان نعرف كيف نتعامل مع آليات الترجمة فى عصرنا الحاضر •

ـ فاذا انتقلنا الى ترجمة أدبنا العربى المعاصر الى اللغات ذات الانتشار الواسع ، فلابد ان نسأل أنفسنا عمن يخطط ، وماذا يختار ، ولأى هدف • فقد يخطر ببالنا ان نقوم نحن بالتخطيط بناء

على رغبتنا فى أن يعرفنا الخارج بصورة معينة ايجابية ، ولهذا نختار الكتب التى نظهر فيها بهذه الصورة الايجابية ، ونختار المترجمين الذين نطمئن الى التزامهم بهذا الهدف ، ونحاول نشر هذه الكتب المترجمة فى الخارج ، وسرعان ما نتبين أننا على هذا النحو نريد استخدام الأدب للأهداف الذاتية والأفضل فى هذه الحالة ان نوزعها بالاهداء • اما اذا أردنا أن نصل بها الى الجمهور الحقيقى القارىء فسنتبين أنها بضاعة ليست لدينا آلياتها ، فنحن لا نملك فى الخارج مكتبات تجارية لتسويقها ، ولا نشارك فى مثل هذه المكتبات ، وليست لدينا قاعدة من النقاد والصحفيين للتعريف بها وادخالها الى السوق المستهدفة من المداخل الصحيحة بالوسائل الحديثة •

أما اذا تصورنا ان هناك بيئات ثقافية فى الخارج تحب ان تتواصل معنا ، وتحب ان تقرأ كل شىء قيم ، وان تعرف الحقيقة ، وان هذه البيئات الثقافية لا تقبل ان تفرض عليها وصاية من الخارج ، بل تحب ان تختار لنفسها • وهى ترحب بمن يعرفها بشكل صادق ومتوازن بما لدى الأمم الأخرى من أعمال أدبية ، من خلال قنواتها • هذه البيئات الثقافية فى الخارج تحب بل تحتاج للتواصل معنا ، ومن الضرورى ان نتعاون على خلق أو توسيع أرضية مشتركة بيننا ، ولكنها لن تحفل بما لدينا الا من خلال مفاهيمها هى ، والا اذا كان فيه جديد مختلف يغريها ، وقد لاحظنا مثلا ان صحيفة الموندو الأسبانية اعتبرت رواية « كفاح طيبة » لنجيب محفوظ أهم رواياته ، بل من أهم الروايات العالمية التى صدرت فى القرن العشرين ، والشائع عندنا ، بل فى رأى نجيب محفوظ نفسه ، ان هذه الرواية من أعماله المبكرة ، كما لاحظنا ان الألمان والفرنسيين والانجليز والأمريكيين يحتفون برواية « أولاد حارتنا » ويعتبرونها أعظم أعماله ، بينما تختلف بشأنها الآراء فى

مصير ، ولا يريد نجيب محفوظ نفسه ان ينشرها الا اذا رضى الأزهر عنهـــــا ٠

قضية ترجمة الأدب العربى الحديث الى الألمانية ليطالعه الألمانى قضية الألمان فى المقام الأول ، والأدب المترجم الى الألمانية يدخل فى الثقافة الألمانية وينقده النقاد الألمان ، ويقتبس منه من يقتبس هناك ، ويستلهمه الفنانون وغير الفنانين هناك (ونأخذ الألمان هنا مثلا ، ومن الممكن ان نقول نفس الشىء عن الفرنسيين والانجليز والايطاليين الخ) ونحن ينالنا من الخير نصيبنا ، فالألمان يقيمون حكمهم علينا ويعرفون هويتنا بناء على شىء له وجود ، وقد يرتفع بذلك قدرنا ، فيعظم نصيبنا من التراث العالمى ونحن علينا دور هو التعريف والعرض وشرح وجهة نظرنا ، واذا كانت الأمم الأخرى تعرفنا بلغاتها وأدابها بلغاتها ، فلنا ان نفيد من هذا المنهاج ، فنعلم نحن أيضا لغتنا ونعرف العالم بما لدينا من تراث قديم وحديث ٠ وسنجد بين مثقفى الأمم الأخرى من تخصصوا فى علومنا ، وسنجد من المفيد ان نتعاون معهم أوثق التعاون ، وما مثل دراسات المصريات فى العالم ببعيد ٠ فالعالم كله يقدر التراث المصرى القديم ويشارك فى الحفاظ عليه ودراسته ، ويعتبره أصل ثقافة العالم ، ولا عبرة بأن يكون هناك لصوص يسرقون الآثار ٠ أو أشباه علماء يحاولون تزييف الحقائق ٠

وقد ترجم القدماء أثـارا هندية مثل « كليلة ودمنة » وأثـارا فارســية مثـــل « الشاهنـــامة » والقصص التى تكونت منهـا « ألف ليلة وليلة » ومكنوا لهذه الأعمال من دخول بلدان الغـرب وتحقيق ألوان متباينة متفاوتة من الانتشار قبـــل ان تظهر مفاهيم « العالمية » ولا أظن ان أحدا يشك فى ان « العالمية » التى نتحدث عنها هى « عالمية » نسبية ، وعلماء العربية والمفسرين يقولون ان كلمة « كل » لا تعنى دائما « الكل » بل قد تعنى الكثرة والأهمية ،

وهكذا كان انتقال الأعمال أو المواد الفارسية أو الهندية الى البيئة الثقافية على أرض الخلافة ، أو تنويه المؤلفين العرب بها شهادة على العالميـــة ٠

ـ اذا لم يكن لأدبنـــا مذاقه الخاص وطابعـه الخاص فلن يحفل به الأجانب ، ولكن المهم ان تجد السمات الخاصة قبولا ٠

ـ الشاعر هو الذى يتصـــور جمهوره ، ولايمكن أن نفرض عليه الكتابة لجمهور محلي أو اقليمي أو عالمي ، بل قد يكتب الشاعر لنفسه ، وقد يكتب لجمهور صغير ، وقد يحس بأن لديه ما يقوله للعـالم كله ٠

ـ اشتراك العالم معنا فى الاستمتاع بأدبنا ودراسته يحقق أحيانا أشياء لم نكن نتوقعها ، فقد يكتشف الناس أو الناشرون فى بلد أجنبى نصـــا بعينه يعجبهم ويـــرون أنه أصبح معاصرا ، كما اكتشفنا نحن رواية « أوزونج » لهالبر وديوان « محمد » مداومر ٠ وكما اكتشفوا هم رباعيات الخيام ، أو قد يظهر فى بلد من بلاد العالم اتجاه أدبى أو فكري أو سياسي أو فني ينشيء طلبا على مواد بعينها ويجعـل لها قيمة فوق قيمتها التى تصـــورها المبـــدع الأصـــلى) ٠

والدكتور سعد ظلام له راى آخر

يقول الأستاذ الدكتور سعد ظلام العميد الأسبق لكلية اللغة العربية فى دراسة حول هذا المبحث ٠

الأدب فى أى أمة من الأمم أو أى شعب من الشعوب هو مظهر تطورها وعنوان نهضتها ، والأديب يمثل قيمة غالية بالنسبة اليها ٠

ولقد كان الأدب العربي وجها حضاريا للأمة العربية على الرغم من أميتها . والأديب العربي يمثل قيمة حضارية وانسانية وأدبية غالية . ولهذا كان مصدر الاعزاز والفخر منذ ان وعى العرب وأدركوا حياتهم وواقعهم ، حتى قبل ان تتحول حضارتهم من الشفوية الى الحضارة المدونة ، فكانوا لايهنىء بعضهم بعضا الا بنبوغ شاعر أو ميلاد فرس ، وكانت تعير القبيلة التي ليس فيها شاعر نابه .

وكانت كلمة شاعر تعني الثقة والنهضة والقيمة الحقيقية لأية قبيلة ، وكانت كلمته السائرة لها وزنها ولها قيمتها ، وربما غيرت المفاهيم والمقولات والمسلمات في هذا الواقع أو ذاك ، وما اخالنا نسينا الأعشى والمحلق ، وحسان وبني عبد المدان ، وحسان والنابغة في سوق عكاظ والأعشى أيضا وأبا سفيان عند منصرفه من عكاظ وتعرضه بالزيارة والمدح لرسول الله حسبما قبل .

كانت الأمة العربية أوعى بمكانة الأديب واحفل بمكانة الأدب ، وربما كان الصوت الشعري أسبق من السيف أو أصلت له ، أو أجلى للمعركة منه في قصائد عمر بن كلثوم أو الحارث بن حلزة اليشكري ، أو عبيد بن الأبرص أو لقيط بن يعمر الأيادي في قصيدته التي ينبه فيها قومه بزحف كسرى ، وربما كانت مقولة الشاعر معبرة عن الوجدان الجماعي للقبيلة ومجلية لرأيها في مختلف المعارك الجاهلية كما في قصائد الأعشى في ذي الجاجم والحنو وغيرها .

ومنذ جاء الاسلام لم تهتز مكانة الأدب ولا الأديب ، فقد ظل الشاعر معبرا عن ضمير هذا الدين فكان لسانه وسيفه وتعبيره الممتلىء بالشدو المطمئن بالاسلام الحامي له ، المدافع عن الواثق به ،

كما هو الحال فى الفيلق الشعرى الذى دافع عن الاسلام ورسول الله وأعراض المسلمين من حملة قريش الشعرية الظالمة ٠

وان كان الشاعر والشعر قد اتجها وجهة اسلامية تتغيا القيم والمثل الرفيعة وتجندها وتدافع عنهما ، وكان من الضرورى ان يكون ذلك حتى يكون الشعر تعبيرا عن الوجدان المسلم المستيقظ الراكض وراء النور المغترف من نبع الهداية والشريعة مقيد بالرسول الذى استهدف له مثلا عليا تتجه به نحو رسالة السامية ٠ وقد وجه الرسول شاعر القبيلة الى ان يكون شـــاعر الأمة فنسخ قيم الجاهلية لقيم اسلامية وأحدث حركة تحول كبرى كان لها صداها الذى لاينكر فى تأكيد قيم الآسلام ومثله واتجاهه ومبادئه ٠

ولقد ظل للشاعر فى الاسلام حيثياته ومكانته ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعذب الشعر ويعطى الشعراء ــ وربما لم يجد مايناسب جمال القصيدة وروعتها ألا ان يخلع بردته على صاحب القصيدة ، وربما دعا له وأكد على استحسانه لشعره ، بل ربما سأل وفد الشاعر حين يجيئه مسلما عن الشاعر وشعره ــ كما حدث عندما سأل وفد مزينه عن أموال حرم ، ولما أجابوا بأنها فنيت ، قال عليه الصلاة والسلام : أما شعر زهير فى حرم فانه لايفنى ٠

وزامل الشاعر المسلم مسيرة الحياة الاسلامية فى كل مظاهرها وتحدياتها ورافقها صعودا أو هبوطا ، وكان الخطيب مع الشاعر والكاتب يمثلون عصب الحضارة الاسلامية فى أروع تجلياتها ، فكان من هؤلاء الأدباء كتاب الدولة والوزراء والقدماء ٠ وكانوا يشكلون واجهة للدولة فى عنفوان مجدها وسموها ، فكان ابن المقفع وابن العميد والقاضى الفاضل اقلاما أدبية تمثل وجهة نظر الدولة والخليفة فى أغلب التصرفات والأزمات ٠ كما كان ابن زيدون

وابن جهور وابن خفاجه ، ولســــان الدين ابن الخطيب على نفس التميز والمكانة في الدولة وعلى قدم المساواة والندية من شعراء فى المشرق والمغرب كأبى تمام والبحترى وأبى الطيب وأبى العــــلاء وغيرهم وغيرهم ٠

لم تنضب ساحة الأدب ولا نقصت مكانة الأدباء فى عصر من العصور ، حتى فيما نسميه بعصـــــور الانحطاط ، كانوا قرة عين الدولة والأمة ولسان الشعوب وضمائرها ، يعبرون عنهـــا تعبيرا ينسجم مع مواقفها ويعالج أحوالها ويتغيا مصالحها العليا ، ويرودها الى مطالع النجم ومعارج النهوض فى سمواته وخطراته ٠

هكذا كان رجال الأدباء فى كل مسيرة الأمة العربية الاسلامية على امتداد أعصارها وأمصارها وهى والحمد لله مسيرة غنية ثرية ، تستحق الاشادة والتكريم ، وبحق كان الأدباء هم الجسر الحضارى الذى عبرت عليه الأمة فى مضايق الأمور واتســـــاعاتها وكانوا ، أو أغلبهم والحق يقال عند حسن ظن أمتهم بهم لا يفتأون يعملون من أجل رقيها واسعادها ، وكانت الأمة على نفس القدر من الاهتمام بهم ترعاهم وتقدمهـــــم وتفخر بهـــــم ، وتضعهم فى المكان الذى يستحقونه ، وتقدم لهم وتقربهم ، وذاكرة التاريخ الأولى مازالت حافظة لما كان يقوم به بعض الخلفاء لتقدير أعمال الأدباء ، فقد كان الجزء من كتاب الأغانى يوزن ذهبا وكانت الترجمة فى عهد المأمون تقدر بهذا القدر ٠

ولقد قامت النهضة الحديثة على أعمدة من الأدباء مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ، كما قامت الثــــورة العرابية على ما رفده محمود سامى البارودى والنديم من شعر حماسى معبر ، وكانت النهضة مدينة كذلك لمجهودات الامام محمد عبده وحافظ ابراهيم

وأحمد لطفي السيد ومحمـــد حسين هيكل وجاويش والعقـــاد وطه حسين والزيات والخولى وزكي مبارك وشكرى والمازن والرافعي والحكيم وأحمد أمين وغيرهم .

لقد كانوا دعائم نهضة حقيقية وواجهة لحركة غيور حاولوا من خلالها ان يعوضوا فترة الخمول ، ويتجاوزوها وتقدموا يسابقون الآداب الأخرى في مختلف مجالات الأدب وأجناسه ، من حيث الشعر والنقد والقصـــة والرواية والمسرحيه والمقالة الصـحفية والأدبية والفلسفية والاجتماعية والسياسية ، ثم كانت الجامعات بما تمثله من قيمة علمية وأدبية وركيزة حضارية وبمـــا لها من دور في التبشير والدعم للأدب بتقديم الأساتذة الذين يرعون الأدب ويقومونه ويبشرون بأدباء جدد وقيم أدبية جديدة .

وكانت الأجهزة الأخـــرى كالاذاعتين المسموعة والمرئيـة والصحف والمجلات ودور النشر تمثل أشرعة تعبر بها النهضة الأدباء بمهارة بحارين قادرين وأدباء موهوبين حتى استقرت النهضة الأدبية على دعائم قوية .

غير انه لوحظ في الفترة الأخيرة تراجع الأجناس الأدبية غير الرواية والقصة ، ربمـــا لانصراف التليفزيون والاذاعة اليهما ، مما أهمل الأجناس الأخرى ، وقد سيطر على الجو الأدبي جماعات معينة أصبح مايمـــكن ان تطلق عليهـــا الثللية أو (الشللية) وأهملت الصحف دور الأدب في تحريك الحياة وتجميلهـا بسبب زواج الاعلانات وما تقدمه للصحيفة من دعم مأدى ، وقد تأخـــرت الأغنية الشعرية الفصيحة . ويبدو أنه انتهى مجالها فلم يعدلها وجود ، وقد كانت تمثل اهتماما خاصة بالأدب والأديب وتوجيـــه الذوق العام ولغة الجمهور ، كمـــا لوحظ انصراف الجمهـور عن

الكتاب الأدبى أو الكتـــاب النقدى الجاد ، وقام على أكثر الأجهزة الصحفية والاعلامية والاذاعية وجوه غير أدبيـــة تنظر الى الرواج المادى أكثر من الرواج الأدبى مما أثر سلبيـــا على الأدب والأديب ولم تكن تلك الأجهزة السبب فى تأخر الأدب أو مكانة الأديب ، وانما كان التوجه السياسى للقائمين عليها ، أو احتفالهم بالجانب المادى والتعويل عليـه أكبر من رعايتهـــم واهتمامهـــم بالأدب وجماليـــاته ٠

والسياسة قد تفرض أحيانا مناخا أدبيـــا معينا وتوجه الى أدب معين مما يؤثر تأثيرا مباشرا على المناخ الأدبى ويجهله ويفقده قمتـــه ٠

كذلك جعل القائمون على تلك الأجهزة الاعلامية بالألوان الفنية الأخرى ولا نلومهم فى هذا بقدر ما رأينـا اكتشاف مواهب معينة فى الغناء والموسيقى والرقص والرسم والنحت والتصوير ، لم نجد نفس الاهتمام باكتشاف مواهب أدبية ٠ وبقدر ما أغدقت الدولة على الفنانين فى مختلف توجهاتهـــم الفنية من التميز المادى والمكانة بقدر ماتناست الأدب وتجاهلت الأدباء ٠

وبقدر ما توسعت فى رصد المكافآت والجوائز واقامة المهرجانات والاحتفالات على المســتويات الكبرى للســـينمائيين والمسرحيين والموسيقيين بقدر ما تضاءلت جوائز الأدباء وتدخلت فيها النوازع والمحاباة حتى انها لاتعطى للأدباء الحقيقيين ولاتقدمهم وانما تتجه الى المقربين أو ذوى الميول السياسى المعين ٠ فهى تعطى لغير مستحقين أو تقدم متأخرا ٠ وتعطى الحيثية لمن لايستحقها وبقدر ما توسعت هذه الأجهزة فى مكافآت الفنانين وأجورهم على اختـــلاف مواهبهم وفنونهم ، بقدر ما ضيقت على الأدبـــاء والمبدعين فى أجناس الأدب

المختلفة حتى ان ما ينشره الأدباء أو ما تسمح الصحف والمجلات بنشره لايتقاضى الأديب عنه أجرا أو مكافأة . بل انه يبذل ماء وجهه من أجل ان يسمح بنشر هذا العمل أو ذاك . وفى الوقت الذى سمحت فيه الدولة بتخفيض الضرائب عن الفنانين نرى الأديب تثقل كاهله الضرائب وبينما الفنان يحظى بمكافآت سخية عن أدائه فى العمل الفنى ، نجد صاحب العمل الأدبى نفسه لايتقاضى عشر مايتقضاه الفنان عن حلقة واحدة منها .. بل انه لايحصل على مكافأة مادية فى كثير من الأحيان .

ونرى أجهزة الاعلام المختلفة تقدم صغار الأدباء وتهمل الاقلام الكبيرة ، حتى لاتتورط فى أجر كبير أو تقع فى مساءلة مسئول كبير ، لأن هذه الاقلام تمثل وجهة نظر معينة أو تقف موقفا معينا أو ان الدولة لها موقف معين منها .

ويلخص الأستاذ الدكتور سعد ظلام رأيه فيما يلى :

العودة الى القصيدة الشعرية فى مجال الأغنية ترقية للذوق واهتماما بالشعر واحتراما لقيم الأدب وجمالياته .

تمثيل الأدباء فى مختلف اللجان ومجالس الصحافة والاذاعة والتليفزيون وهيئة الاستعلامات وان تنشأ ادارة ثقافية مهمتها تقديم الأدب الجيد فى مختلف العصور التراثية والمعاصرة والتعريف بأصحابها وتقديمهم والتعرض بالنقد لاعمالهم .

النظر فى تحكيم جوائز الدولة بصورته الحالية .

والنظر فى رفع قيمتها فى التقديرية والتشجيعة حتى نتكافأ مع مكانة مصر ، ومع الظروف المعاصرة وتكون حافزا على الاجادة والتبريز .

انشاء ادارات أدبية فى الصـــحف والمجلات غير المتخصصة والمتخصصـــة مهمتها نشر الأدب الذى يستحق النشر ، بعيدا عن المحاباة والشللية .

العناية باللغة العربية منهجا وتدريسا وكتابا ومدرســـا وامتحانا ونتيجة ودرجة . والرجوع الى نظـــام الامتحان السابق الذى يجعل كل حقل من حقول اللغة العربية مادة مســتقلة ذات نجاح ورسوب بدلا من نظام المجموعات المعمول به حاليا وان تعود درجـــة النجاح الى ٦٠٪ على الأقل كما كانت لأن مايحدث الآن فى وزارة التعليم سوف يترتب عليه قصور كبير فى اللغة القومية .

اعتبار اللقاء السنوى بالسيد رئيس الجمهورية عيدا للأدباء والكتاب يكرمون فيه على مجموع نتاجهم السنوى وتمنح فيه الجوائز للفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية .

ونحن لن نختلف مع الأستاذين مصطفى ماهر وسعد ظلام ولكل منهما رأيه وله وجاهته الا أنا نرى رأيا ثالثا يمكن تلخيصه فيما يلى :

ونحن نقول فى المبحث :

اذا تصفحنا تاريخ القصة ، منذ أول فجر التاريخ ، فسنرى انها فى الأساس لها دلالة أخبارية ، تفيد العلم والاعلام والتربية ، لهذا كانت القصة وثيقة الصلة بمجتمعها .

ولو تصفحنا قصص المصريين القدماء التى استطعنا الوصول اليها من خلال ترجمة البرديات ، لرأينا عجبا ، فالأدب القصصى فى

مصر القديمة ، تغير بتغير نظم الحكم ، وأيضا بتغير المجتمع المصرى القديم ، وكمثال لهذا : نرى فى قصة (البجع) التى تتحدث عن ضيق الملك المستقر الموجود فى عين شمس من أصوات البجع العائم فى بحيرة معبد الكرنك بالأقصر ، ويتحدث عن نوعية من الملوك ، ملك ظالم مستعمر يحاول استثارة ملك البلاد البعيد فى أقصى الصعيد وذلك بالحديث عن أصوات لا تكاد تصل الى نهاية المعبد ذاته ، وملك وطنى يستجمع شجاعة شعبه لكى يخلص بلاده من الاستعمار ، والقصة تصح لان تحكى فى كل البلاد وفى كل العصور وقابلة للتشكل ، فالاستعمار واحد ، والملك الظالم لا يتغير من عصر لعصر ، ولكن تظل القصة مصرية الأصل والمنبع والمذاق ، تحتفظ لنفسها بذلك السحر المصرى القديم ، ولانه من المؤكد ان كاتب تلك القصة الذى لم يعد معروفا ، كان ابن الشعب ، يسخر من ملك ظالم ويستحث الشعب الذى نام عن حرب الأعداء ، ان تلك القصة مهما اختلفنا حولها ستظل مصرية المنبع ، دالة على تاريخ حدوثها٠٠ ومع هذا فهى عالمية ، ولو مضينا بعد ذلك فى تاريخ القصة المصرية القديمة لرأينا عجبا ، فعندما اختلفت الملكة حتشبسوت مع أخيها ، اضطربت الدولة واضطرب معها الأدب المصرى ، ونرى أن الأدب انقسم الى قسمين : الأول مع الحكومة ، فالقصة أصبحت ذات دلالة اعلامية محلية اندثرت واختفت مع مرور الوقت ، والقسم الثانى يعد من الأدب الســاخر ، ظهر مكتوبا على الجهة الرابعــة الخلفية من أعمدة المعابد (الرباعية الطراز) فى ذلك الوقت ، هذا الأدب الساخر ، ظهر مع ظهور (شجار الأسرة المالكة) ثم ظهر ثانية فى عهد الأسرات المتأخرة والتى صاحبت شحوب القوة المصرية ، ورغم هذا فان هذا الأدب الساخر هو الذى عاش وبقى ، ويمكن أن يظل باقيا ، لانه يعبر عن الانسان ٠٠ عن روح الانسان محتويا كل عصوره ٠

ومقارنة الأدب المصرى القديم بآداب المنطقة الأسيوية مثلا ، نجد أن الفترات التى حظى فيها الادب المصرى القديم باهتمام كتاب كبار مثل (ايبى – آوز) حكيم زمانه فى العصر الوسيط ، كانت فترات ثرية حققت لأدبها القصصى العالمية ، وأيضا الفترات التى تفككت فيها الروابط التقليدية بين الكهنة والأسرة الحاكمة ، أو فترات ثورة الشعب ، حظى أيضا فيها الأدب بكثير من الحرية التى جعلته ينطلق الى آفاق أرحب ، وهذا ما يميز الأدب المصرى القديم عن مثيله من الأدب القصصى فى مناطق أسيوية كثيرة ، بحيث نرى ان الكثير من القصص الأسيوى ينطق بمحليته ويصعب فهمه بعيدا عن منطقته ، ونحن يمكننا التفريق بين مجموعة قصص من ولاية معينة فى الهند عن مثيلتها فى ولاية أخرى ، وهنا تصبح (المحلية) هى المعنى والهدف، فالقصة قائمة على معارف تلك الولاية ولا تتحدث الا عن همومها ، ربما يسخر من تلك الهموم مجتمع آخر ، وهذا غير موجود فى الأدب المصرى القديم ٠

انني أحاول استقراء تاريخ القصـــة ، دون حشو دراستى بمجموعة من المراجع ، وأيضا بعيدا عن ذكر آلاف الأسماء لعلماء حاولوا دراسة هذا الأمر معتقدا فى النهاية اننا أمام هدف تحليلى يمكننا الوصول اليه بالنظر الى ما حدث بعين جديدة ورؤيا جديدة ، ان نقل ما سبق ان قيل من قبل لن يفيدنا كثيرا ، وما يهمنا هنا هو الوصول الى (سر العالمية) وهل نحن فى حاجة اليها أم لا ، وهل لها مواصفات خاصة أم لا ، لهذا رأيت استعراض تاريخ القصة المصرية القديمة التى تغبر عن فترة طويلة ، وتكاد تكون مجهولة لكثير من الدارسين ، وأعتقد انه آن الآوان لدراسة فن القصة فى مصر القديمة ٠

نخلص من هذا الى أن عالمية القصة ليس لها الا شرط واحد ، وهذا الشرط لا يتغير بتغير العصور ، الا وهو (وحدة الآلام والآمال

الانسانية) أو بمعنى أكثر وضوحا ٠٠ ان الانسان فى كل زمان رهين مخاوف انسانية تؤرقه ، ويشده فى نفس الوقت أمل فى النجاة ، وخلال هذا الجذب والشد تدور تروس العقل الانسانى باحثة عن وسائل الدفاع ضد ما يؤرق الانسان ، باحثة أيضا عن وسائل النجاة ٠

والأدب القصصى عندما يعبر عن ذلك فانه انما يعبر عن الانسان فى كل عصوره ، وان اختلف كل عصر عن مثيله فى بعض الظواهر التى لا قيمة لها ، والقصة ، شأنها فى ذلك شأن كل نتاج عقلى ، تنطلق من عقل مفكر ، له دراية واضحة وموهبة ابداعية أصيلة ، وان لم يكن قد تعلم عن طريق المدارس والجامعات ، فلهذا للعقل الملهم قرون استشعار تجعله ينحت الصخر من أجل الوصول الى المعرفة ٠

والقصة المصرية الحديثة ، لم تكن وليدة احتكاك الحضارتين وجنسيه ، كما يتوهم البعض ، ولم تكن حديثة النشأة كما يدعون ، انما هى أصيلة أصالة موليها المصرى القديم ، أصيلة أصالة لغتها العربية التى عرفت من قبل فنون الأدب ، وان اختلفت المسميات ، وان كان (المناخ الاستعمارى) طويل الأمد هو الذى دفعها الى الاختفاء والتحول الى الأدب الشفاهى ، كما ظهرت فى أشكال أدبية أخرى ، ولكن ما ان وجدت المناخ الثقافى الذى أحياها حتى نهضت مرة أخرى ، وربما يرجع الفضل فى ذلك للتيار الوطنى الذى صاحب ثورة ١٩ ، وأيضا اشتغل كبار الكتاب بفن القصة مثل هيكل وطه حسين والحكيم وأيضا العقاد ، واندفعت القصة المصرية الحديثة على أيدى شباب تلك الثورة الى آفاق أرحب ٠ ونحن نرى ان أمثال يوسف جوهر وسعد مكاوى وعادل كامل ومحمود البدوى ويوسف السباعى وعبد الحليم عبد الله وغيرهم كان لهم دور هام

فى تطوير وانماء الحركة القصصية ، ولهم الكثير من القصص التي تعد من قمم الأعمال العالمية ، وخاصة بعض قصص سعد مكاوى ومحمود البدوى وكثير من قصص يوسف جوهر ويوسف السباعي تصل الى تلك القمة ، ولو كانت هناك خطة لترجمة تلك الأعمال لرأينا مدى تقبل العالم لمثل هذه الروائع .

ويأتى بعد جيل الفرسان هؤلاء ، جيل ثالث كان قد تشرب ماء المطر المنهمر وتشبع به ، وأخذ فى العطاء ،وهو جيل الستينات الذى حفر في أرض الأدب العربى ، نيلا من العطاء القصصى ، كان له شكله الخاص ومذاقه الخاص ، وأيضا ، عبقريته العفوية التي أطلقت الى عوالم وآفاق أوســـع وأرحب ، لهذا وجـد الكثير من الترحيب فى أنحاء كثيرة من العالم ، فالقصة كائن خاص ، يتمتع بأصالة ثابتة وهى نابعـة من الانســـان ذاته ، وينفرد دون فنون الأدب جميعا بقربه من خصوصية هذا الانسان .

ويمكن تلخيص خاصية العالمية فى مدى تعبيرهـا عن أصالة الانسان ، مع الحفاظ على لغة العصر المعاش ، ويمكن اعتبار كل قصة جيدة عالمية على أساس مفهوم القصة الحديثة .

ونورد هنـا تقرير علمى جامع حول هذا المبحث اتفق حوله أساتذة الأدب شعبة الآداب بالمجلس .

حـــول العـــالمية :

(المقصود بعالمية الأدب المصرى أن يبرز هذا الأدب بمميزاته وجوهر خصائصه الى الساحة العالمية ، فيجاوز بقيمه الانسانية نطاق محليته ، ويصل الى رحاب أوسع للاتصال والمشاركة والتماس بينه

وبين سائر الآداب ويستشرق بتفـرده المجال الأدبي العالمي بعمقه واتســاعه) ٠

على أن لهذه العالمية أصولها في نسيج الفكر الأدبي المصري ، فالوجدان المصري قديم قد لامس التجربه الاسبانية بعمقها واتساعها منذ القدم ، وانفعل بمشاعره وأحاسيسه وشئونه وشجونه وامالة وتطلعاته وأفكاره ، على امتداد تجاربه وتقلب ظروف حياته ، وعبر عن كل ذلك تعبيرا انسانيا عاما ، أو تعبيرا يمثل الروح الانسانية العالميــة ٠

وقد أولى المبحث موضوع عالمية الأدب المصري ووسائل تحقيقها عنايته ، وتوفر على بحثه ودراسته ، ومناقشة عناصره المختلفة ، سواء من حيث الابداع والأصالة المعاصرة فيه ، ومقدرته على التعبير بصدق عن جوهر الانسانية التي تكفل له العالمية والانتشار والذيوع العام والخلود ، أو من حيث الانتاج الأدبي في مجال الشعر والقصة والنقد ، أو من حيث الترجمة بما تقدمه للأدب العربي المصري من زاد وما تعرضه منه في المحيط العالمي ، أو من حيث دور المرأة في الابداع الأدبي ٠

أدبنا المعاصر بين المحلية والعالمية :

أن حياة الأدب بوجدان زمنه ليست موضع جدل ، وما ينبغي أن تكون مثار خصومة أو خلاف، لكن هذا الوجدان العصري مشحون بميراث ماضيه ، لا ينفك عنه ولا يمكن بتره منه ، وقانون الوراثة يحتكم هنا في حياة الأدب كما يحتكم في حياة كل كائن حي ، ماديا كان أو معنويا ، وليس في الامكان أن نتصور الأدب المعاصر نباتا بريا بلا جذور ضاربة في أعماق الماضي الا اذا تصورنا أن انسان العصر لا يمت بأدنى صلة الى الانسان الفطري في ماضي بدائيته ٠

ومهما يوغل الأديب المعاصر في الماضي البعيد ، لتحقق له ملابسة التجربة الأدبية والانسماج في مسرح الأحداث الماضيات التي اختارها موضوعا لعمله الأدبي ، بل مهما يغب عن زمانه ومكانه في استغراقه الوجداني ، فانه يظل دائما على اتصال حتمي وثيق بعصره الذي يعيش فيه ، وليس من الضروري أن يشعر بهذا الاتصال أثناء استغراقه في عمله وملابسته لواقع مضى ، بل يتحقق هذا الاتصال تلقائيا ، ويتفاعل هذا الالتقاء بين الماضي والحاضر في كل ابداع أدبي مهما كان موضوعه ٠

وليست المعاصرة في الابداع الأدبي مجرد استعمال لمظاهر وقشور وأزياء عصرية وأدوات حديثة ، دون تكييف للوجدان وتأثير في الأعماق ، بل هي التقاء بين الروح الأصيلة والروح المتطورة النامية بنمو الحضارة ، فالابداع الأدبي والفكري بوجه عام هو كشف لملامح شخصية الأمة عبر الأجيال وصدى لنبض وجدانها الحي على مسار الزمن وخطواته المتدفقة ٠

الأصـــالة :

والدول الطارئة المحدثة ، هي وحدها التي يحق لها أن تستهين بقيمة التراث ، مستجيبة في هذا الموقف لما تشعر به من عقدة النفس ، اذ يعوزها ماض من التاريخ ، يعطيها تراثه ، وأما الشعوب العريقة فهيهات أن تعي ذاتها دون ادراك عميق لمقومات أصالتها التي حققت بها وجودها على مسار تاريخها الطويل، بل هيهات أن يصح وجودها المعاصر ما لم يكن قائما على أساس من خصائصها الذاتية ، المادية والمعنوية ، التي تميز شخصيتها وتعطيها طابع الأصالة وسمات العراقة ٠

البعد المكانى للأديب :

ولننتقل الى النظر فى البعد المكانى لادبنا ، لنتبين موضعه بين بيئته المحلية الخاصـة والعالميـة ، أى بين الاندماج والتميز : الاندماج الذى يلغى طابعه المحلى المحدود ليكون ادبا عالميا انسانيا ، والتميز الذى يفـرده عن الآداب الأخرى ، بما يحمل من طابع بيئته وسمات بلده وملامح مجتمعه ، والحق أن لا تعـارض أطلاقـا بين الانسانية والمحلية ، فالانسان انســان ٠٠ على سفوح الجبال وفى كهوف الأدغال أو فى منبسط السهول ومجاهل البيد ٠٠ فى أحياء العواصم الكبرى أو فى أكواخ الصيادين ومضارب البدو وقرى الريف ٠

ولا تعارض اطلاقا بين الانسانية فى أوسع عمومها المطلق ، والمحلية فى أضيق زواياها الخاصة ، وانما ينشأ الوهم حين يتصور بعضنا أن أدبنا لن يكون عالميا الا اذا انطلق من حدود بيئته الضيقة الى العالم الكبير ، وربما وهموا كذلك ، أن الوسيلة الى عالمية أدبنا المعاصر هى أن يسهم فى الأدب الغربى ويكتب بلغاته ٠

والدعاة الى عالميـة الأدب يخلطون بين العالمـية الجغرافيـة التنفساقية ، فالأديب حين يقدم نموذجه الانسانى من أى جنس أو لون أو بيئة ، فليس يصح القول بان هذه التجربة أو تلك محصورة فى نطاق ضيق يبعدها عن جوهر الانسـانية فى عمومها المطلق ، الا أن يزعم أن صياد هيمنجواى يختلف فى جوهر انسانيته عن مقامر دستويفسكى أو طبيب باسترناك أو جندى كافكا أو ناس جوجول أو بائس هيجو أو بخيل موليير أو فارس سرفانتس ، أو العم توم لها ربيت بيتشرستو ٠

وخلود الاعمال الأدبية التى كتبت فى زمان غير زماننا ، يؤكد الفكرة ويجلوها ، فالعمل الادبي يحمل بلا ريب طابع عصره ، ولا يمنع هذا من أن بقائه بعد أن يمضي العصر وتتغير الدنيا ، فكما ننفعل اليوم بآثار أدبية تأتينا من وراء العصور والأدب ، ننفعل كذلك بالأدب الأصيل يأتينا من خيام البدو او ناطحات السحاب ، اذا أقنعنا بصدقه الى الحد الذى يحقق المشاركة الوجدانية ، وكما لا دخل للانسانية في قضية قدم الأدب أو حداثته ، لا دخل لها كذلك في مكانه ومسرحه ، ومهما تتباعد القرون والآماد بين راكب الناقة ورجال الفضاء ، فلا خلاف فى الجوهر المشترك لبشريتهما المتماثلة .

والتميز مظهر أصالة وآية صدق ، وبقدر ما يتميز العمل الأدبي وينفرد بطابعه الخاص ، تكون فرصته للعالمية والبقاء ، وما أخذت (رباعيات الخيام) مكانها فى الآداب العالمية الا بكونها فارسية أصيلة ، ولا عاشت شخصية (دون كيشوت) الا بكونها أسبانية خالصة ، ولا عبرت (رسالة الغفران) حدود الشرق العربى الى المجال العالمى ، الا وهى روسية أصيلة .

وحسب أدبنا المعاصر أن يكون أدبا أصيلا انسانيا صادقا يأخذ من العالم ويعطيه مشاركا فى بناء عصره ، ليكون أدبا عالميا معاصرا .

وذلك أن انسانية الأدب نادرا ما تتحقق بعيدا عن عمق المعاناة فى الملابسة الوجدانية للموضوع الأدبى : حدثا كان أو انسانا أو كائنا ما كان ، وفى رحاب الانسانية يلتقى أدباء من أقطار شتى وعصور متباعدة وأجناس وأعراق متفاوتة ، عبروا عن بيئتهم بأصالة واقتدار ، وعاشوا هموم دنياهم فى معاناة صادقة وملابسة

عميقة ، وأندمجت ذاتيتهم الفردية الجماعية فى الذاتية الانسانية فجاءت أعمالهم الفنية كاشفة عن جوهر الانسان فى دروب أسبانيا وحانات الفرس وسفوح كليمانجارو وقمم الأطلسى ونجوع الصعيد وفيوردات البلطيق وسهول سيبيريا وقنوات البندقية ... وفى رؤى شاعر ضرير حبيس معتزل فى قرية من قرى الشام ، أو خيال شاعر ايطالى مغامر فى فلورنسا .

اوجه نشاط ادبنا المعاصر

الشـــعر :

ان الشعر هو فن العربيـــة الأول على مدى تاريخهـا الطويل الذى لم تنازعه الفنون الاخرى من رسم ونحت وتصوير وتمثيل ... الخ ، وكان يكفى فى التاريخ العربى بيت واحد من الشعر ليشعل حـــربا أو يرفع قدر قبيلة أو يخلد ملكا ، ولاغـرو فان الفصاحة والبلاغة ومخاطبة الوجدان والشعور والعقـل والفـكر كانت العمود الأساسى فى الثقافة العربية .

وقد يعانى الشعر العربى فى بعض عصوره من تخلف يغلب على عمومه ، حتى يقيض له من أعلام الشـعر من يجـدد حيويتـه وابداعه ، ويستعيد له اشراقه ، ويصله بأصالتـــه ، مثلما فعل البارودى فى مصر فى أواخر القرن الماضى .

ثم تلا البارودى تيار التجديد يقوده أحمد شوقى واسماعيل صبرى وحافظ ابراهيم ، وتيار المحافظين على يد محمد عبد المطلب وعلى الجارم . وغيرهم ممن يطلق عليهم المدرسة الكلاسيكية ، وكان عهدهم من عهود ازدهار الشعر العربى فى مصر ، اذ كان المقياس هو شيوع الشعر وانتشاره وتاثيره فى وجدان الجماهير ، فكانت الصحف قبل الاذاعة والتليفزيون تنشر قصائد الشعر فى الصفحات

الأولى كل مناسبة أبياتا من الشعر مشهورة بينهم من شعر شوقي مثـــل :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليـه في الخلد نفسي

ومثـــل :

وانمـا الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ثم ظهرت مدرسة الديوان وهي مدرسة جديدة في الشعر . قادها الأسـتاذ عباس العقـاد ومعه الأسـتاذان ابراهيم المازني وعبد الرحمن شكري ، تدعو الى وحدة القصيدة في الشعر والعناية بالجوهر دون المظهر ، وأعمال الفكر مع العاطفة في الابداع الشعري، وكانت متأثرة الى حد كبير بالشعر والفكر والأدب الغربي ، وخاصة شـعراء القرن التـاسع عشر الانجليز ، مثـل : شيلي وبايرون ، ووردزوورث ، وحملت هذه المدرسة في اتجاهاتها نقدا لما سبقها من اتجاهات شعرية حديثة وخاصة عند شوقي ، ثم قامت جماعة أبولو التي استفادت الى حد من دعوة وحدة القصيدة ، واتجهت في أغلبها الى الرومانسية ٠

وفي الأربعينات ظهرت دعوة تجديد ، دعت الى الخروج على أصول موسيقى الشعر المتوارثة ، ونادت بقيام القصيدة على أساس التفعيلة الواحدة ، وتحمس لهـا عدد كبير من النقاد من أسـاتذة الجامعات وهاجموا الشعر العربي الأصيل مهاجمة شديدة وسموه بالتقليدي والجامد ٠٠ الخ ٠

وعاني الشعر كثيرا من الصراع بين المدرستين ، وكان يمكن تجنب هذا الصراع لصالح الشعر عامة ، وفتحت مدرسة التفعيلة الباب على مصراعية للانتـاج الشـعرى ، فدخله من لا يحسـنه ،

وخلطت وسائل الاعلام بين الانتـــاج الشعرى والنثر ، فانصرف القراء عنه او كادوا ، كما اختلت موازين الاختيار فيما يدرس من الشعر فى المدارس حتى استثقله التلاميذ ونفروا منه ، على حين نجحت مدرسة التفصيلة فى نقديم الشعر المسرحى ، واتجهت فى غالبها اليه ، وجاءت فى نهايـة المطاف نفس المدرسة لتتجـه الى قصيدة النثر التى لم يوافقها عليها غالبية النقاد ، ولذلك وجد هؤلاء النقاد أنفسهم يكادون يهاجمون الشعر كله ، الشعر الأصيل العمودى من ناحية ، وقصيدة النثر التى انطلقت اليها مدرسـة التفصيلة من ناحية أخرى ، ولذلك ساد الجو الشعري الكثير من الاضطراب والاختــلاط ، وتفاعلت فى مجاله معوقــات كثيرة ، فى الوقت الذى بدأت فيه الحركة الشعرية العالمية عامة بالرجوع الى العناية بالموسيقى فى الشعر .

ولا يغيب عن الأذهان أن الشعر العربى له خصائص تميزه عن الشعر الأجنبى ، أهمها العناية الشديدة بالموسيقى واللغـة ، وينبغى أن تبذل الجهود الكبيرة فى مجال التعلم والاعلام والثقافة للنهوض بجوهر الشعر العربى الأصيل بصرف النظر عن اختلاف المدارس حول الشكل .

القصـــة :

تعتبر القصة صورة للمجتمع وهى من وسائل العلم والاعلام والتربيـة ، ومخطىء من يظن أن كتابة القصـة المصرية بدأت فى العصور الأدبية الحديثة ، فأن قصص الفراعنة فى أوراق البردى وعلى جدران المعابد تثبت أن كتابة القصة فن مصرى قديم ، وتحفظ أوراق البردى نماذج عالية المستوى لفن القصة من حيث قدرتها على التعبير والتصوير واستبطان الروح الانسانية العامة .

فالقصة المصرية ليست هى الحديثة فقط ، ولم تكن فى نشأتها وليدة الاحتكاك بالحضارة الغربية الحديثة كما يتوهم البعض ، انما هى أصيلة أصالة مولدها المصرى القديم ، وان عدم ظهورها فى صورتها الطبيعية ومستواها الناضج • كان بسبب بعض الظروف والعوامل الطارئة التى أدت الى حالة من الضعف أو الى الاختفاء أحيانا والتحول الى الأدب الشفاهى أحيانا أخرى ، كما ظهرت أيضا فى أشكال أدبية مختلفة فى فترات متفرقة ولكن ما أن وجدت المناخ الثقافى الذى أحياها حتى نهضت مرة أخرى ، وربما يرجع الفضل فى ذلك للتيار الوطنى الذى صاحب ثورة ١٩ ، واشتغال كبار الكتاب بفن القصة مثل محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، والحكيم ، والعقاد ، واندفعت القصة المصرية الحديثة بعدهم على أيدى شباب تلك الثورة الى آفاق رحيبة •

ويأتى بعد جيل الفرسان الأوائل أجيال تأثرت بهم وواصلت العطاء وكان لابداعهم القصصى شكله ومذاقه الخاص ، ومقدرته التى انطلقت به الى عوالم وآفاق أوسع وأرحب ، لهذا وجد الكثير من الترحيب فى أنحاء كثيرة من العالم ، ويمكن تلخيص خاصية العالمية للقصة فى مدى تعبيرها عن جوهر الطبيعة الانسانية مع الحفاظ على لغة العصر المعاش ، ويمكن اعتبار كل قصة جيدة عامية ، على أساس المفهوم العلمى للقصة الحديثة •

النقـــد :

والنقد المعاصر فى مستواه الرفيع يجمع بين الأصالة والمعاصرة ، وبين التراث والحداثة ، وأن كان بعض النقاد المتأخرين من المعاصرين يوجهون جانب الحداثة ، ويلتزمون مدارس النقد الأجنبى الحديث :

التزاما حرفيا ، غافلين أو متغافلين عن تراثنا العربى القديم فى النقـــد ٠

ومع أن النقد العربي القديم له موازينه المنطقية المدروسة وله أساتذته العلماء الموهوبون فى مختلف علوم وفنون الأدب واللغة وفيه نظريات اتيارات متعددة ، فهناك نقد للمضمون ، ونقد للشكل، ونقد للمعنى ، ونقد للفظ ، وهناك نقد يتكىء على مذهب البديع ، وآخر يرجع الى عمود الشعر وآخر يعتد بالنظم ٠

وقد خلف أساتذة النقد القدماء الكبار ، نتاجا رفيعا فى النقد علما وفنا فقوموا وقسموا الشعراء ودرسوا وضع اللفظ والمعنى والأسلوب وبوبوا مناهـــج النقد الأدبى والنظـم وعمود الشـــعر وتطبيقاته ٠

وعلى سبيل المثال فأن عبد القاهر الجرجانى وضع فى كتابيه «« أسرار البلاغة »» ، «« دلائل الاعجاز »» حقائق كثيرة فى النقد والبلاغة منها : نظرية النظم أو العلاقات الأسلوبية بين الألفـاظ والتحليـــل اللغوى ، وبيان مدى قيمة عنصرى اللفظ والمعنى فى النص الأدبى ، وأهمية المعانى الثانوية فى الأسلوب ، وعدم الفصل بين الألفاظ ومعناها ولا بين الصورة والمحتوى ، والألتفات الى بلاغة الصورة فضـــلا عن بلاغة اللفظ ، ونظرية الاعتماد على الذوق فى مختلف الأحكام النقدية مما جعل عبد القاهر من أئمة النقد التأثرى٠

ويعتبر عبد القاهر الجرجانى من أكبر النقاد العرب القدامى الذين شرحوا العلاقات بين الألفـاظ والمعانى فى الأدب ، وجعلوا الألفاظ رموزا للفكرة والتجربة والعاطفة والمعنى وقد سبقوا بذلك أعلام الفلسفة الجمالية العالمين من أمثال (كروتشيه) ، ومقاييس

المدارس الابداعيــة من كلاســيكية ورومانسية وواقعيــة ووجودية وانسانية ودعاة مذاهب الفن للفن والرمزية ... الخ .

والذى يراجع أشهر تيارات النقد المعاصر السائدة عندنا الآن يجدها فى أغلبها تتصل اتصالا مباشرا بالدراسات النقدية الغربية ، ومن أشهر هذه التيارات المعاصرة : الاتجاه اللغوى الذى يربط انجازات علم اللغة بالأدب ، والاتجاه الدلالى الذى يحاول أن يجد منهجا ثابتا لمعرفة المعنى ، والاتجاه البنيوى الذى يجمع بين مختلف المناهج ، وتيار الحداثة فى النقد .

ونقدنا المعاصر جدير بأن يأخذ من تراثنا النقدى الأصالة ، وأن يقف أمام النقد الأوربى المعاصر موقف الكشــاف الناقد الذى يختار الأصلح .

الترجمــة :

الترجمة هى نقل النص من لغة الى لغة أخرى ، ويقال : ترجم عما فى نفسه اذا أعرب وأوضح مشاعر نفسه الخفية ، والترجمة فى اللغة العربية بدأت من عهد بعيد قبل الاسلام وخاصة فى امارة الحيرة المجاورة لفارس وامارة الغســاسنة المجاورة للروم ، وفى الدولة الاسلامية ازدهرت الترجمة فى عهد الخليفة المأمون العباسى ، وبواسطتها انتقلت الى الثقافة العربية العلوم العالميــة من اليونان والرومان والفرس والهنود فى الفلك والطب والكيمياء والفلســفة والرياضيات ... الـخ .

وكان المأمون يكافىء المترجمين بأن يعطيهم وزن الكتاب المترجم ذهبا وفى مصر أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى بالقاهرة أنشأ دار

الحكمة لتكون مقرا لنشاط الترجمة ومستقرا للكتب شأنها في ذلك شأن بيت الحكمة الذى أنشأه الرشيد فى بغداد •

وفي عهد محمد على أنشأ مدرسة الألسن لتخريج المترجمين وأشرف عليها رفاعه الطهطاوى ، واتجهت الترجمة آنذاك إتجاها علميا ، فعني المترجمون بترجمة الكتب الأوربية فى الطب والطبيعة والنبات والحيوان ، والكيمياء والصيدلة ، والتاريخ الطبيعى وغيرها ، وفي عهد الاستقلال أنشئت ادارة للترجمة فى وزارة المعارف ، كما كانت تسمى من قبل ، وجميع هذه الجهود كانت موجهة الى النقل من اللغات المختلفة الى العربية دون أن تتجه كذلك الى ترجمة شيء من أدبنا العربى الى لغات أجنبية وأن وجدت جهود فردية فى هذا المضمار ، وفي جامعة عين شمس ، وكلية اللغات والترجمة ، وتتبع جامعة الأزهر ، وفيها كذلك أقسام اللغات فى كليات الآداب المختلفة •

ولكن الأمر يحتاج منا الى انشاء أكاديمية لأعمال الترجمة ، ولابد لنا من اعداد طبقة من المترجمين الممتازين ، ومن تأليف لجان علمية لاختيار أفضل ما فى الفكر العالمى ، كذلك للترجمة الى العربية •

ولا يخفى أن الحضارة العالمية الآن ، فى خطوات تطورها العلمى الكبير وتقدم وسائل الاتصال بينها ، تعتبر الترجمة من أهم وسائل الاتصال الحضارى العلمى والثقافى والفنى والاعلامى حيث تتم ترجمة كل الأعمال البارزة فى هذه المجالات وبأقصى السرعة الى اللغات الحية ، وتقوم على هذه الترجمة أجهزة هائلة لا تحجب عنها الا الأسرار العسكرية الخطيرة التى يبررها التنافس فى السبق العلمى أو المحافظة على الأمن والتفوق الحربى ، ولاشك أن اتصالنا

الحضارى بالعالم حولنا يحتم علينا العناية بالترجمة عن اللغات الأجنبية ، كما أن ترجمة أدبنا الى اللغات الأخرى يساعد على شيوعه وانتشاره وعالميته .

الأدب النسائى (١) :

لاشك فى أن الابداع الأدبى للمرأة يختلف عن ابداع الرجل، فكما تختلف المرأة عن الرجل فى القسمات والسمات الفسيولوجية والسيكلوجية تختلف عنه فى درجة الاحساس وعمق الشعور وطريقة الأداء ، وكذلك فى مقومات الابداع الأدبى أختيارا واحاطة ووسيلة تعبير .

والذى يراجع قصة الأذيب الأمريكى الكبير « ارنست همنجواى » (العجوز والبحر) وقصة الكاتبة « مارجريت متشل » (ذهب مع الريح) يلحظ الفرق فى تناول الأحداث ودقة التصوير والاختلاف الكبير فى الأسلوب ، كما يلاحظ الفرق بين أسلوب الأستاذ العقاد والكاتبة مى زيادة على سبيل المثال فى الأدب العربى .

وفى مصر منذ مستهل العصر الحديث أدب نسائى متميز وخاصة فى الشعر والقصة والمقالة ، حيث ظهر فى أفقنا ابداع عائشة التيمورية وملك حفنى ناصف ، وتابع المسيرة الكثيرات من الأديبات والشاعرات وكاتبات القصة والصحفيات مما لا يتسع المجال لذكر أسمائهن .

ويزخر التراث الأدبى العربى بأسماء الكثيرات من الشاعرات والأديبات وصاحبات صالونات الأدب ممن كان لهن أثر كبير فى المجال الأدبى والثقافى .

---

(١) سنخصص مبحثا خاصا لهذا الموضوع .

وعندما تفتح النوافذ وتزدهر الترجمة ويتيسر الاتصال بين الأدب المصرى والأدب العالمى سيجد الأدب النسائى المصرى فى القصة والشعر مكانا متميزا فى الأفق العالمى .

الأدب المقارن :

تعتبر دراسة الأدب المقارن من أهم الدراسات التى تتناول الصلة بين الأدب العربى والآداب الأجنبية وهى علم حديث فى المدارس والجامعات العربية وتجب مضاعفة العناية به لأهميته وضرورته ، فهو يستشير الوعى القومى باتجاهات الأدب ومدارسه وتياراته ، ويصله بالتيارات الفكرية والفنية العالمية اتصالا يغذى به أصالته ويواصل به ابداعه فى مجالات التطوير والتجديد ، فهو العلم الذى يدرس مواطن التلاقى بين الآداب فى لغاتها المختلفة وصلاتها الكثيرة المعقدة فى حاضرها وماضيها ، وما لهذه الصلات من تأثير أو تأثر .

ومن أهم أمثلة هذا التأثير : ما قيل عن تأثير دانتى بأبى العلاء المعرى ، وتأثر الآداب الأوربية بقصص ألف ليلة وليلة ، بالتيارات الجديثة فى الشعر الأوربى .

ويجب العناية بتدريس الأدب المقارن بالجامعات العربية ، كما يجب ترجمة الأعمال الأدبية الأجنبية الهامة التى تعالج موضوعاته ، مع الحرص على الاشتراك فى الندوات والمؤتمرات الدولية التى تدور حول هذا الأدب والاطلاع على أعمالها كلما أمكن ذلك .

وضع الأديب فى مصر

مكانة الكاتب :

يشير حدث حصول الكاتب الكبير نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالميـة فى الآداب الى عدة أمور هـامة على المستوى الأدبى والثقافى منها :

— أهمية الحركة الثقافية والأدبية فى المسيرة الحضاريـة ، وعظم أثر الانتاج الثقافى الرفيع فى تنمية الوجدان العـام وتوجيه الأفكار العامة ، وبالتالى توجيه السلوك العـام الى العمل الواعى فى سبيل التقدم ، ومن هنـا يتحتم أن تولى الدولة وكل الهيئات الرسمية والشعبية وحتى الأفراد على اختلاف مستوياتهم أقصى العناية بالعمل الأدبى والثقـافى كركيزة هامة للعمل المنتج فى كافة المجالات ٠

— اشاعة روح الثقـة والاعتزاز بالنفس لدى المثقفين والأدباء العرب ولدى الشعوب العربية عامة ، حيث أن منح الجائزة شهادة عالمية من صفوة المثقفين فى العـالم بأن الأدب العربى والمبدعين العرب قوة مؤثرة فى الوجدان الانسـانى ، وطاقة فعالة فى الحضارة بشكل عام ، وطبيعى أن منح الجائزة لم يخلق هذه القوة ولكنه اكتشفها وأعلن ذلك الاكتشاف ٠

ومن البديهي أن تنطلق الجهود لمحاولة تنمية الابداع الأدبي والمد الثقافي ومساعدة المبدعين وازالة العقبات من طريقهم ، فالأمر الذى لاشك فيه أن الابداع الأدبي والفنى موهبة اساسا ، وطاقة فطرية يزود بها الانسان ، وتتفاوت وتختلف من انسان الى آخر ، والمنطقي أن تتوفر الجهود على اكتشاف أصحاب المواهب ، ثم تهيئة الأجواء لها لتعطى أكبر عطاء متاح ، والمجتمع العربي محتاج بحق الى مقاييس جديدة تحكم النظرة الى المبدعين في مجال الثقافة والأدب ، كما أن تقويم العمل الثقافي للمبدعين على المستوى الرسمي يحتاج الى تعديل كبير في معاييره .

وخلاصة القول أن المسئولين عن العمل الثقافي ينبغي أن يعيدوا على المستوى الرسمي والشعبي ، والنظر فى الوضع الاجتماعي للمبدعين في مجال الأدب ، وعلى سبيل المثال أن تجعل الدولة للمبرزين منهم وضعا مميزا وأن تعطى جملة الجائزة التقديرية — بعد تعديل شروطها — من الامتيازات ما يكفل لهم المستوى الرفيع ماديا وأدبيا .

ولاشك أنه من معوقات الابداع الأدبي عندنا تدنى القيمة المادية للكلمة ، ففى كل آداب وفنون الكلمة نثرا وشعرا وغناء فى جميع أنحاء العالم تعتبر الكلمة هي الأساس وهى الابداع الأول وهى الأغلى ثمنا والأكثر تقديرا . ثم يأتى بعد ذلك المؤدى غناء أو انشادا أو القاء أو تمثيلا ، فيعتبر مكملا للمبدع الأول ، صاحب الفكرة والكلمة ، وعلى هذا الأساس تقدر الأجور ويتحدد الوضع الأدبي ويكون للمؤلف شاعرا أو روائيا أو كاتبا أو مفكرا الأجر الأكبر والنصيب الأوفر من العمل الفنى والمادى الذى لا يقارن بما يحصل عليه المؤدون للعمل .

اما الوضع في مصر فيختلف عن ذلك تماما ، فصاحب الكلمة وصاحب الفكرة والمبدع الأول للعمل الفنى فيأتى فى نهاية المطاف ، ولا ينال من التقدير المادي إلا قليلا .

وفى مجال النشر فى الصحف يلاحظ فى مصر خاصة أن الصحف لا نفرد حيزا كافيا للابداع الأدبى في القصة او المقال أو الشعر ، ثم أنها توقف الحيز المتاح لنشر الابداع فيها على كتاب وصحفيين يعملون أساسا في الصحيفة ، وهذا يضيق المجال أمام المواهب الصاعدة والشابة ، ويلاحظ في القليل الذى ينشر في الصحف أنه يخضع لاعتبارات ما تنأى عن التفوق الفني .

أما النشر في الكتب فالملاحظ أن دور النشر تستهدف الربح وتغالى في هذا الى حد أن الكثير مما ينشر يعتمد على التراث والكتب التى مضى على تأليفها أكثر من خمسين سنة حتى لا تدفع دار النشر مقابلا للتأليف ، أما ما يتقاضاه المؤلفون من دور النشر فهو لا يكاد يذكر .

والذى لاشك فيه أن السبيل الى نهضة الأدب يقوم على ضرورة العناية بتقدير الكلمة ماديا ومعنويا فأن ذلك يشجع المبدعين ويضاعف امكانياتهم على الانتاج .

واخيرا

كنا نود استكمال دوائر الحوار حول قضايا أخرى مثل قضية اللغة ، حيث انها تشكل أهمية قصوى للفكر والأدب العربى ، وأيضا قضايا الشكل والبناء المعمارى سواء فى الشعر أو القصة والرواية ، وغير ذلك من قضايا كانت مثار أحاديث وحوارات دارت زمنا وكأنها لا تريد أن تنتهى .

ولكننا آثرنا أن نهتم بالقضايا التى طرحناها وهى قليلة حتى نستكمل مناقشتها على روية ودون تعجل أو اهمال ·

وفى النهاية ، أن الفكر بتجديده لا بجموده ، وقد لاحظنا أن الفكر المتجدد مثل موج البحر ، يطرد الغث ولا يبقى الا ما هو جدير بالمناقشة ، والفكر المتجدد يحتاج بطبيعته الى عقول متفتحة على درجة عالية من العلم والثقافة وبالتالى القدرة على التفكير ·

وقد لاحظنا أن هناك من المفكرين العرب المحدثين من كان يتصف برجاحة الفكر من أمثال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف السباعي وأحمد هيكل والمازني وأنيس منصور وسمير سرجان وعبد العظيم رمضان وزكي نجيب محمود وعبد الحميد يونس وكمال بشر وحسين نصار ومحمد التهامي ومصطفى الشكعة وأستاذنا ابراهيم بيومى مدكور وأستاذتنا عائشة عبد الرحمن وغيرهم كثيرون ، كانوا لنا مثل الشموس المنيرة في عالم الأدب والفكر ، وانى أهدى كتابى هذا اليهم جميعا عرفانا بجميلهم ·

الفصل الرابع

الأدب والمرأة

منذ أوائل القرن العشرين ومعركة الأدب النسائي تأخذ مساحة واسعة في الحوار والمناقشة ، وقد طفت أحيانا على (اشكالية البرقع) أو الحجاب ، ولأن المرأة منذ قدم البشرية وهي تحاول أن تشارك الرجل في كافة الأنشطة ، فأن الباحث المنصف لا يجد صعوبة ولا غضاضة في ذكر أمثلة كثيرة لنساء شاعرات وكاتبات وأيضا في مراكز السلطة بداية من الملكة أو الأميرة الى صاحبة السلطان لكونها صاحبة الخطوة عند من يملك هذا السلطان ·

والحوار الدائر حول (الأدب الحريمي) أو الأدب النسائي تشعب ، فرأى يقول أن كل الأدب ما هو الا أدب حريمي أو نسائي ، وحيثما تجد البطل تجد البطلة ، حيث توجد القصة توجد المرأة التي تسببت في حدوث هذه القصة وتنوعت القصص والمرأة واحد ، وتنوعت الأشعار والقصائد والمرأة واحد ، وتنوعت الحروب والمآسي وأيضا الأفراح والمرأة هي البطل وهي المحرك الأول لكل هذا وذاك ·

هذا الرأى (الجشتالطي) ، اعتقد أنه غير مقبول علميا ، لأنه تحديد (أدب المرأة) أو (الأدب النسائي) مطلوب حتى يمكن التحاور حوله وأدب المرأة ربما يكون عنوانا متسعا متشعبا لايمكن

حصاره ولا حصاده ، وهناك عدة كتب دارت حول هذا الموضوع ، وأن كنت وفي بداية محاوراتي هذه أجنب الأدب الذى تكتبه المرأة وأضعه في خانة مستقلة وذلك لأسباب عدة ترجع تاريخيا لحياة المرأة ووجودها بجانب الرجل .

يجب الاعتراف فى البداية ، اننا لسنا من دعاة التفريق الحاسم بين أدب تكتبه النساء وأدب يكتبه الرجال ، مثل تقسيم شاع فى النصف الأخير من القرن العشرين حول أدب الشباب وأدب الرجال وأدب الأقاليم وأدب العاصمة ، وتنوعت التقسيمات ، صرنا نسمع عن أدب جيل التسعينات وأدب جيل الستينات وهكذا حتى تمزق الأدب بين أدب حريمى وأدب رجالى وادب اقاليمى وادب عواصم ثم أدب أجيال ولا أدرى كيف يتكون الجيل فى عشرة أعوام نحن لا نؤيد هذا التقسيم ، ونعتبره نوعا من العبث لهذا لن ندخل دائرة حواره ، انما نسعى الآن للاجابة على سؤال محدد يمكننا من خلاله محاورة مقولة الأدب النسائي وسوف يكون مدخلنا فى البداية مقتطفات من ورقة بحث مقدمة من الناقد ابراهيم فتحى يقول الأستاذ الناقد ابراهيم فتحى :

يقول الباحث حول اسهام المرأة فى القصة :

نظرة تاريخية :

(فى البداية كان الابداع القصصى للمرأة العربية جزءا من المشروع الثقافى العام للطبقات الوسطى ، فى محاولتها للتحرر من السيطرة الاستعمارية وبقايا القرون الوسطى ، وتشكيل صيغ جديدة للفردية متحررة من أغلال التبعية لمالكى الأرض وأصحاب السلطان وأنماط الفكر والشعوب المتخلفة ، وكان نزوع تلك

الطبقات للتحرر يقوم على التدرج البطىء والانتقاء والمصالحة مع القـديم ، ولكن بذور رفض العـادات اليوميـة والقيم العتيقـة والافتراضات والممارسـات والمدركات السـائدة عرفت طريقها الى الأدب ، وانبعث في أشكال جديدة من القصـة والرواية وتجديد اللغـة ٠

وكانت العـلاقة بين الرجل والمرأة محورا مهما فى نسـيج الذاتية من زاوية اصلاحية الانسانية البازغة انذاك ، وهى علاقة أعيد النظر فيها من زاوية اصلاحية تحتفظ بالكثير من أرث الماضي ، ولكنها مع ذلك أتاحت فرصة لأن يتناول الأدب عموما تصوير تلك العلاقة تصويرا قصصيا ، ولأن تسهم المرأة فى ذلك التصوير ٠

ويغفل بعض مؤرخي القص دور البدايات الأولى لكتابات المرأة في المجلات النسائية المتعددة عند نهاية القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين ٠ وربما يرجع ذلك الى أن تلك الكتابة كانت قليلة الحظ من الصياغة الفنية ، وقد انصب الاهتمام على شروط السعادة الزوجية والحب الناجح العفيف وحقوق المرأة داخل النطاق المنزلى والأسرى ، مثل الموافقة على الزوج والتعليم ، وكان الطابع الوعظى الأخلاقى بارزا بشدة ٠

وسـيجد هذا المنحى ذروتـه المصـقولة فنيا فى مجموعـة «« أحاديث جدتى »» لسهير القلماوى (١٩٣٥) ، كما تتردد اصداء تهذيب الأدوار التقليدية للرجل والمرأة وتساميها فى نزعة رومانسية ساذجة عند ابنة الشاطىء وجميلة العلايلى طوال الثلاثينات ، فلم تهب عاصفة ثورة ١٩١٩ ولا زوابع أعقـابها على الابداع القصصى للمرأة كما هبت على الابداع القصصى فى فجر القصة المصرية الفنية (تيمور وشحاتة عبيد ولاشين) ، وبذلك ظـل الابداع القصصى

للمرأة واقفا عند حدود الانعكاس الفعلى لوضع المرأة فى الواقع وما أحرزته من حقوق وما أدخلتـه من تعديلات على أحلامها وذاتها القديمة ، بيد أن الواقع كان يشهد محاولات متعددة الأوجه لبناء مجتمع جديد ، وذات فردية جديدة ولعب الأدب دورا واضحا فى هذه المحاولات • أن قصة هيكل القصيرة «« حكم الهوى »» (١٩٢٦) على سبيل المثال تقفز الى الأمام فى تقديم ملامح جديدة للذات الفردية تتجاوز ترميم الذاتية القديمـة ، بـل هى الى حد ما خروج عليها ، ودعوة الى اعلاء قيمة الحب بين الرجـل والمرأة فى وجـه القيود والمصـالح •

وسـتلحق القاصـة بهذا الاتجاه الذى لا يكتفى بالانعـكاس والتسجيل لوضع المرأة ، بل يعمد الى الاستباق ، ليتحول العمل الفنى الى جزء مادى من عملية الصراع الاجتماعى لتحقيق ذاتية نامية لامرأة الطبقة الوسطى فى المحل الأول، ولكن هذا اللحاق سيستغرق سنوات نصل معها الى المد الثورى فى الأربعينات وما بعدها •

وتكتب أمينة السـعيد روايتها «« الجامحة »» (١٩٤٦) ثم «« آخر الطريق »» رافضة زيف المعايير السـائدة • وتتوالى مواقف الرفض والتمرد وتوجيه سهام النقد فى الخمسينات ، وليس من الصواب اعتبار القصص القصيرة لاحسان كمال وصوفى عبد الله قبولا للرجل السيد لان البطـلات فى هذه القصص يتجمد وعيهن عند الخضوع للفحل العملاق المارد أو الذى يقف على شاربه الصقر ، فالاتجاه العام للقص يرفض ذلك الواقع الوعى ويصل به الى مأساة ضياع الحياة فى التعاسة وضرورة الخروج من شرنقة الوعى المورث الزائف) •

ورأى الأستاذ الناقد ابراهيم فتحى استند على مقولة تاريخية بدأت فى القرن الماضى مباشرة ، وهى مقولة تعتمد فى الأساس على حس اشتراكى ، وعلى الرغم من المصطلحات التى جاءت عبر هذا الرأى الا انها فى النهاية لا تمثل رأيا قائما بذاته .

ولنحاول المضى قدما فى دراسة بحث الأستاذ ابراهيم فتحى لعلنا نهتدى فقط الى ارتكاز تتقدمه نوعا ما .

يقول الباحث والناقد ابراهيم فتحى (وقد ساد طوال الثلاثينات والأربعينات وبداية الخمسينات فى القص المصرى عموما ـ مع استثناءات لامعة ـ اتجاه يتمشى مع فردية الطبقه الوسطى فى تلك الفترة ، يفرض على النساء التخصص فى الرغبة والعاطفة ولواعج القلب ويأسرهن فى المجال الخاص بعيدا عن مواقع المشاركة الايجابية واتخاذ القرار فى المواقف العامة ، وتمتلىء القصص والروايات العاطفية عند الرجال والنساء بصور لنساء ملفوفات بالأكاذيب الرائجة عن المرأة ، وكأن تلك الأكاذيب هى أعمق دوافع المرأة وهى جلدها وملابسها ، فهناك تقسيم أبدى للأدوار بين الجنسين : للذكور الحقل والميدان والسيف والنعل واصدار الأوامر ، وللاناث البيت (سجن يمتلكنه) والفراش والمطبخ وابرة الخياطة والقلب والطاعة وتقديم وسائد الحنان ، وتنتقد سهام بيومى فى مجموعتها (الخيل والليل) هذا التاريخ الطويل للوعى الزائف ، هذا التقسيم الذى يسجن الخلق الفنى فى نماذج أصلية جامدة للرجل والمرأة ، وتحاول الكاتبة أن تدمر القفص وتكسر المرأة المشوهة ، لتبتعد عن الصفات النسوية العتيقة ، صفات الموضوع الجنسى والرقة والحلاوة والنعومة فى جانبها السلبى لترتاد صفات الشجاعة ونضج الشخصية المستقلة وتحقيق الذات المتكاملة وطرح المسلمات للتساؤل ، فالانكباب على تصوير العلاقات العاطفية بين

الشباب والفتاة باعتبارها محور للعالم يضع أقنعة التنكر على الاستبداد والخضوع ويترك المجال فسيحا للسلبيه ، ويطمس ذاتية المرأة المتفتحه ، ونلتقى باتعس صورة لذلك الاتجاه فى رومانسيات المجلات النسائية (قد يكتبها رجال فى الكثير من الأحوال) فهى قص تبسيطى فى قالب نمطى تقدم بدلا من المعاناة أسطورة نهاية سعيدة بعد تجاوز حتمى لعقبات مالوفه ، ويمكن ان هذا الاتجاه الشائع فى القص والمسلسلات والافلام ، والذى يجد طريقه جزئيا فى بعض زوايا وأركان القص النسائى يقدم ما يشبه الأسطورة العمومية التى تعشش فى الاذهان لتسهم بعد ذلك فى بناء الواقع والشخصية وتجميل الهيمنة التى تمارس على المرأة لاتقويضها ، وتمجيد المرأة دون تحريرها ، وتحديث سيطرة الذكور .

وعلى النقيض من ذلك الاتجاه التقليدى الذى يرسم صورة المرأة فى الأدب باعتبارها كائنا فطريا طبيعيا أو انثى خالدة بدلا من اعتبارها شخصية انسانية متعددة الأوجه متغيرة الملامح وفقا للعلاقات الاجتماعية الثقافية المتحولة نلتقى بابداع لطيفة الزيات وهى تصور فتاة تنتمى الى الطبقة الوسطى داخل أحداث الحركة الوطنية بين عامى ١٩٤٦ و ١٩٥٦ وتكشف التناقضات فى مواقف وأخلاقيات تلك الطبقة ، وتشكيلها لملامح الشخصية وعثراتها . ويستمر هذا المنحى فى أعمالها اللاحقة بعد (الباب المفتوح) .

وسنجد رفض القيم التقليدية ونقد المحاولات المتناقضة المزدوجة للخروج منها عند زينب صادق فى قصصها وروایاتها والتركيز على رفض القيم التقليدية عند سناء البنيسى (فى الهواء الطلق ١٩٧٣ ، هى وهو ١٩٨٤) ، واقبال بركة فى أعمالها الكثيرة، وسكينة فؤاد (ملف قضية حب ١٩٧٧ ، دوائر الحب والرعب

١٩٨٤) ، ولن يخفت ذلك الصوت عند منى رجب أو منى حلمي أو عائشة أبو النور أو عفاف السيد أو علية سيف النصر أو منار فتح الباب ، بل سيظل نغمة متكررة سائدة فى ابداع القاصات .

أما الكتابة القصصية المرتبطة بحركة الواقع والتاريخ وتفاعل الرجل والمرأة فنجدها عند رضوى عاشور ، فهى تصور مقاومة نماذج متعددة للمرأة رغم الارادة المستلبة والوجود المقيد ، وتنفذ الى أعماق التناقضات .

وما سبق يوضح ان الرؤية النقدية فى الابداع القصصى للمرأة انصبت على كشف المندمات والتحيزات الأبوية الشائعة والتركيز على العوامل الاجتماعية فى التأنيث والتذكير ، لا على العوامل البيولوجية المتصلة بالجنس حتى اذا تناولت القصص اللغة الصريحة والسرية لجسد المرأة فى (شرفات قريبة) لهناء عطية .

ولكن هناك أصوات عالية تزعم ان كتابة النساء تنطلق من الجسد ، لا بتكرار كلمة الجسد ومشتقاتها عشرات المرات ، بل باتخاذ الجسد نبعا تتدفق منه الصور والاستعارات ، وقد يكون الجسد هنا هو الجسد الشبقى العارى ، جسد الشوق واللذة والبوح بهما ورفض ما يسمى التسامى الزائف ، وذلك النوع من الكتابة قد يكون متخذا شكل السيرة الشخصية والاعترافات الحميمة ، ونجد وضع الجسد فى صدارة الأعمال عند أليفة رفعت وهو يستجيب لنداء ذكور بدائيين مجردين من المدنية تتخيلهم البطلة أو لنداء رموز أسطورية جنسية مثل الحية تعويضا عن اخفاق العلاقات الفعلية مع الرجال لأنها علاقات تقوم على القهر وانعدام التفاهم والانسجام ، وقد تعنى الكتابة بالجسد فقدان الثقة فى الشعارات والأفكار المتداولة واعتبار الجسد ملاذا للحقيقة فى

عالم الزيف ، فالغرائز الاساسية هي الأعماق المتناغمة مع النظام الطبيعي ، والرغبات عند دعاة هذا النـــوع من الكتابة هي تدفق بركاني عارم يكتســح الكبت والحرمان والاخفـــاق ليهيىء ذروة مشتعلة لعربدة الجسد ٠

وتتردد أصـــداء الوعى بالجسد باعتبـــاره محورا للأعمال القصصية عند راوية راشد في بعض قصصها القصيرة وفي روايتها (هوس البحر) وفي القصص القصـــيرة لصفاء عبد المنعم وغادة عبد المنعم ولبهيجة حسين وكذلك في روايتها (رائحة اللحظات) وقد يكون هذا الوعي بالجسد نافذة نقدية تسلط الضوء على علاقات الواقع وأقنعة الممارسات وكل أنواع الاحباط ؟ وتخرج سلوى بكر عن نطاقها المعتاد لتقدم في روايتها (وصف البلبل) تنـــازلا لهذا الاتجاه الذي يقدم « صورة المرأة التي تقدم المتعة الحسية بمعناها الشهواني » وهي تعتبر في شهاداتها الكثيرة (مفهــوما متخلفـــا للمرأة) وهذه الكتابة الشبقية ــ ان صـــح القول ــ منتشرة في الأدب القصصي الذي يكتبه الرجال ، ويختفي صنع الله ابراهيـــم ورؤوف مسعد وادوار الخراط بدرجة أقل ، وهناك محاذير فنية كثيرة في هذا الاتجاه ، فقد يسجن المرأة داخـــل جسدها ويخضعها لحتمية بيولوجية عند أقلام ليست متمرسة ، ولكن الجانب الاستعاري الرمزي أو الأسطوري أو استلهام الخيال الشعبي يخفقـــان من وطأة البيولوجيا ٠

ولم يمنع الوعي بالجسد كاتبات مثل حنان الشيخ من ان تقدم في (بريد بيروت) رواية عن الحرب الأهلية والاحتلال الاسرائيلي والمقاومة الفلسطينية واللبنانية ، وكلها مواد مشتعلة ذات طابع ملحمي حماسي ، وكلهـا مساحات من التجـربة الانسانية أكبر من التجارب اليومية للحياة ٠

وهذا المحور الذى يديره الناقد ابراهيم فى النـــدوة التى أقيمت بالمجلس الأعلى للثقافة فى العـــام قبل الماضى ، يعتمد على تحليل سياسى ، الأمر الذى دفعنا للحصـــول على نماذج لشهادات بعض الكاتبات اللائى اشتركن فى تلك الندوة ، نقدمهـــا هنا بعد اختصـــار هين :

تقول هالة البدرى فى شهاداتها ما نصه :

انشغلت فى صباى بتأمل الكون والسؤال عن معنى وجودى أقلقنى الفناء ، والعدم ، فرحت ابحث عن اجـــابة ، وهو مادفعنى مبكرا لقراءة الفلسفة ، والآداب التى تثير أفكارا فلسفية ، عرفت سجناء الطونا ، والذباب وأنا ابنة الثالثة عشر ، ورحت أبحث عن مسرح العبث الذى قادنى صـــدفة متابعـــة أعداد المسرح العالمى لاكتشافه ، أحببته لأنه كان يترك رأسى متوهجة ، ويزيد فيها الطنين ، فى هذه السن الصغيرة كتبت ما تصورته شعرا ، ودونت خواطرى حول جماليات الطبيعة والمشاعر التى جعلتنى أحلق ، ومن همسات الشعر التى تتردد فى الوجدان الى أسئلة الفلسفة التى تحير عقلى ، عشت سنوات صباى حتى وقعت حادثتان لا أتذكر أيهما تســبق الأخرى ، لكنهما غيرتا من نظرتى الى الكتابة ، احداهمـــا عمليـــة فدائية لمنظمة فلسطينية اســـمها العاصفة راح أفرادها ضـــحية التفجير احتجاجا على الاحتلال ، والثانية استشهاد الفريق عبد المنعم رياض بين جنوده فى خط الدفاع الأول أثنـاء حرب الاستنزاف ، هزنى الحدث ، ووجدتنى أكتب خليطا من الشعر والقصـــة قرأته فى المدرسة ، وتعرفت للمرة الأولى على الكتابة عن أشـــياء خارج الذات لكن تؤثر عليها ، منذ هذه اللحظة بدأت رحلتى مع التأمل ، فلم أكتف بالتطلع الى السماء فحسب ووجهت نصف طاقتى لتأمل الناس وراحت تحلق على شخصيات تواجـه مشـاكل ، وتحولت

صديقاتى الى بطلات لاشباه قصص ، وكنت فى هذا الوقت مفتونة بالقراءة خاصة عن حيـــاة المبدعين والعلماء والأســـاطير القديمة والروايات العربية الأجنبية والشعر والمسرح ، وكنت دائمة المقارنة بين ما أكتب ، وما أقرأه ، وكانت بالطبع المقارنة ظالمة ، وقع هذا وقررت الا أنشر أبدا الا حين تكون كتابتى موازية لما أقرأه ، وكنت اسأل نفسى لماذا يقرأ لى شخص فى حين يستطيع ان يقرأ لشتاينبك أو يوسف ادريس أو هيمنجواى أو شكسبير ٠

قرأت كثيرا عــن نشـــأة المجتمع وتطـــوره وبالاخص عــن الديمقراطية التى أعجبت بها كفكرة ، ومطلب انسانى هام ، وزاد فى تعميق معنى الحرية دراستى بكلية التجارة فى فترة شـــهدت أحداثا تاريخية ساخنة ، كانت الجامعة فى فترة غليـــان تطالب بالحرب بعد طول سكون بعد ١٩٦٧ كتبت فى صحافة الكلية ومنها الى روز اليوسف وأنا مازلت فى الصف الثانى ٠

كان العمل فى الصحافة هو نوع آخر من البحث عن الكتابة ، ومعرفة المجتمع ولقاء المفكرين حتى تخرجت عــام ١٩٧٥ ، وهنــا يجب أن أتوقف عند هذه السنة الحاسمة فى حياتى ، اذ كنت قد تجاوزت العشرين بأشهر قليلة حين تزوجت ، وعملت مراســـلة صحفية لروز اليوسف فى بغداد وقررت ان أكون كاتبة رواية كل هذا فى شهر واحد ٠

لم أكن أعرف كيف سأنفذ قرارى هذا ، ولكن صـــادف ان تملك الفلاحون المصريون قرية عراقية فذهبت لأغطى الحدث لكننى كتبت خليطا من التغطية الصحفية ، والكتابة الأدبية ، اقتربت من الفلاحين ، وتتبعت قصص حياتهـــم منذ الميلاد ، وحتى الهجرة ، وخرج كتابى الأول حكايات من الريف عـام ١٩٧٦ ، يحكى قصـة

هذه التجربة ، وقد شجعني ما لاقاه من نجـــاح على اتبــاع تقديم نماذج بشرية فى كتاب آخر عن نفس التجـــربة بعنوان فلاح مصر فى أرض العراق ١٩٨٠ وكتاب ثالث باسم المرأة العراقية ٠

أدركت حين قررت ان أكون كاتبة حجم الجهد الهائل الواجب ان أبذله كي أثقف نفسي ، فوضعت خطـــة تقوم على عدة محاور ، وخصصت للأدب محورين ، الأول ان اقرأ لكل كاتب من كبـــار الكتاب عملا واحدا على الأقل حتى أتعرف على كتاب الرواية والقصة والكلاسيكيين والمعاصرين ، والمحور الثانى ان أقوم بتجميع الأعمال الكاملة لأحد الكتاب ، وأقوم بدراستها وقراءة ما يكفى من النقـــد عنها بالاضافة الى معلومات عن حيـــاة الكاتب نفسه ، نفذت هذه الخطة بدأب شديد مكنني خلال خمس سنوات من معرفة عدد هائل من الكتاب والأعمال الأدبية الرائعة ، قرأت لكتاب الرواية الروسية فى القرن التاســـع عشر فعرفت ديستويفســـكى ، تورجنيف ، وتشيكوف ، وبوشكن ، وجوجول ، وحتى جوركى ، وتعــرفت على ستاندال ، وبلزاك ، والأخوات برونتى وجينى اوستن وشـــاينبك وميللر ، ثم كتاب أمريكا اللاتينية واليابان وغيرهم ، وحافظت فى نفس الوقت على متابعة الاصدارات الجديدة فى القصة والشعر ، ثم حاولت ان أتلمس فى خطتى الخمسية الثانية ملامح الأدب العربى المعاصر الذى عرفت خطوطه على مدار العمر دون تخطيط ـ وبدأت بالعمل الأخير لكل كاتب ـ ثم درست الأعمال الكاملة لبعض الكتاب العرب العظام ، ومازلت حتى الآن أقوم بجمع المؤلفات لأحد الكتاب فى العالم ، وحتى لو كان قد سبق لى قراءتها متفرقة وادرسها معاً ، ومازلت اكتشف العديد من الكتاب فى العالم ، وحتى الوطن العربى الذين لا أعرف عنهم سوى أسمائهم وأحاول ان أسد هذا النقص الخطير بالمعرفة ، أعرف تماما نقاط الضعف فى ثقافتى الأدبية والعامة

وأحاول جاهدة ان اتلافاها خاصـــة ان هجـوم الأعمال الجديدة والانشغال فى الكتابة يؤخـــر كثيرا رتق هذه الثغـرات ولكننى أحـــاول .

شهادة اقبال بركة

حول التجربة الذاتية للأستاذة اقبال بركة تقول :

- بدأت ميولى الأدبية مبكرا فى فترة المراهقـــة حين حاولت ان أخط بقلمى قصص بعض صديقـــاتى ولاحظ آسـاتذة اللغـات بالمدرسة استعدادى الفطرى للتعامل مع الكليات ، اتجهت للقســم الأدبى (لغة انجليزية) فى المرحلة الثانوية ثم التحقت بكلية الآداب قسم اللغة الانجليزية ، وقتها كانت عائلتى قد انتقلت للحياة فى مدينة الاسكندرية فقد اخترت جامعة الأسكندرية للدراسة وكان لتلك المدينة تأثير كبير على روحى وخيالى ، وخلقت بداخـــلى رغبة ملحة للانطلاق الى العالم الخارجى والتعرف اليه .

وبعد الحصول على الليسانس كانت أمامى فرصـــة العمـل بالتدريس الجامعى ولكننى فضلت ان أظل حرة طليقة خارج أسوار التدريس والتزاماته الجادة ، والتحقت بالعمل فى مصـــانع شركة كبرى كموظفة شئون اجتماعية مما أتاح لى الاحتفاظ بطبقة العمال وزيارتهم فى بيوتهـــم والاشراف الصحى والاجتماعى عليهـــم ، وشجعتهم على ممارسة الأنشطة الرياضية والثقافية وشعرت برغبة ملحة فى الكتابة والمشـــاركة وبالرأى فى كل مايدور من تغيرات جذرية فى بلدى فى ذلك الوقت فانتقلت للحياة الى القاهرة مركز النشاط الثقافى والفنى ، ولكن ما أن وصلت واستقر بى الحال حتى نشبت حرب يونيو ٦٧ التى ساد أثناءها وبعـــدها جو كئيب من

الظلام والاحباط أحسسته عن قرب لأن زوجي كان يعمل مهندسا بالقوات المسلحة واشترك في مراحل الحرب المختلفة .

تضخم بداخلي الاحساس بالهزيمة ولم أجد وسيلة للخلاص سوى العكوف على كتابة روايتي الأولى لنظل أصدقاء الى الأبد ، وما أن انتهيت منها حتى قررت الخروج من مصر والقيام بجولة في بعض الدول الأوربية تاركة زوجي وبيتي وطفلي لمدة شهرين طفت فيها بكل من اليونان وايطاليا وفرنسا وانجلترا والنمسا ، بعد عودتي عرضت مخطوطات روايتي الأولى على الناقد غالي شكري فتحمس لها وقدمها الى صبحي الشاروني لتظهر ضمن سلسلة كتابات جديدة التي كان يصدرها شهريا .

كنت قبل سفري قدمت بعض قصصي الى مجلة صباح الخير ونشرت لي المجلة عدة قصص بعد ان قدمتني ضمن مجموعة (الغاضبين) ، ولكن القلق والاحساس المرير بالاحباط عاد يراودني فتركت القاهرة ، وعائلتي مرة أخرى والتحقت بالعمل في دولة الكويت كمدرسة لغة انجليزية ، كنت أرغب في ارتياد مجالات جديدة والتعرف الى عالم مختلف وبالفعل تلمست ملامح المجتمع الخليجي ، ومجتمع المغتربين المصريين به وكان الصحفي الكويتي محبوب العبدالله قد قرأ روايتي الأولى وأعجب بها فلما علم بوجودي في الكويت وقد ضمني الى مجلة اليقظة الكويتية .

على الرغم من اغراء المال والنجاح الأدبي الذي حققته بالكويت لم أستطع الاستمرار بها طويلا فما ان انتهى العام الدراسي حتى قررت تقديم استقالتي والعودة الى القاهرة : عدت مرة أخرى الى مجلة صباح الخير ، وكنت قد انتهيت من كتابة روايتي الثانية (الفجر لأول مرة) ، ونشبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ فحصلت من

السلطات على تصريح عمل كمراسلة لمجلة أجنبية هى (اليقظة الكويتية) مما أتاح لى فرصة متابعة تطورات الحرب عن قرب بصحبة المراسلين الأجانب فى المواقع ، ومن هذه اللحظة بدأ ارتباطى الفعلى بالصحافة وحسم الصراع الذى كان يدوز بداخلى بين الأدب والصحافة ، لقد فتحت لى الصحافة أبوابها .

ونحترم صدق الأستاذة اقبال بركة ، التى تؤيد موهبتها الجادة التى تجعلها فى مقدمة الكاتبات الجادات .

أما شهادة زينب صادق التى نورد فيها مايلى :

شهادة زينب صادق

عندما أكتب شهادة عن كتابتى للقصة لابد ان أذكر (روايات الهلال) وما كانت تقدمه من ترجمات للقصص والروايات العالمية ، وكان الفضل لأبى فى شراء تلك الروايات لأنه كان يحب القراءة وكانت القراءة هى الوسيلة المضمونة للتسلية فى الأجازات الصيفية ، وأذكر ان رغبتى فى الكتابة بدأت فى مرحلة دراستى الثانوية مع حبى لكتابة مواضيع الانشاء ، واعتقد ان حب القراءة يساعد على حب الكتابة أو على الأصح على نمو موهبة الكتابة ، والخيال أيضا له عمل سواء فى القراءة أو السمع ، لقد تربيت أيضا على سماع القصص من الراديو فى برامج الأطفال والخيال يصور القصة كما يحلو له .

فى كلية الآداب انضممت لجماعة الشعراء ، واستهوانى وقتها الشعر الحديث وكتابة الشعر منثورا وبالعامية ، كنا نعرض كتاباتنا على كبار الكتاب وقتها الذين كانوا يهتمون بأنشطة الجامعة ، قرأ شعرى الشاعر صلاح عبد الصبور ونصحنى ان أدرس واقرأ

فى الأشعار القديمة وأتعلم القوافى ، أما الكاتب القصصى الدكتور يوسف ادريس فقد نصحنى ان أترك كتابة هذا النوع من الشعر وأكتب القصة القصيرة لأن ما أكتبه نثرا هو نواة للقصة القصيرة ، الهمنى بالفكرة وبدأت أخوض التجربة مع تشجيعه .

كنت وقتها أدرس الصحافة فى كلية الآداب قسم الصحافة وكنا نتدرب فى الجرائد والمجلات .

عملت فى جريدة المساء ، تدريب وعمل ، وكان يوجد باب فى الصفحة الأخيرة من الجريدة اسمه (يوميات الشعب) ، كان عبارة عن انتقاء شخصية عادية من الشعب فى الأعمال والمهن المختلفة وكتابة حكايتها ، وأمنياتها ، وكنت بدون ان أدرى وأنا أكتب فى هذا الباب أتدرب على كتابة القصة من يوميات الشعب فى جريدة المساء الى الصفحات الأخيرة الملونة فى مجلة صباح الخير ، كانت عبارة عن مواضيع شعبية يكتبها صحفى ويرسمها رسام ، التحقت بالتدريب والعمل فى المجلة ، وبخبرتى المتواضعة السابقة مع يوميات الشعب عملت تحقيقات صحفية عبارة عن حكايات أيضا عن ناس من الشعب فى تلك الصفحات الملونة .

فى مجلة صباح الخير كان يوجد باب حكاية عبارة عن نصف الصفحة الأولى من المجلة تجرأت وقدمت عدة حكايات قصيرة للأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس تحرير المجلة وقتها وانتظرت عدة أسابيع لأسمع رأيه وأتحجج بحجج ساذجة لادخل مكتبه لكنه لم يقل لى شيئا عنها فاعتقدت انها ذهبت الى سلة المهملات ، لكنى فوجئت بأول حكاية تنشر لى وتتابعت الحكايات التى أكتبها بجانب الموضوعات الصحفية والتحقيقات الصحفية ، لاشك ان مجال عملى فى الصحافة فتح لى أبوابا كثيرة لمعرفة أحوال المجتمع ومقابلة أنماط مختلفة من الناس .

ويأتى سؤال ما الذى يحركنى لأكتب قصة ؟!

— أشياء كثيرة أشاهد حدث ما ، أسمع عن حدث ما ، أو حكاية ، أو اقرأ عن شيء حدث فى المجتمع . ظاهرة . حادثة . قصة حب .

— تستهوينى شخصية ما ، لرجل أو لامرأة . الملامح . التصرفات ، أراقب هذه الشخصية فى صمت ، اذا أتيحت لى فرصة للحديث معها ، أتعرف على أبعادها ، قراءاتى فى علم النفس تجعلنى أحاول معرفة أغوار هذه الشخصية ولماذا هذا التصرف أو شعرت بهذا الشعور .

— تجارب شخصية أمر بها ، مشاعر أشعر بها .

مثل هذه الأشياء تحركنى لأكتب قصة ، كتبت خمس روايات قصيرة ، لكن أجد نفسى أكثر فى القصة القصيرة وعدد القصص القصيرة والحكايات التى بدأت كتابتها منذ عام ١٩٥٨ الى الآن لا أستطيع ان أحصيها ، وأتمنى ان استمر فى كتابة القصة القصيرة .

خصوصية الابداع عند المرأة

شهادة بهيجة حسين

أعتقد اننا عندما نكتب رجـــالا كنا أم نساء فان لكل منا خصوصيته ، وأعتقد انني كتبت بخصوصيتى بهذا المعنى وقد حددت هذه الخصوصية تجربتي في الحياة وانماءاتى الفكرية فأنا امرأة عاملة تعمل ببساطة لتأكل وليس من قبيل الترف ولاتحقيق الذات أو أى شيء من هذا القبيل .

وأنا أنتمي الى جيل عاش مشروعا وطنيا كبيرا رآى فيه الحلم على وشك التحقيق وما أن أوشك على الامساك به حتى انهار ليس فى الوطن مع نكسة ١٩٦٧ وماتلاها من انهيارات فحسب ولكن فى العالم بأسره فكانت روايتى (رائحة اللحظات) وقصصى القصيرة تعبيرا عن هذه التجربة ، فقد كتبت روايتى عن امرأة مصرية سافرت للعمل مدرسة بالجزائر ولأنها سافرت تحمل وعيا بالواقع ولها منه موقف فقد رصدت متغيرات ما يحدث فى هذا الواقع العـــربى وكانت الجزائر نموذجا ، وأيضا من واقع تجربتى كانت قصصى القصيرة فقد قالــت راوية فى قصة (يقين العشق) « أنا المغدورة بأغانى الستينيات وبتمثال عبد الناصر المحطم فى شوارع دمشق » .

وتأتي بعد ذلك خصوصية الموضوع فكل كاتب امرأة كان أو رجلا له موضوعه الذى يختار أو يحب الكتابة فيه أو عنه وأنا

موضوعاتي تدور حول المرأة ويأتي الحكي في قصصي بلسان امرأة ، والمرأة عندي أي الموضوع هي امرأة متعلمة مثقفة لها موقف سياسي مهمومة عموما بما يحيط بها ولها منه موقف والمرأة عندي انسان طبيعي ليس (سوبر) يتحدى الكون ولا موضوعا للمتعة هي انسانة تخاف وتتردد تحب وتكره تضعف وتقوى ، تعشـــق كونها أنثى ولا تخجل من التعبير عن أنوثتها وأشواقها العامة والخاصة وأجدني أعبر عنهما في تداخلهما أي العام والخاص فقد كتبت في قصـــة الجنيه « مازلنا أنت وهو وأنا نقاوم الفيروس بعشق الحياة » .

ومن هنا تأتي خصوصية اللغة ولا أقصد هنا بخصوصية اللغة المفردات فحسب بل أقصد تراكيب الجمل في علاقاتها المتداخلة وقد حاولت ان اكتب لغة بسيطة لغة أشـــعر وأنا أعيد قراءاتها انها متدفقة ودافئة ، وأرجو ان أكون قد نجحت في محاولتي .

وتقول الأستاذة سهام بيومي ــ في ثورة :

يشير المصطلح الأدبي النســـائي بمترادفاته الى أنواع من الكتابات التي تقوم بها النساء ، ويتشعب حولهم مجموغة من المفاهيم والأطروحات التي تتشابك لتشكل في النهاية ستارا يحجب المرأة عن قضـــايا الابداع الحقيقية ، أو حجابا تكمن خلفه الخصوصية النسوية التي هي موضع التناول بعيدا عن قضايا وهموم الابداع نفســه ليصـــبح موضع تناول اعلامي ينحسم معه التقييم الأدبي ، وتســاهم فيه شخصيات ومؤسسات ترى ان مهمتها ترسيخ هذا المفهوم طالما ان التي تكتب هي في النهاية امرأة كما يكتسب العديد من المفاهيم الرائجة في الغرب والحركة النسائية هناك التي يتاح لبعض من الصفوة المنتقاه من النساء التي اتيح لها فرصة الاحتكاك بالغرب والانجذاب نحو تلك المقولات عن الأدب النسائي ثم يعاد

دبلجته محليا وطرحه على انه انتاج محلى ، ولست بصدد تناول ذلك تفصيليا ولكن بصدد تناول هذا الطرح فى مجال الأدب بما يحيط به من بعض المفاهيم .

بداية أشير الى أننى انتمى الى جيل خرج الى الحياة فى فترة السبعينيات بداية من مرحلة الدراسة الجامعية الى الخروج الى الواقع العملى فترة شهدت احداثا متلاحقة بدءا من مظاهرات الطلبة وحرب الاستنزاف ثم حرب أكتوبر ، ثم الأحداث المتلاحقة التى اجتاحت البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية انتهاء بتوقيع اتفاق كامب ديفيد ، وكان كل ذلك يشكل هموما عامة ارتبطت فيها بأدباء جيلى من الكتاب ومن أجيال أخرى ، حاولنا التعبير عن ذلك من خلال الكتابة ، وكانت تجربة الجيل السابق لنا فيما عرف بتيار الستينيات أو ما أطلق عليه جيل الستينيات ماثلة أمامنا ، وعندما بدأنا النشر فوجئت اننى أتعرض لعملية فرز فى أعمال بالزملاء من الشباب يتم تناولها نقديا وتقييمها فى مصادر الحركة الابداعية أما أنا فكان المطروح على هو كيف عبرت عن المرأة وصورة المرأة وعلاقة المرأة بالرجل ، لأجد نفسى محاصرة فى زاوية ضيقة اسمها أدب المرأة تدفعنى بعيدا عن المشاركة فى هموم أوسع وأكبر .

ومصطلح الأدب النسائى يستند الى رؤية اجتماعية خاصة بوضع المرأة فى المجتمع بافتراض ان هناك دورا موكولا اليه سلفا فى جانب يقع عليه القهر الاجتماعى فى مواجهة مجتمع صاغه الرجل برؤيته وفقا لمصالحه التى تربى عليها ونوع هذا القهر على القوى الصاعدة فى المجتمع أى المرأة التى تبحث عن حقوقها المسلوبة وأدوارها المفتقدة .

ونتوقف بداية عنـــد المرأة بهذا المفهوم ، فتحت هذه الكلمة تندرج مواقع وأدوار مختلفة للمرأة فى المجتمع فهناك ربة البيت متفرغة لشئون أسرتها وامرأة عاملة أو متعطلة أو ممارسة لعمل عام أو مجرد حيوان استهلاكى تعيش متطفلة على قوى أخرى منتجة فى المجتمع ، وبين كل ذلـــك يوجد امرأة مســـتغلة وامرأة أو امرأة مستغلة ، فما الذى يجمع كل هذا الشتات فى خندق واحد وعندما نقول ان المرأة مقهورة فأى امرأة منهن والمرأة أيضا قد تمارس القهر أو أنها جزء من آليات هذا القهر وقد تعيد انتاجه مثلها فى ذلك مثل الرجل المقهور .

واذا انسحب هذا المفهوم على الأدب نجد انه يتضمن اعترافا ان الأدب السائد هو أدب رجالى ولابد من طرح أدب نسائى فى مواجهة أى نوعية خاصة من الأدب بمواصــفات خاصــة وتوقعات مسبقة لا يتحدى فيها الفعل بل رد الفعل أيضا فاذا عبرت المرأة عن همومهـــا ، فياولداه على كسر الجنــاح واذا أعلنت تمردها أثارت الدهشة مثل رؤية طفل صغير يقلد الكبار واذا باحت بمكنون نفسها أثارت الفضــول والترقب واذا خاضت فى بحــار الجنس أسرعوا مهرولين وراءها ... الى تلك الاكتشــافات المثيرة فى أرض النساء الغامضـــة .

وكما اصطلح تناول المرأة بمعزل عن الدور والسياق الاجتماعى يتم تناول كتاباتها بمعزل عن العملية الابداعية ومسارها وتطورها ، فالمهم فى النهاية ان الكاتبة طمأنتنا ان المرأة تمردت وتحررت أو هى بسبيلها الى ذلك وتلك التصورات والتوقعات المسبقة عن الكتابة بالنسبة للمرأة أمر مناف للابداع وتقويض للعمليــة الابداعية من جذورها لأن الكاتبة الابداعية فى تصورى اعادة اكتشـــاف الواقع برؤى جديدة ، وطرح تســـاؤلات جديدة بشـأنه تزيح الثوابت

والتوقعات المسبقة وتدعو الى اعادة صياغة على نحو أفضل وأكثر انســـانية ٠

ويتعلل البعض ممن يروجون لمصطلح الأدب النسائى ان هناك مشاعر وموضوعات خاصة بالمرأة لا يمكن ان يشعر بها الرجل مما يستلزم وجود الأدب النسائى ان هناك مشاعر تصبح مهمتها التعبير عنها وجراحها من وجهة نظر المرأة وأتســـاءل بدورى ، هل وجود موضوعات أو مشاعر خاصة فى الابداع الأدبى يستلزم وجود نوعية خاصة بمواصفات وتوقعات معينة للتعبير عنها ، وهل تصبح تلك المشـــاعر والموضـــوعات شىء فى حد ذاته بمعزل عن الواقع المتعدد الأبعاد فى الزمان والمكان ٠

وأقول أن جوهر الابداع يكمن فى ذلك الشعور الخاص الذى ينطلق منه الكاتب أو الكاتبة بشكل عام التى تضفى رؤية جديدة على موضوعات تم تناولها فى الأعمال وهى سمة للمبدع الحقيقى دون ان يتم من خـــلال نوعية من الأدب بمواصـــفات خاصة وتوقعات مسبقة ، من خلال خصوصية أيضـــا فى التناول لكنهـــا تلقى الضوء أكثر رحابة ٠

أتساءل أيضا هل ما تكتبه امرأة تحت مسمى الأدب النسائى يصبح هو النموذج المطروح على الكاتبات من النســـاء فى مواجهة تراث انسانى ضخم من الأدب لمجرد ان الذين كتبوه رجالا ومن من المبدعين أو المبدعات يستطيع ان يزعم انه أبدع دون استيعاب هذا التراث وتمثله أو أن تزعم أى امرأة أنها أديبة لمجرد أنها قالت ان المرأة مقهورة ويجب أن تتحرر ، لا شك أن ذلك سوف يكون تجاوزا مخـــلا وعزلا لكثير من الكاتبات عن قضـــايا الابداع الحقيقية لأن الموهبين المبدعين هم الذين استطاعوا التعبير فى كتاباتهم عن رجال ونساء وشرائح مختلفة من المجتمع بصدق وعمق ٠

وفى النهاية فان حصر المبدعات من الكاتبات فى هذه الزاوية الضيقة المسماه بأدب المرأة هو خسارة كبيرة للأدب بنفس الكيفية التى نخسر بها فى عزل المرأة فى نوعية خاصة من المشاكل وان من يقبلن ذلك من الكاتبات هن مجرد نساء يتعاطين الأدب ولسن أديبات حقيقيات ، وهن يفرضن تلك القيود والعزلة على أنفسهن قبل أن يفرضها عليهم أحد) •

وليس هناك من تعليق على شهادة الأديبة سهام بيومى الا أننا نقول هذا هو رأى ، وأن كنا نرى خلاف ذلك كما سنرى فى نهاية المحـــــاورة •

والآن مع الأستاذة راوية راشد :

ان الحديث حول الكتابات التى تنتجها المرأة كظاهرة يطـرح العديد من التســـاؤلات ، خاصة وان التركيز الذى تحظى به هذه الكتابات دائما ما يضعها موضع الظاهرة وكأنها نسيج يختلف عن نسق الحركة الابداعية ككل ، وبالتالى يضع هذه الكتابات فى موضع محدود بحيث تصبح وظيفته الرئيسية هو التأكد على تغير صورة المرأة التى استقرت زمنا طويلا فى الوعى العام كأداة أو كجسد فقط ، أو أن تضع هذه الكتابات فى اطار الانتـــاج الأدبى الأقل جـــودة •

ولا أخفى حســاسيتى الشــديدة تجاه تلك الآراء التى تحصر ابداعات المرأة فى مجال القصة كظاهرة لها خصوصيتها وتحصرها فى دائرة محدودة وهى التعبير بالكتابة من خلال المرأة من أجل المرأة فقط •

وكأن آلية الابداع لدى المرأة تستمد قوتها من الاحالة المستمرة من الذات الى الموضوع مما يشوه حيزا لا يستهان به من رؤيتها تجاه الجوانب الأخرى من الحياة ، وهذا يؤدى الى أضعاف الصيغ الفنية الأخرى التى تتناولهـــا المرأة ويدفع بانتاجهـــا الأدبى الى العزلة والتحوصل حول مفاهيم محددة تزيد من انحسار الدور الذى تقوم به المرأة فى العملية الابداعية وتقلل من حجمها وحجم ابداعاتها فى منظومة الابداع العام ٠

ان التركيز على تحليل كتابات المرأة بمعزل عن التيار العام لحركة الابداع انما يؤثر على الانا الابداعية لديها ويدفعها أحيانا الى التشدد فى تناولها للموضوعات الحياتية الأخرى ٠

فنجدها دون ان ندرى تتحيز أحيـــانا الى جانب المرأة ضد الرجل ويسلبها نظرتها الموضوعية تجاه الحياة والكون ، وأعتقد أن هناك خلطا بين قضية المرأة كموضوع يمكن ان يتم تناوله فى أعمال فنية متنوعة له خصوصية سواء كتبه رجل أو كتبته امرأة وبين مضمون الابداع نفسه ، فالموضـــوع جزء من العملية الفنية بل هو مدخل للتعبير وليس الهدف ٠٠

واذا كانت أجيال الكاتبات الأوائل اللاتى اتخذن من الموضوع (موضوع المرأة) هدفا لأعمالهن فى البداية وهو أيضا موضوع الابداع ومضمونه ، فان تلك الخطوة كانت حتمية فى ظل ظروف القهر العام الذى يمارس ضد المرأة فى مجتمعاتنا وهدفه الاعلان عن صوت المرأة وحقوقها وأعتقد أن الأجيال الأولى من الكاتبات هدفهن جذب الانتباه لتحقيق مطالبهن والاعلان عن حقوقهن وبالتالى فان مجمل تلك الكتابات يمكن ادراجهـــا فى تاريخ حركة المرأة فى مطالبتها بالتحرر والاستقلال ، فلم يكن الهدف مناقشة المضامين الفنية أو تحليل تلك الكتابات واختصاصها كظاهرة ٠

ان هذا الحط في تمسك المرأة بالموضوع (موضوع حريتها) على حساب آلية العمل الفنى فى تلك المرحلة كان ضروريا لكن بطبيعة الحال يعد مرحليا أيضا ، فقد جاءت بعد ذلك أجيال من الكاتبات تناولن موضـــوع الابداع بمضـــامين مختلفة من خلال موضوعات مختلفة ولم تعد قضية المرأة هى المحور أو هى الهدف .

ودعونا نأخذ مثالا على ذلك ، فقد كتبت لطيفة الزيات روايتها (الباب المفتوح) فى نهاية الخمسينات لتعبر عن مجتمع كل هدفه قضية التحرر الاجتماعى والوطنى للشخصية الانسانية بشكل عام تناول عملها مضامين فنية جديدة فى عالم القص الروائى .

وهنا أطرح تساؤلا ؟

هل من حقنا ان نهدر القيم الفنية التى تحققها المرأة المبدعة فى مجـــال الابداع القصصى والروائى فنحصرها فى الحـــديث عن الخصوصية أو الحديث عنها كظاهرة ؟!

يضاف الى ذلك هذا التلازم المبالغ فيه بين تقييم المرأة ومضمون ابداعها ؟؟ بحيث نجد أنفسنا فى النهاية فى ورطة تقييم أى عمل تنتجه امرأة على أنه موضوع نسائى يتجه الى قضية محددة ويفصلها عن مضمون الابداع نفسه بكل دلالاته الاجتماعية والانســـانية ، وبالتالى ينحصر الانتاج الأدبى للمرأة فى نقطة فرعية لا تخدم قضيتها العامة فتصبح أدبية للنساء وليست أدبية لكل البشر ، هذا يضع الرجل فى موضع متميز حيث يتأثر بميزة كبرى فى انه يتجه الى العالم منطلقا من عالمه الرحب تجاه الكون والانسان ، وكأننا نزيد من مرارة ما تعانيه من قهر فى الخارج ليختلط بالقهر الداخلى الذى ينبع من عزلتنا عن سياق الحركة الإبداعية والنظرة الخطرة لأعمالنا التى نحصرها فى موضوع بذاته .

كنتيجة فنية لما تعاينه كانسان بعيدا عن تصنيفها وفقا للنوع أو الجنس وبالتالى فان الانا المبدعة عند المرأة لن تقف عند حدود موضوع بذاته بحيث يكون هو مركز انتاجها الفنى بل ستتحرر تلك الانا لجذب عوالم أخرى أكثر رحابة وستتولد مفاهيم وقيم ابداعية جديدة تدخل فى النسيج العام (فتذوب هذه العقدة التى تحصر ابداعها فى اطار موضـــوع محدد فقط) وبالتالى سيضاف الانتاج الابداعى للمرأة الى رصيد الابداع العام فيقوى ويزدهر .

ان التركيز على قضـــية بذاتها لدى المرأة ينقل الانا المبدعة بصراعات ومواقف قد تؤثر على العمل الفنى وتضع الكاتبة فى مأزق الترجيح أى الميل الى شخصية دون أخرى ، فيخل هذا من فنية العلاقة بين شخوص العمل الفنى كنساء أو رجال وفقا لموقف الكاتبة وبالتالى يختل الميزان العام لمضـــمون العمل الفنى فتظهر شخصيات مخدومة وشخصيات مهزومة ليس لسبب سوى ان الانا تتخذ موقفا متشددا أو متحيزا لجانب على حساب الجانب الآخر فيظهر العمل الفنى عديم القيمة وهذا ما يؤخذ أحيانا على الصورة العامة لكتابات المرأة .

أقول أنه حان الوقت كى تناقش ابداعات المرأة وفقا للسياق العام لحركة الابداع القصصى ، وان تتحرر الانا المبدعة عند المرأة من رواسب الماضى لتنطلق الى مجالات ارحب ليس هدفها موضوع بذاته ولكن كل المواضيع بحثا عن صيغ فنية جديدة وقيم ابداعية أكثر تحررا بعيدا عن الجنس والنوع بحيث يكون الهدف هو الانسان بكل همومه ومعاناته سواء كان رجلا أو امرأة .

حوارات أكثر وضوحا

بدأنا حوارنا فى هذا المحور حول دراسة الناقد الكبير ابراهيم فتحي وقلنا ان التحليل السياسى هو الذى كان غالبا ، وبعد ذلك أعدنا نشر شـــهادات لبعض الكاتبات ، كانت اقبال بركة أكثر موضوعية وانصفت الكتابة الأدبية عموما ، وكتابة المرأة للأدب خاصة ، وكانت أيضا الأستاذة هالة البدرى التى جعلتنا نشعر ان الكتابة ليست لهوا انما هى عمل جاد سواء صدر من رجل أم من امرأة وأيضا الأستاذة بهيجة حسين .

أما الأستاذة سهام بدرى فقد كانت متحمسة للدفاع عن المرأة الكاتبة ، وحاولت ان تدافع عن المرأة ضد اتهامات شائعة وليست مؤكدة ، كما انها راحت تدفع عن الكاتبة تهما لم تعد الآن موجودة ، وكذلك فعلت الزميلة راوية راشد .

لهذا لجأنا الى دراســـات أكثر عمقا وجدية ـ وأعدنا نشر دراساتهم فى هذه الدائرة التى تكاد تمتلىء بالأقاويل الكثيرة .

من هذه الدراسات :

ـ دراسة الدكتورة رضوى عاشور

ـ دراسة القاصة اعتدال عثمان

تقول الدكتورة رضوى عاشور فى بداية بحثها عن الحرية والكاتبة :

ان مفهوم الحرية جزء من نسق فلسفى ينظم علاقة الانسان بالوجود ورؤيته له سواء كان واعيا بتفاصيل هذه الرؤية أو ممارسا لها دون وعى بالتفاصيل وتقول أيضا :

ولا يمكن الحديث عن مفهوم الحرية لدى كاتبات يختلفن فى رؤية الوجود وفى الموقع والموقف وان اجتمعن على الوعى بخصوصيتهن كنساء يعانين بدرجات متفاوتة من القهر والتهميش ، تتعدد وتتباين مفاهيم الحرية لدى كاتباتنا العربيات ولا ينفى هذا التعدد وجود مشتركات وهواجس ملحة تشى بقدر من التشابه .

وتقول لطيفة الزيات : «« ما من مخلوق حر على اطلاق الحرية الا اذا اصيب بالجنون وانفصم بالتالى انفصاما كليا عن واقعه وترى لطيفة الزيات ان الفعل الانسانى محكوم بجدلية الضرورة والحرية فى واقع يشكل الفعل بقدر ما يؤثر الفعل فيه ، واقع محكوم بالاف الضرورات الاقتصادية والسياسية والسلوكية والأخلاقية والعادات والتقاليد ، وهذا الواقع الاجتماعى والتاريخى يملك ان يسلبنى القدرة على الفعل الحر بالوعد والوعيد بالسجن والتشريد ، بالحرمان من العمل وبالتالى من لقمة الخبز الضرورية لعيشى »» وتواصل لطيفة الزيات قائلة ان هذا الواقع ليس من صنعى واختيارى وان ملكت أيضا مع غيرى من الناس السعى الى القضاء على ضروراته ضرورة بعد ضرورة ، حريتى هى جزئيا جدل ذاتى / موضوعى دائب بينى وبين واقعى التاريخى الاجتماعى وهو جدل لا يخمد أبدا .

ويشكل الرأى المطروح فى هذه الشهادة ركيزة أساسية من ركائز عالم الكاتبة الروائى من نصها الأول «« الباب المفتوح »»

(١٩٦٠) الى أحدث نصوصها «« صاحب البيت »» (١٩٩٤) مرورا بمجموعة «« الشيخوخة وقصص أخرى »» (١٩٨٦) «« وحملة تفتيش ، وأوراق شخصية »» (١٩٩٢) •

فى (الشيخوخة) تتأمل بطلة القصة مفردات عمرها باحثة عن مواطن الزلل التى عوقت تحققها وقدرتها على الكتابة فتخلص الى ان المطلق الآن فى عقلى قرين الموت ، قرين يرفض قانون الحياة المحكوم بنسبية الزمان والمكان والتغير الدائب ، وفى استنتاج لاحق تقول (لا يملك أحد أن يقتل أحدا ، يدا القتيل فى كل الحالات مخضبة بدمه) ويرد نفس المعنى فى (حملة تفتيش : أوراق شخصية) حيث حملة التفتيش مزدوجة ، تفتيش السلطة الجائرة بهدف الترهيب والمعاقبة ، وتفتيش المرء ذاته يواجهها ويحاسبها •

تصف الكاتبة فى الجزء الثانى من النص الذى يحمل تاريخ ١٩٨١ كيف تم القبض عليها وفى السيارة التى تحملها الى سجن القناطر تقول :

«« ارتخى فى جلستى ، نشوى بادراك اننى ألمح حريتى كاملة غير منقوصة فى آخر الطريق بعد أن تلطمت طويلا وانا أضل الطريق الذى وجدته شابة ، وتلطمت طويلا لأجد ذاتى وأنا أفقد وأسترد صوتى ، وعلى مشارف الستين ها أنا أجلس مرتخية فى هدأة الليل فى مقدمة عربة شرطة ، والضابط يبحث عن السجن ليودعنى السجن وما من أحد عاد يملك أن يسجننى وحريتى تلوح فى آخر الطريق كاملة غير منقوصة تنتظر منى أن أمد يدى لأحتضنها »» •

يكتسب السجن ذو الدلالة المعروفة المحددة معنى مضافا فى هذا السياق ، يتحول الى علامة نقيضة تشير الى تحرر الذات عبر

مواصلة السعى الى الحرية والوفاء بمتطلباتها ، والسجن المادى المحدد جغرافيا ـ هنـاك فى القناطر عام ١٩٨١ ـ يؤكد سقوط السجن الأعتى داخل الذات فتتحرر من خوفها ونكوصها وأحجامها ، وتواصل مع غيرها من البشر فى فعل المواجهة .

وترتكز هذه المفارقة الى فكرة ازدواج المسعى الى الحرية وهى فكرة تتكرر فى كل نصوص لطيفة الزيات حيث الجهاد الأصغر يدور مع قوى القهر السياسية والاجتماعية أما الجهاد الأكبر فصراع الانسان مع ذاته ليتحرر من قوى الموت فيه وبتحمل مسئولياته .

وتحاول الدكتورة رضـوى عاشـور دراسة نفس التحليل التحررى عند نوال السعداوى فتقول :

أما نوال السعداوى فتركز على القمع الخارجى وحده وتقول : «« كان التاريخ العبودى منذ الفراعنة قد رسم تاريخ حياتى من المهد الى اللحد كما انه شكل السلطات المنوطة بذلك ، ابتداء من سلطة الأب والزوج فى الأسرة الصغيرة مرورا بسلطة الدولة والقـانون والمؤسسـات وسلطة الدين والشريعـة ، وانتهاء بالسلطة العليـا والشرعية الدولية ، وقد اتخذت هذه السلطة المترابطة المتضامنـة شكل الهرم الأكبر يجلس على قمته اليوم النظام العالمى الجديد ، وجريدة النيويورك تايمز ، وشاشة السى ان ان ، وتقبع على السفح الحكومات المحليـة والتلفزيون المحلى والسجن وجهاز الرقـابة ، وسلطة النقد الأزلى .

وما تقوله نوال السعداوى هنا صحيح ، فى تقديرى على الأقل ـ ولكنها فى بقية النص الذى اقتبست منه هذه الفقرة (« الابداع والسلطة » شهادة قدمتها الى ملتقى الابداع النسائى الذى عقد فى

بيروت فى سبتمبر ١٩٩٢) وفى غيره من نصوص تميل الى اختزال الوجود الاجتماعي الى عدد من الثنائيات ، رجل / امراة ، سلطه / فرد ، الانا / الاخر ، الذات / الموضوع ، ولان البنية الاجتماعيه بنية معقدة تتشابك العلاقات فيها ، ولان التكوين الاجتماعي الذى تفرزه هذه البنية ليس أقل تعقيدا فان هذه الثنائيات تخلق رؤيه مفارقه للواقع وتبسيطا مخلا يبدو فى عبارات مثل «« وجدت ان كلمة التفانى تجلس على قمة الأعمال التى يقوم بها العبيد »» أو «« التفانى فى الأخرين ، افناء الذات ، التضحية بالذات الخ الخ كلها تندرج تحت بند الموت أو الفنـاء ولكن الابداع أو الكتابة مما عكس ذلك تماما ، انها تحقيق الذات لا انكارها »» ٠

تقول الكاتبة الفلسطينية ليانة بدر :

عندما كنت في أولى سنوات التفتح حذرتنى أمي من الوقوف أمام المرآة ٠٠٠ أرادت أمي أن تحمينى من عين المرآة لانها أم العيون كلها ، تلك العين التى تبذر الدمار عبر انعكاساتها المتعددة بطبقاتها اللانهائية ، فاذا كانت السماء ذاتها تتكون من طبقات سبع ، فلا أحد يعرف قرارة بئر المرآة الصقيل الأملس ، تلك العين الباردة التى لا تكف عن التطلع الى البشر وأجســادهم منذ عشرات الآلاف من السنين ، والأخطر من ذلك كله ، أرواحهم أيضا ، كانت أمي تنهانى بمقدرة حنانها الدائب كي لا أقارب ذلك السطح الشرير الذى ينشىء حوارا مع الروح ، ان للمرآة سـحرا قاتلا تتوغل فى ثنايا المرء ، مغرية اياه بتأمل ذاته ومطالعة علاقة روحه بالعالم رافعة اياه الى حافـة الجنون ٠

تستخدم ليـانة بدر المجاز الأشهر فى تاريخ النقد الأدبى (أذكر هنا ان اسـتخدام صورة المرآة للدلالة على طبيعـة الفن

كانعكاس يرجع الى المحاورات الأفلاطونية وان هذا الاستخدام ظل شائعا فى التراث النقدى منذ الاغريق القدامى وحتى وقتنا هذا) تعيد ليانة بدر تشكيل الصورة لتصبح المراه هى عين الكاتب ، يرقب بها نفسه والعـالم من حوله ، يلتقط ويميز ويفهم ويقبـل ويرفض ، هى عين «« تبذر الدمار »» لانها تخلخل الثبات المزعوم بتفحص المسلمات واعادة النظر فيها ٠

وفيما تقوله ليانة بدر اشارة واضحة للطوق المضروب حول المرأة ، يحول بينها وبين حقها فى النظر ـ التأمل ـ المعرفة ، وتثير قصة (بحر العشق والعقيق) لاعتدال عثمان نفس القضية اذ تعيد الكاتبة صياغة حكاية القصر الذى يسمح لمن يدخله ويتنعم بالحياة فيه أن يفتح الأبواب جميعا سوى باب ، ويعطى مارد المفاتيح لعروسه الجديدة الوافدة على البيت وينهاهـا عن فتح باب بالذات ولكنها تفتحه مدفوعة بالنزق الى اكتشاف المجهول ، الى معرفـة السر ، (الى فتح مغاليق محرمة) ، (والتوغل فى أعماق معتمة) تفتح الباب وتدلف الى السرداب فترى ما ترى ثم تحكى مطلقة «« افراس الكلام من أعنة المحاذير »» ٠

على أعتاب عالم التجربة فى قصـة (بحر العشق والعقيق) يهدى العريس لعروسه خاتما وعقدا ، فى الخاتم «« حجر عقيق محفور على هيئة رأس حية الصل يحيطه مستطيل ماسى له أركان مدببة قاطعة والرأس يطلق شرارا أحمر باهر الوهج »» وحبات العقد الست مماثلة للخاتم ، وفى العقد والخاتم طوق وتوق ، يحبس الخاتم الأصبع والعقد يطوق العنق ، ويرتبط الاثنان ووهج عقيقهما بتوقد الدخول الى دنيا جديدة (برعونة فتح المغاليق المحرمة وحرارة المعرفـة) ٠

تدخل المرأة القبو ترى ما فيه ثم تخرج منه وقد احترقت أصابعها وانطفأ وهج العقيق في العقد والخاتم ، المعرفة في (بحر العشق والعقيق) غواية ومعصية وجرح ، تستحضر جميعا الحكاية القديمة لأول البشر وتترك على عنق المرأة حزا دمويا لعقد في حجارته نقش حية ، ولكن المعرفة في النص ليست شرا بل خير يشرع باب القبو المظلم لضوء النهار ، والأطفـال يدخلونه ليشـاهدوا خباياه الثمينـــة .

المعرفة ، التطلع اليها ، والمحاذير المحيطة بها والآلم المرتبط بها والفطام الضرورى لتحصيلها ، موضوع يتكرر في نصوص أكثر من كاتبة ، تربط ليانة بدر في شهادتها بين حق أعمال النظر وسرقة بروميثيوس للنار المقدسة .

تقول الأم لابنتها : «« هل يستطيع المرء اطالة التحديق في الشمس دون أن يصاب بالعمى وتبدد نور العين ؟ وما كان بامكاني – تقول الكاتبة – تقليب النظر والحكم على ما قيل لى وقتها .

ولكن الحروب الكثيرة التى عشتها فيما بعد دفعتنى الى أعمال النظر ، والى محاولة اختلاس لحظات من نيران المعرفة الالهية التى تندلع في شمس النهار والتى لا يقتنصها البشر الا عبر مراياهم المعدنية البـاردة .

المعرفة شرط للكتابة تسعى المرأة اليها سعيا (تختلسها) ، (تقتنصها) ، وتفتح «« الغرف الممنوعة »» تقول الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمى : فتحت ، ما خطأ بابا كان لابد لى أن أفتحه واذا بى أمام نفسى واذا بى روائية .

لاراغون مقولة جميلة : (الرواية هى مفتاح الغرف المنوعة فى بيتنا) يوم قرأتها ادركت أن ولادتى الحقيقية كانت يوم فتحت ذلك الباب لأرى امرأة كنت أتوقعها غيرى واذا بى أصاب بالذهول وطوفان الكلمات يذهب بى الى نص مفتوح .

اكتشفت اننى قضيت حياتى أمر جوار تلك الغرف الممنوعة داخلى معتقدة انها لا تعنينى اسكن غيرها وكانت هى التى تسكننى وتشغل الحيز الأكبر من فضائى الداخلى وعلى الورق وبالتالى كانت مفاتيحها هى التى تحكمنى وقفلها هو ثقب حريتى وعبوديتى .

تستخدم أحلام مستغانمى صورة الباب المغلق أو المفتوح للتعبير عن العلاقة بين الكتابة وكشف الذات ، ثم تضيف صورة القبو والغرفة السرية ، تقول :

(الروائى هو الذى لا يتردد فى فتح غرفه السرية أمامك ، ويجرؤ على دعوتك لزيارة الطابق السفلى فى البيت والقبو والأماكن المغلقة التى تكدس فيها الغبار والآثاث القديم والذاكرة وكل دهاليز النفس التى لم تدخلها الكهرباء بعد) .

وينطبق ما تقوله أحلام مستغانمى على الكتابة اجمالا سواء كان المبدع رجلا أو امرأة ولكن من الملفت للنظر ان صور الباب المغلق أو المفتوح ، والمزلاج والقفل والمفتاح والقبو المظلم أو المشرع للضوء والشمس وعين الشمس والبحر تتكرر فى نصوص الكاتبات وتشكل مجازا دالا على الوعى بالحدود المفروضة وضيق الحيز والرغبة فى التحرر والتوق الى الفضاء المفتوح ، لاتتطابق الدلالات دائما اذ توظف كل كاتبة صورها بما يفى بمتطلبات نصها ، فالباب المفتوح فى رواية لطيفة الزيات الأولى دلالة التحرر السياسى والاجتماعى

من قيد الأسرة والمجتمع ، وتحرر الوطن من قيد المستعمر وحكم الأقلية وفى رواية مراتيج (١٩٨٥) للكاتبـة التونسية عروسية النالوتى يصبح القيد هو الفـكرة الثابتة والتصور الأيديولوجى الجاهز الذى يسـجن العقول ، ويعمى العيون عن رؤيـة الوجود البشرى المفتوح والمتجدد عبر تاريـخ ممتد ، توظف الكاتبة ، فى مواجهة المراتيج ، البحر والريح الجنوبية العاتية التى تداهم البيت فجاة وتعصف بكل شيء فيه (فيحتل النظام دفعه واحدة)، (وينهار محور الارتكاز) ، أما فى قصة (بحر العشق والعقيق) يقود الباب الممنوع الى قبو به آثار قديمة ومومياء محنطة لامرأة عارفة • الرحلة فى قصة اعتدال عثمان رحلة معرفة وتوغل فى مكنونات الماضى ، دخول القبو فعل خروج وتحرر يتأتى بعقد الصـلة مع الثروات المطمورة للموروث الثقافى ، ترتبط الرحلة بالخوف والآلم ولكنها تقود الى البوح والمكاشفة وضوء النهار •

تقول عروسية النالوتى : (الكتابة عمليـة رائعة ومروعة ، وربما كانت رائعة بسبب الروع الذى تتضمنه ••• هى لحظات تقف فيها أمام نفسك ، وحدك لا سند ولا شفيع ، تقف عاريـا الا من صدقك وهشاشتك تنوء بأحمال ما خزنت وما غيبت ، كل ما يحدث فيك مقيم لا يبرح ، وهذه الذاكرة الرهيبة لا تسقط من سالف الحساب شيئا ، تندلق ملفاتها عليك من الجهات الست ، كل نبض العالم وسكراته مرسوم وموشوم على عظم من عظامك وأنت هنا راقض كالقط المذعور تفجؤك مطمورات عالمك •

لا ثنائية هنا بين ذات وموضوع أو فرد ومجموع فالكاتبة فى رأى عروسية النالوتى وان واجهت عملية الابداع منفردة فهى تحمل داخلها مخزون علاقتها بالعالم بكل عنـاصر وجودهـا الاجتماعى والتاريخى ومفردات الذاكرة التى (لا تسقط من سالف الحساب

شيئا) ، لا يبتدع الانسان نصه بقدر ما يسعى للامساك بطرف من النص الكامن فيه ، لحظة الابداع عند عروسية النالوتي عسيرة كل العسر ٠

تقول سلوى بكر ان الحرية الابداعية «« هى أن ابدع بلا قيود محددة سلفا ، أن أصوغ قيمي ومفاهيمي ، أخـلاقي الخاصة وأبدع عالمي ، وأنا أفلت من سطوة القطيع ، وقطيع السياسة ، من حفظة النصوص على وجه التحديد (وتختتم سلوى بكر كلامها) بأننـا أصبحنا شعوبا بلا خيال ، وان حياتنـا أصبحت قبيحـة لا مكان للخيال فيها ٠

فى شهادة سلوى بكر تبسيط تخلو منه نصوصها القصصية التى تذهب الى غير ذلك وتتميز بقدرة ابداعية يغنيها تواصل أصيل مع الثقافة الشعبية ٠

ترى سلوى بكر فعل الكتابة خيالا ينطلق فى سهولة ويسر ، وتراه عروسية النالوتي سعيا عسيرا كل العسر ، أما اعتدال عثمان فتراه قراءة فى سـفر الكون ، هجاء لحروفه ومفرداته ، وسؤالا يلتف كالأنشوطة حول العنق ٠ تضيق العبارة فتنقبض الأنفاس ثم تنسل شعرة الروح وتنفذ من ثقب الحجاب ٠ « واذا بالدنيا براح والقلم ينفلت فى سماء الورق » تقول اعتدال عثمان « أتعذب بالكتابة وأتصوف وأتحقق » ورغم اختلاف الصياغة فى توصيف فعل الكتابة عند عروسية النالوتي واعتدال عثمان الا ان المعنى فى جوهره شديد التشابه (*)

وتصف ليانه بدر عملية الابداع بصورة تستمدها من التراث الشعبى الفلسطينى ، صورة الطائر الأخضر الذى درجت الفلاحات الفلسطينيات على تطريزه وتعليقه على بيوتهن ٠

« طير من عصر الديناصورات ، يطلق عليه اسم الطائر الأخضر الذى ظل يغنى بعد ذبحه ليكشف سر ذابحيه أو انه حسبما يظهر لى- نوعا من طيور الجنة التى تكتسى سحنة التنين فيكتسب تعبيرا مزدوجا . يقف الطائر مرفوع الجناحين بقوة ، يفتح فمه حتى يوشك أن يغنى تحت شجرة عريضة الجذع وارقة الغصون . يفرش جناحيه ويفرد ريشه كما لو أنه يكاد أن يطير فى اللحظة التالية . لا نعلم لماذا ، لانه فرح أو سعيد أو منزعج وخائف ، أم لانه كلاهما معا ! كأنه يوشك على المصارحة وكأنه يوشك على القول ، أو انه يفغر فاه فى اللحظة الفاصلة بين الصمت والكلام . كان ذلك هو طائر البوح ، طائر المكاشفة الذى يقول ولا يقول ، يغنى ولا يغنى ولكنه فى جميع الأحوال يمثل الذاكرة الجماعية التى تحض على البوح والرواية والكلام ، وتدفع الى الكشف والتحدث والمصارحة . لم تكن احتجاجات النساء تمر بصمت أو سكون . كانت تكتسب هدير العاصفة ، تندلع فيما بينهن قصصا وأقاويل ، تخرق الصمت البليد الذى يحيط بمصائرهن وتنشىء تضامنا من حلقات تؤازر بعضها ، وتسلم جراح بعضها الآخر برواية الحكايات والقصص والمواقف والرموز » .

تنبهنا كلمات ليانة بدر الى أن التوق الى حق الكلام والاحتجاج بالكلام والتواصل والائتناس بالحكاية ليس جديدا ابتدعته الكاتبات بل تراث شعبى مارسته النساء لأجيال بلا حصر .

أما طائر البوح الذى ظل يغنى بعد ذبحه ليكشف سر ذابحيه فأرى فيه مجازا مناسبا كل المناسبة للمبدع رجلا كان أو امرأة يقف تحت تلك الشجرة الوارقة (شجرة اللغة ، شجرة التراث ، شجرة التاريخ، شجرة التجربة فلنفسرها كما نشاء) يفرد الطائر جناحيه،

ويطلق صوته ، وفى الأغنية تتجدد الحياة رغم الذبح ، خضراء فى المكاشفة والتواصل •

ملاحظة هامة :

تتصف الدكتورة رضوى عاشور بأنها كاتبة قصة متميزة وهى أيضا أكاديمية ماهرة ، بالاضافة الى قدرتها على الغوص فى أعماق الكاتبة والمكتوب ، وهو ما لاحظته على سيادتها خلال حوارنا بلجنة القصة ، الا اننى على الرغم من هذا كله ، أرى انها أخذت بمظاهر كلمات الشهادات . ان الأمر أكثر عمقا من ذلك ، وسوف نرى فى دراسة اعتدال ممتاز التى اعتمدت أيضا مجموعة من الشهادات منها شهادة رضوى عاشور ذاتها ، ولهذا نقدم دراسة أعتدال ممتاز لأهميتها •

اعتدال ممتاز : وكيف تعبر الكاتبة عن تجربتها الابداعية بقلمها ؟

أسئلة دفعتنى لتقديم قراءة لشهادات ابداعية نشرت لتسع كاتبات مصريات خلال الأعوام القليلة الماضية (١٩٩٢ ـ ١٩٩٥).

ولقد بدا لى ان الاستماع الى أصوات الكاتبات من خلال هذه الشهادات يعد خطوة ضرورية ، تكشف بعض منطلقات الابداع لدى المرأة وخصوصية عالمها القصصى ، لكنها لا تغنى بطبيعة الحال عن دراسة الأعمال الابداعية ذاتها .

ولقد اعتمدت على شهادات لكاتبات هن :

لطيفة الزيات ونوال السعداوى ورضوى عاشور وفوزية مهران وسلوى بكر وسافى ناز كاظم ونعمات البحيرى وعائشة أبو النور وكاتبة هذه السطور .

وأود أن أشير هنا الى أن هذه القراءة محددة بطبيعة مادة الشهادات ونوع الأسئلة التى وجهت للكاتبات ، ومن ثم فهى لا تحيط بمجمل التجربة الابداعية لديهن بصورة متساوية ، والحقيقة اننا نشهد تنامى ابداع الكاتبات من مختلف الأجيال بما يشكل ظاهرة أدبية لافتة ، تتناسب وتعدد الاصدارات الابداعية والملفات التى تخصصها المجلات الأدبية لكتابات المرأة ، فضلا عن الدراسات النقدية المهمة فى هذا المجال .

ولعل الشهادات التى ستلقى فى هذه الندوة تكشف عن جوانب أخرى ثرية لتنوع تجربة المرأة فى الكتابة الابداعية .

ولقد فضلت في هذه القراءة أن أستمع معكم الى أصوات الكاتبات أنفسهن ، بنبراتهن المتباينة وبعباراتهن ، كلما أمكننى ذلك ، بغير تدخل من جانبى ، الا من حيث محاولة ابراز الخصائص المشتركة لمنطلقات الابداع لديهن ودرجات التركيز على جوانب من تجربتهن الابداعية ، يرينها تمثل خصوصية الكتابة بالنسبة اليهن.

مكونات الوعى :

تنطلق لطيفة الزيات من الواقع التاريخى والاجتماعى الذى تحكمه آلاف الضرورات المشكلة لنظمه الاقتصادية والسياسية وانساقه المعرفية ، الثقافية والاجتماعية ، أما حرية الفرد لدى الكاتبة فمشروطة بوعى الضرورة وهادفة لصالح المجتمع ، بما يؤدى الى تراكم الفعل فى اتجاه تغيير الواقع الموضوعى والضرورات التى تحكمه الى شروط أفضل لفعل الأنا وبالتالى لحريتها ، فهى حرية ملزمة مسئولة وليست مطلقة على نحو ما تنص الكاتبة فى شهادة لها .

ومن هذا المنطلق لمفهوم الحرية تصف لطيفة الزيات الكتابة بقولها « كانت الكتابة بالنسبة لى ، على تعدد مقاصدها ، فعلا من أفعال الحرية ووسيلة من وسائلى لاعادة صياغة ذاتى ومجتمعى » .

وتربط سلوى بكر بين تحرير الفكر فى المجتمع كله وتحرير الخيال ، فتقول « مشكلتنا اننا بتنا نتيجة القمع الجمعى المتواصل شعوبا بلا خيال » والكتابة لدى نوال السعداوى مناوئة لتاريخ

العبودية وأشكالها القديمة والحديثة وهى بديل العدل المفتقد فى الواقع • وتحدد رضوى عاشور منطلقات الابداع لديها بوصفها منتمية الى جيل الستينات ، تكتب لانها منحازة ، تعى العنصر الأيديولوجى المبطن لأى كتابة وتضيف قائلة « أنا امرأة عربية ومواطن من العالم الثالث وتراثى فى الحالتين تراث الموءودة » انها تعى بعبارتها ان « حياتها تاريخ معاش ، تجتهد فى فهمه والاحاطة به وتنشغل كثيرا بالارادة المنفية والفعل المقموع » •

وتصف صافى ناز كاظم شكلا من أشكال التعسف الذى يواجه الفرد فى المجتمع منذ الطفولة ، نتيجة قمع الرأى وغياب مفهوم الحوار الحر فتقول « نشأت بينى وبين أساتذتى فى اللغة العربية علاقة حب ـ كراهية ، أثير انتباههم باسلوبى الانشائى •• لكنى استفزهم بتفلسفى ومناقشاتى التى تمسك بخناقهم ، فكنت مطرودة معاقبة بالوقوف « بره الفصل » وتضيف « مدرس اللغة العربية أول سلطة ظلمتنى وقهرتنى وعاقبتنى من دون سبب برغم اعترافها بجدارتى » •

وتتوقف فوزية مهران عند هزيمة ١٩٦٧ ، من حيث انها الحدث التاريخى الفادح الذى جعل الوعى يموت بالاحتراق الداخل والصمت وتصاعد أبخرة الغضب فى آن واحد • وتتحدث عن جيلها ، ذلك « الجيل الذى تربى فى أحضان حركة وطنية وقيام ثورة ارتبطت لدى أبناء هذا الجيل بالسياسة والعمل المتواصل من أجل التقدم وتغيير الحياة الى الأفضل » وتشير كاتبة هذه السطور الى ما استقر فى ذهنها وخيالها بوصفه انكسارا لأحلام جيلها ، الرجال منهم والنساء على السواء ، بعد هزيمة ١٩٦٧ • وتوضح تناولها فى قصصها لأشكال النكوص فى المجتمع والتحول السلبى والتبدد فى أزمنة النفط ، بعد ضياع الخرائط وطمسها •

ولا تظهر في شهادتي عائشة أبو النور ونعمات البحيري اشارة واضحة لمنطلقات الابداع لديهما من هذه الزاوية ·

قضيـــة المرأة :

وداخل هذا الاطار العام لمنطلقات الابداع في معظم الشهادات تبرز قضية المرأة كقضية اجتماعية محورية ، لا تنفصل عن القضايا الأساسية في المجتمع ، فتؤكد لطيفة الزيات خصوصية وضع المرأة داخل السياق الاجتماعي وترى ان الضرورات التي تحكم المجتمع كله ، رجالا ونساء ، تتضاعف بالنسبة للمرأة ، نتيجة موضعها في مجتمع طبقي رجولي ، يمارس قمع المرأة ، مما يفضي الى خضوعها بغية التواؤم مع مجتمع قاهر· وترجع بعض أسباب القهر الاجتماعي في رأى الكاتبة الى رواسب تربوية ، تتلقاها الأنثى منذ الطفولة ، تتلخص بعبارتها في « الغاء الذات لصالح الآخر ·· بحيث يغيب صوت الأنثى الخاص وارادتها الحرة وفعلها الايجـابي ، ويغيب بالتالي كيانها الحر ، المفترض أن يقف في ندية مع كيان الرجل » ·

ان الأم المقهورة تعمل بغير وعي على قهر ابنتها لكي تتواءم مع المجتمع ، تقول لطيفة الزيات :

علمتني أمي الا أفعل والا أقول ، ولا أصرح ، وصادرت كل مرة صوتي قبل أن يرتفع باركت سلبيتي وأدرجت ايجابيتي في نوع من العدوانية · علمتني كيف أبتسم ، وكيف أنحني ، وحاصرت في كل مرة غضبي بوصـــفه فعـلا منكرا · روضتني أمي وقلمت أظافري ، وعلمتني أن الحب عطية بلا مقابل ·· علمتني أمي كيف ألغي ذاتي في المحبوب لكي أكون ، أو بالأحرى لكي لا أكون ·

وتعلمت أن أقهر ذاتى واقتضانى التحرر من تربيتى المقموعة عمرا ، أقع بلا وعى فى الموروث وأعاود وقفتى بالوعى المكتسب » •

وتشير نوال السعداوى الى الرواسب التربوية ذاتها التى توجه المرأة نحو انكار الذات والتفانى فى الأخرين واخفاء الغضب ، بينما تركز على تضافر السلطات الهرميه لترسم للمرأة طريقها قبل أن تولد ، بدءا بالموروث ومرورا بالواقع السياسى وانتهاء بأشكال السلطة الأبوية فى الأسرة والمجتمع • أما الكتابة فهى وسيلتها لتجعل مصيرها يختلف عن مصير جدتها وأمها وهى ضرورة حيوية بالنسبة اليها مثل التنفس • وتشير نوال السعداوى الى أن الغضب يرتبط لديها بالابداع •

وتبرز فوزية مهران من ناحية أخرى الدور الايجابى للمرأة فى مختلف مجالات العمل والانتاج والتغلب على صعوبات الواقع وتحديات الحياة برغم الانكسارات والآلام كلها •

وتعبر رضوى عاشور عن بداية تفتح وعيها على قضية المرأة ، فتقول :

عندما غادرت طفولتى وفتحت المنديل المعقود الذى تركته لى أمى وعمتى وجدت بداخه هزيمتهما ، بكيت ولكنى بعد بكاء وتفكير أيضا ألقيت المنديل وسرت ، كنت غاضبة ... ساعتها قررت اننى ساكتب لكى أترك شيئا فى منديلى المعقود •

ويرتبط وضع المرأة لدى نعمات البحيرى بظواهر التخلف الاقتصادى والاجتماعى ، فتقول :

لقد قهر أبى أمى واخوتى وعماتى لانه كان مقهورا بفعل الفقر والجهل ، أما الكتابة فتتيح لها التعبير عن غضبها ورفضها للتصورات والأفكار الثابتة حول المرأة والتعسف ضدها ، مما يعوق حركة الكاتبة الطبيعية فى الحياة كانسان وكامرأة ·

ويظهر فى شهادة عائشة أبو النور اهتمامها بتناول العلاقات الانسانية من منظور المرأة الكاتبة ، على نحو يكشف تناقض المعايير والازدواج بين الفكر والسلوك بالنسبة لموقف الرجل من المرأة ·

وتربط كاتبة هذه السطور بين الكتابة والمعرفة من ناحية والتعبير عن المثالب الاجتماعية المرتبطة باختزال كيان المرأة الانسانى المتكامل من ناحية ثانية ، بينما تهدف الى بلورة رؤية للواقع أكثر عدلا ورحابة وانسانية ·

ولا تشير صافى ناز كاظم الى قضية المرأة بصورة مباشرة ، وان عددت فى شهاداتها أنواع المصادرة والقمع التى تعرضت لها ككاتبة ·

خصوصية التجربة الابداعية :

تقدم الكاتبات فى شهاداتهن رؤيتهن لخصوصية تجاربهن الابداعية من زوايا مختلفة ، تحددها طبيعة مادة الشهادات على نحو ما ذكرت فيما سبق ·

تقدم لطيفة الزيات ورضوى عاشور تقصيا وافيا لتجربتهما الابداعية فى شهادتين نشرتا كجزء ختامى لعملين ابداعيين لهما ، وتركز رضوى عاشور فى شهادة لها على الجانب المعرفى لعملية

الكتابة وتحددها من حيث انها علاقة بأمور ثلاثة ، أولها الواقع المحيط، وثانيها اللغة ومن ورائها التراث الثقافى والأدبى المتجسدين فيها ومن خلالها • أما العلاقه الثالثة فتتجلى فى حرفة الكتابة والخبرات المكتسبة • وتولى رضوى عاشور اللغه اهتماما كبيرا اذ ترى فيها « وطنا يمتد من قرآن العرب الى نداء البائع المتجول ومن النشيد الوطنى الى حديث السياسى الأفاق » •

وتركز سلوى بكر فى شهادتين لها على صور النساء فى تاريخنا الأدبى والمحاذير الابداعية التى تواجهها الكاتبة ، على نحو ما توضح أيضا نوال السعداوى ، بينما تبرز صافى ناز كاظم الدروب المسدودة بالمحاذير والأبواب الموصدة والنوافذ المغلقة عندما تأخذ الكاتبة بتلابيب الكتابة لتعبر عن رأيها بصدق وتدق بها على رؤوس كثيرة ، وتقدم فوزية مهران صور النساء والرجال فى أعمالها بما يجسد رؤيتها للحياة ويبلور أفكارها واهتمامها بالأخرين • وتصف عائشة أبو النور أعمالها القصصية من حيث انها تعد أدبا ذاتيا ، فتختار صيغة الحى بضمير المتكلم » أو صيغة الاعتراف والبوح من أجل أن تحقق هدفها ، الذى يتمثل فى التأثير فى عقل القارىء ووجدانه • أما نعمات البحيرى ، فانها تدع نفسها تكتب لغة تجربتها ولا تقصد شكلا أو تيارا أدبيا بعينه • وتختار كاتبة هذه السطور شخصياتها مع الواقع ، لكنها تضفى عليهم لمحات من عالم الأساطير والحكايات الشعبية ، كما تظهر اهتماما باللغة والتفاعل بين نصوص التراث المدون والشفاهى ، بما يجسد ـ من منظورها ـ الجانب الصامت الذى يرتبط بالمرأة فى التراث والواقع •

ومن الملاحظ أن الكاتبات تناولن الشخصية الانسانية فى معظم شهاداتهن بمعنى الرجل والمرأة دون تفرقة •

واذا كان المجال لا يتسع فى هذه القراءة لتقديم عرض مفصل لجوانب خصوصيات ابداعية متنوعة ومتكاملة فى كتابات المرأة ، فاننى سوف أكتفى بثلاثة مؤشرات ، ظهرت بصورة واضحة في عدد من الشهادات ، أطرحها كأسئلة للنقاش أو كمحاور تصلح للتطبيق على الأعمال الابداعية ذاتها ، فضلا عن اضافات لتجارب ابداعية أخرى ، تتيح ـ لا شك ـ نظرة أكثر اكتمالا والماما بتصور الكاتبات لهذه الجوانب .

كيف ترى المرأة الكاتبة صور النساء فى الأدب ؟

تشحذ سلوى بكر لغتها الساخرة لتتناول بعض المفاهيم ولتصف بعض الصور السائدة عن المرأة في الأدب . ومن بين تلك الصور تظهر المرأة المثقفة فى عدد كبير من الأعمال الأدبية المعاصرة من حيث انها تبدو بعبارة الكاتبة « قبيحة ، عجفاء ، بنظارة سميكة ، معقدة نفسيا ، وأحيانا موتورة . وهى عموما تظهر على حال يثير السخرية والشفقة ولا يخلو من ازدراء » .

وتضيف الكاتبة ان « الصورة الأدبية للمرأة كانت في أفضل أحوالها ارضا ، أو شجرة ، أو وردة ، أو نبعا للخير والحنان » ، ومن ثم يتم تجريد صفات المرأة . ويأتى تحديد هذه الصفات فى صور أخرى من منطلق حسى ، فتصبح المرأة « غزالة ، أو بطة ، أو سمكة (كسمك البلطى ، أو السمك البنى ، كما فى الفولكلور الغنائى الشعبى » وتتناول الكاتبة أيضا تصور المرأة من منطلق نفعى ، فتوصف بأنها « بقرة ، أو جاموسة ، أو عود حطب ناشف » .

وتتولد عن هذه التصورات الصيغ الجاهزة (والكليشيهات) مثل (وراح يلتهمها بعينيه ، بدت له كقطعة من القشدة ، وغرق فى بحر العسل ·· الخ) ويؤدى تكرار مثل هذه الصيغ الى تثبيت مواضعات أدبية بعينها على نحو لا يترك الا هامشا ضيقا للتعبير المرأة الكاتبة عن عالمها كامرأة ·

وتتناول الكاتبة مفهوم قمع اللغة على أساس ان اللغة أداة رئيسية لصياغة الرؤى والعلاقات الانسانية وتثبيت علاقات التراتب الاجتماعى والهيمنـة الاجتماعيـة ، بينما تفضى الصـيغ الجاهزة والمواضعات الأدبيـة الضيقة الى رسم صورة للمرأة تسـاعد على تكريس النظرة الدونيـة ، غير المنصـفة وغير المعبرة عن كيـانها الانسانى المتكامل ·

كيف ترى الكاتبة صور النساء فى أعمالها ؟

تهتم لطيفة الزيات بتكوين وعى المرأة فى أعمالها القصصية والروائية · واذا كانت الشخصية النسائية الرئيسية فى (الباب المفتوح) (١٩٦٠) يرتبط وعيها ، بصورة عضوية ، بالمد القومى الصاعد خلال فترة كتابة الرواية ، فان وعى المرأة يتخذ مسارات مختلفة فى مجموعة (الشيخوخة وقصص أخرى) ان تعدد أوجه الحقيقة وتشابكها بعد ١٩٦٧ ، على مستوى الواقع الموضوعى ، قد أفضى بالكاتبة الى تبين ضرورة بلورة خصوصية وعيها بذاتها كامرأة، ازاء مراحل متباينة من حياتها ، خصوصا مرحلة النضج الفكرى والنفسى ، وذلك عن طريق تشريح العلاقات الانسـانية فى حياة المرأة ، والغوص فى أعماق الذات للامساك بحقيقتها بغير أوهام ·

وتمثل (حملة تفتيش : أوراق شخصية) أهمية خاصة لدى الكاتبة فقد استطاعت من خلال كتابة هذا النص (حل الصراع

الرئيسى فى حياتها اللذى التقتهما قدرة هائلة على مواجهة الذات والمجاوزة والاستمرار من خلال هذه المواجهة) .

وفى رواية (صاحب البيت) تعرض الكاتبة لتناول جوانب متشابكه لمفهوم القهر على المستوى الفلسفى ، وأنواعه على المستويين الاجتماعى والنفسى ، المحسوس منها وغير المحسوس والذى ينزل بالانسان ، خصوصا ان كان انثى ، بينما يظهر من جديد دور الوعى المكتسب فى بلورة قدرة المرأة على مواجهة التحديات ومجاوزتها واعادة صياغة ذاتها وواقعها .

تقدم رضوى عاشور فى شهادة لها صورتين لامرأتين ، أولهما تمثال ناقص لرأس نفرتيتى ، محفوظ فى المتحف المصرى ، والثانية صورة لامرأة شعبية معاصرة . تمثال المرأة الأولى بعبارة الكاتبة (بلا تاج ولها وجه آسر ، تتحير فى معناه ، وكان عدم اكتمال التمثال يفصح عن ملامحة صانعه لوجود استشعر أعماقه وعجز فى الوقت نفسه عن الاحاطة به ، فتركه لنا حضورا تحوم حوله الأسئلة ، ويكمن بعض معناه فى عدم اكتماله) أما المرأة الشعبية ـ تقول رضوى عاشور (فتحمل على رأسها آلة خياطة .. ليست بنيلوب ، لكنها امرأة تحيك أطراف الحياة كما القميص ، تسعى فى الأرض ، تتدبر شأنها اليومى وتنتج لتطعم نفسها والعيال) .

وبين الجوهر الغامض والفعل المشروط تاريخيا تفكر الكاتبة فى صورة المرأة فى أعمالها فتتداعى فى ذهنها صور نساء مصريات وعربيات يمثلن وجودا انثويا أكثر عمقا وثراء وتركيبا مما يجسد الأدب ، وتلمح الكاتبة الى أن العين التى تلتقط والفهم الذى ينتظم التفاصيل فى كل له دلالته ، يمثلان منظور المرأة الكاتبة وتتحقق من خلال ذلك المنظور خصوصية الأدب الذى تكتبه المرأة .

وتختار فوزية مهران مادتها القصصية من خلال مشاهد الحياة اليومية ، نساء عاديات ، امهات وعاملات ومناضلات ، لهن بعبارتها عزم الرسل فى مجتمعاتنا ، وتشرح الكاتبة أهمية المنظور القصصى في ابراز رؤيتها للحياة ، اذ تقوم باعادة صياغة ظروف شخصياتها القصصية واعادة تركيب واقعهم بما يبرز المعاناة الانسانية المواصلة فى صنع الحياة ، من خلال مبدأ يستبدل النظرة القائمة على مفهوم الصراع كأساس لنية العلاقات الانسانية بمبدأ التكافل والتعاضد والمشاركة فى البناء بين أفراد المجتمع كله .

كيف ترى الكاتبة محاذير الكتابة ؟

واذا كان الكاتب والكاتبة ينتميان الى مرجعية ثقافية واحدة ، على تعددها وتنوعها البالغ ، الا ان الممارسة التاريخية الطويلة للرجل فى مجال الابداع قد اكسبت الكاتبة بعبارة سلوى بكر (خبرات طويلة جعلته يقدم على البوح والكشف ، أما الكاتبة ، فتفضل الدوران حول الأرض دون الولوج فى سكة الثالوث المحرم وفي أفضل الأحوال (فان الكاتبة) لا تقترب منها الا اقتراب المس، أو اللمس الخفيف) .

وتفضل سلوى بكر دور الرقيب الذى تدخل لتغيير عبارات فى بعض قصصها ، تراها عادية بالنسبة لأى كاتب وترد عبارات نظيرة لها فى عشرات الأعمال الأدبية . فضل عن انها مبررة من خلال منطق القصة ، بينما يعمد البعض الى اختزال العمل الفنى من أجل التركيز على جزئية واحدة فى القصة ، أما الرقيب الداخلى فانه يحتل مساحة كبيرة لدى المبدع وخصوصا اذا كان المبدع امرأة وتصف الكاتبة هذه الحالة بقولها (ما أن اشرع فى كتابة الحروف الا ويبرز الرقيب الداخلى بسيفه البتار المصبوب من قيم الماضى وشروط

الحاضر ونفى المستقبل ، فيحذف هذا الرقيب كلمة ، جملة ، فكرة • وقد ينتهى الأمر بحذف عمل ابداعى كامل • وكم من قصة آثرت عدم نشرها وفكرة ابداعية لجأت الى وادها بناء على تعليمات ذلك « البعبع » الداخل المخيف) •

وتؤكد نوال السعداوى أثر الرقيب ـ الذى يطل كالعين الالكترونية من الخارج ، أو الداخل ـ على تقييد حرية التعبير على نحو يؤدى بالكاتبة الى ترك فجوات فى النص الابداعى تظهر بعبارتها فى شكل (كلمات غير مكتوبة بين السطور أو مساحات خاليه ، أو بعض النقط ويصبح على القارىء المبدع ، أو القارئة ان تقرأ الكتاب غير المكتوب داخل الكتاب المكتوب) وتضيف (حين تعصف بى الشجاعة بما يشبه الجنون أكتب ما أريد بلا حرص ولا حذر •• وهو ما ينطوى داخل دوسيه •• كتبت عليه هذه العبارة « منشورات ما بعد الموت ») وتدرك الكاتبة الثمن الذى لابد أن يدفعه الكاتب نظير الابداع والذى قد يصل الى فقدان الحياة (فاذا ما كان المبدع امرأة أصبح الثمن مضاعفا ، أو ثلاثة أضعاف ، أو أربعة حسب الظروف والأحوال) •

وفى شهادة صافى ناز كاظم نجد وصفا لأنواع الحصار المادى والمعنوى ومصادرة حق الكاتبة فى النشر والتعبير ، فتحجم عن الكتابة ، ذلك يحدث بعبارتها « عندما توصد فى وجه (الكاتب ـ الكاتبة) الأبواب وتغلق النوافذ وتسد الدروب بالمحاذير •• وعندما لا أكتب فهذا لا يعنى انى فارغة لكنه يعنى انى ضنينة بامتلائى أن ينسكب مهدورا » •

وتتناول عائشة أبو النور بعض المواضعات الأدبية التى تنظر الى أدب المرأة بوصفه سيرة ذاتية ، وان الكاتبة هى بطلة جميع قصصها ، على أساس ان المرأة لا تكتب الا عن نفسها •

استطيع الآن أن أجمل السمات الأساسية التي تشكل مكونات الوعي لدى الكاتبات وتمثل – في أغلب الشهادات – منطلقات الابداع لديهن وان تفاوتت بطبيعة الحال درجات الوعي والقدرة على بلورة المفاهيم ، كما يمكن أيضا استخلاص بعض ملامح خصوصية الكتابة الابداعية على نحو ما صورنها في شهاداتهن .

ان السمات المشتركة لمنطلقات الابداع تظهر بصورة متداخلة، وتجمع بين الجوانب التاريخية والسياسية والاجتماعية ، فضلا عن الجوانب الثقافية والأدبية ، تلك ملحوظة أولى وبديهية تنطبق على الكتابة الابداعية بالنسبة للكتاب والكاتبات في آن واحد .

واذا اتفقنا على أن المرأة تعيش ظروف الواقع بصورة مزدوجة فتتعرض لما يتعرض له المجتمع كله من أزمات اقتصادية وسياسية واجتماعية بالاضافة الى الغبن التاريخي ، المرتبط بوضع المرأة ، داخل هذا السياق نفسه ، فاننا نتبين أسباب اهتمام الكاتبات بابراز قضية المرأة بصورة عامه والمبدعة بصفة خاصة .

وتظهر السمات الرئيسية لقضية المرأة في التركيز على الحالة الواقعية لملايين النسوة الكادحات ، مقابل القهر الجمعي الذى يتمثل في أشكال السلطات الهرمية في المجتمع والذى يتضاعف في حالة المرأة (سلوى بكر – نوال السعداوي – لطيفة الزيات) ويجعل تاريخ المرأة سلسلة متصلة من وأد الامكانات واهدار الطاقات الخلاقة (رضوى عاشور – سلوى بكر) وعلى حين يقوم الرجل المقهور بدور القاهرة (نعمات البحيرى) وبقولبتها قسرا لأسباب مصلحية نفعية تتعلق به في المقام الأول (سلوي بكر) ، فان الرواسب التربوية السلبية تفضى الى الغاء كيان المرأة كانسان متكامل وتسكت صوتها وتكرس سلبيتها وتعوق انطلاق تفكيرها الحر (لطيفة الزيات –

نوال السعداوى) ، كما تؤدي المثالب الاجتماعية المتمثلة في تناقض المعايير وازدواج القيم الى اختزال كيان المرأة أيضا والى خلل العلاقات الانسانية (اعتدال عثمان ـ عائشة أبو النور) .

وتركز الكاتبات فى شهاداتهن على مواجهة القهر الاجتماعي والنفسى عن طريق اكتساب المرأة الكاتبة للوعي بذاتها وبحقائق واقعها كشرط لتحقيق حرية الفكر وفعل الكتابة .

وتمثل الكتابة اختيارا وجوديا حاسما وضرورة حيوية لدى الكاتبات التسع على حين تضيف فوزية مهران جانبا مهما يتمثل فى أهمية دور الكاتبة فى ابراز القيم الايجابية فى المجتمع كله وفى واقع المرأة بصورة خاصة .

لقد أشرت فيما سبق على نحو مجمل الى تصوير الكاتبات لخصوصية تجربتهن الابداعية . والحقيقة ان الأسس المعرفية والثقافية العامة التى أوضحتها ، فضلا عن اهتمام عدد منهن بمفردات العملية الابداعية ، تعد كلها ضرورات بديهية بالنسبة لأى كاتب ، أو كاتبة ، وان كشف عن أفاق الخبرات الثقافية والأدبية لدى الكاتبات ودرجات تمثلهن لخصوصيات تجاربهن الابداعية المتنوعة ، وكذلك فان محاذير الكتابة وقضايا حرية التعبير تمثل قاسما مشتركا بين الكتاب جميعهم ، رجالا ونساء ـ على اختلاف توجهاتهم وافترض هنا وجود الموهبة فضلا عن تفاوت المواهب وتباين درجات العمق الثقافي وامتلاك أدوات الصنعة الفنية بطبيعة الحال .

وعلى الرغم من ان الكاتبات يبدعن داخل هذا السياق نفسه ، الا ان المواضعات الاجتماعية والأدبية تكرس تصورات بعينها للمرأة وترسم الصور الأدبية لها ، على نحو لا يترك للكاتبة الا هامشا ضيقا للتعبير عن نفسها كامرأة (سلوى بكر) وعن الشخصية الانسانية ، بمعنى الرجل والمرأة معا ، على نحو ما يظهر في الشهادات كلها ، على حين يتضاعف ثمن الابداع بالنسبة للكاتبة (نوال السعداوى) ٠

أما المواضعات الأدبية الضيقة ، فتعيد انتاج العلاقات الاجتماعية التى تثبت نظرة الى المرأة ، لا تعبر عن واقعها الفعلى ولا عن كيانها الانسانى (سلوى بكر) ، الأمر الذى يؤدى الى ان يحتل الرقيب الداخلى مساحة أكبر ، تعوق انطلاق الخيال الحر (سلوى بكر ـ نوال السعداوى) بينما تؤدى هذه المواضعات ذاتها، فضلا عن أنواع التعسف والقمع المادى والمعنوى والمصادرة ، الى مضاعفة قيود الكتابة بالنسبة للمرأة المبدعة (صافى ناز كاظم) ، أو تعرضها للأذى المعنوى نتيجة التفتيش فى أعمالها عن حياتها الشخصية (عائشة أبو النور) ٠

وفى مقابل هذه الشروط الابداعية كلها ، فضلا عن مشاكل العملية الابداعية ذاتها ، يظهر من خلال صور النساء فى أعمال الكاتبات مايمثل حقائق غائبة فى الثقافة والأدب والواقع ، أو مسكوت عنها ٠ وتتمثل هذه الحقائق فى قدرة المرأة على مواجهة الذات والامساك بحقيقتها واعادة صياغتها بغير أوهام ، كخطوة ضرورية لمواجهة تحديات الواقع ومجاوزة سلبياته (لطيفة الزيات) وفى الاشارة الى وجود أنثوى يمثل عمقا وثراء وتركيبا لم يكشف عنه الأدب (رضوى عاشور) وتدل عليه الحالة الواقعية لملايين النسوة فى بلادنا (سلوى بكر) ، وتعمل المرأة الكاتبة على ابرازه

فى أعمالها عن طريق منظور يكشف عن رؤيـة ايجابيـة لامكانات وطاقات موجودة فى الواقع (فوزية مهران) ٠

وتظهر خصوصية ابداع المرأة من خلال ذلك المنظور نفسه الذى يلتقط التفاصيل ، فتنتظم فى كل له دلالته يجسد الجانب الصامت فى التراث والواقع (رضوى عاشور ــ فوزية مهران ــ اعتدال عثمان) على نحو يستبدل النظرة الصراعية بمبدأ التكافل والتعاضد والمشاركة فى البناء بين أفراد المجتمع كله ، رجالا ونساء (فوزية مهران) ، وذلك يحدث عندما تمتلك المرأة الكاتبة الموهبة والوعى والثقافة على نحو ما تدلنا لطيفة الزيات ٠

عندما يحدث ذلك تتجلى لنا هذه الحقائق الغائبة ، أو المسكوت عنها ونتبين خصوصيات ابداعية متنوعة يكشف عنها الأدب الذى تكتبه المرأة ونستمع بصـدق وحق الى نبرات أصواتهن الخاصة ، تثرى حياتنا وثقافتنا وأدبنا المعاصر ٠

تلك السياحة التى تناولت عدة شهادات ، كتبت خلال سنوات عدة واعتمدت على نصوص موثقـة لثلاثة عشر كاتبـة من مختلف الأجيال ، أكدت هذه الدراسة أهمية حوارنا عن المرأة والأدب أو الأدب النسائى وخصوصية هذا الأدب ، وأهمية التحاور حوله ، ونرى ان دراسة اعتدال ممتاز دراسة جادة وجيدة وتثير الرغبة فى الحوار ٠

وأخـــيرا

اعتمدنا فى المحور الأخير من الكتـاب على شهادات ودراسات لكاتبات نقدر لهن دورهن فى الكتابة الابداعية ، ولم نعتمد الا على دراسة واحدة لناقد متميز وهو الأستاذ ابراهيم فتحى ، وكان من الممكن الاستدلال بعدة شهادات أخرى مثل شهادات لكاتبات لهن اتجاه مغاير لبعض الكاتبات المذكورات ، ونعتقد ان شهادة (هدى جاد) مثـلا تعطينا ملامح مختلفة عن الملامح التى وردت فى شهادة لسلوى بكر ، وأيضا شهادة لمنى رجب أو سكينة فؤاد ، أو احسان كمال ، كن سيقدمن دلائل جديدة أيضـا ، ولكننى أورد فى نهاية البحث شهادات لمجموعة من كاتبات الجيل الأحدث أو جيل أوائل القرن الواحد والعشرين ٠

مثل شهادة راندا طه التى تحاول أن تعبر عن ذاتها ، ولكن أزمة النشر الطاحنـة تجعلها ــ هى وزميلاتها ــ فى معتقل الشلل التام ، بحيث لا تمر قصة لاحداهن الا بشق الأنفس وهو منـاخ صعب للغاية ، حتى ان الحديث عن قضية المرأة يبدو هامشيا بجانب (قضية النشر) ومحاولات راندا طه فى اختراق حاجز العجز عن النشر ، تكفى للدلالة على انه لم يعد هناك فرق بين الأديب الشاب أو الأديبة زميلته بل ان صعوبة النشر تخطت كل قواعد الأجيال والشهرة بل والجودة أيضـا ٠

وهناك كاتبات واصلن المسيرة بصعوبة بالغة ، وهناك أخريات تساقطن في الطريق أما موتا مثل (عائشة حماد او قهرا مثل كثيرات، وهذا القهر الذى أبعد عن الساحة الادبية العديدات من الكاتبات اللائي كن أملا في شغل ساحة الابداع لم يتطرق للحديث عن أحد ، وكل الشهادات التى بين أيدينا تتحدث عن نجاحات لكاتبات مهما كانت تلك النجاحات الا انها في النهاية تعد نجاحا .

أما اللائى سقطن في الطريق ولم يستطعن تحقيق أحلامهن في الكتابة فلم يسمع أحد بهن ، وعلا في الساحة أصوات نسائية تنادى بالمساواة المطلقة والحرية المطلقة ، ولم يعد أمامهن الا الحديث عن المساواة ولماذا يكتب الرجل عن كذا ، ولا أكتبه أنا ، لماذا تريدون منى أن أعبر فقط عن أحاسيس الأنثى ، واذا عبرت عنها صراحة قلتم هذا لا يصح ، فأين الصحيح اذن ، والعراك مستمر ، ولكن الأدب ينحسر ، أدب النساء لانهن انشغلن بأمور أبعدتهن عن الابداع الحقيقى ، وأدب الرجال أيضا لان الابداع يحتاج الى جهد وعرق وكفاح وتفرغ ، ولا أحد يجد الوقت لكى يفعل هذا ، كما لم يعد لدينا الوعى القرائى ، وهذا موضوع لحوار آخر ، كيف نقرأ وكيف نتحاور مع ما نقرأ .

وتحية لكل من اشترك فى هذه الدوائر الحوارية .

والله ولى التوفيق

الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٧٣١/٢٠٠٠

ISBN — 977 — 01 — 6980 — 3





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





١٥٠
قرش